سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة
المكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص :

تاريخ الخليج

تأليف

لفنتانت كولونيل سير أرنولد ت ويلسون

تقديم

الرايت أونورابول آي. إس. أميري

ترجمة

محمد أمين عبد الله

دار الحكمة
لندن

حقوق الطبع محفوظة

- تاريخ الخليج
- تأليف: لفتنانت كولونيل سير أرنولد ت. ولسون
- تقديم: الرايت اونورابول آي.إس. أميري
- ترجمة: محمد أمين عبدا لله
- الطبعة الأولى آب ٢٠٠١م – جمادى الثاني ١٤٢٢هـ
- الناشر دار الحكمة – لندن
- ISBN 1 898209 13 8

88 Chalton Street, London, NW 1, 1 HJ

Tel: 0207 / 3834037 Fax: 0207 / 3830116

E-mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution

88Chalton Street , London NW1 IHJ Tel :0207-3834037 Fax : 0207 -383 0116

مقدمة

على الرغم من إدراك المؤلف لصعوبة المهمة التي أخذها على عاتقه في تأليف هذا الكتاب، الا أنه لا يعزو إلى نفسه أية ميزة خاصة في تحقيق هذا العمل. فيما عدا اقامته الطويلة بالمنطقة والتي امتدت ثمانية عشر عاما استطاع خلالها وبحكم منصبه بأن يقيم علاقات ودية وصلات وثيقة بمختلف الأفراد في كافة المدن والموانئ الواقعة على ضفاف الخليج.

كما لا ينسب المؤلف إلى شخصه أية بادرة أساسية في تأليف الكتاب إذ أن الجزء الأكبر منه قام المؤلف بجمعه واعداده من أعمال عدد من المؤلفين السابقين.

وينتهز المؤلف هذه الفرصة ليعرب عن جليل تقديره للمساعدة القيمة التي تلقاها من زميله المستر أج. دبليو. ماردون من رجال إدارة التعليم في مصر سابقا والذي يعتبر المسئول الأول عن اعداد الفصول الخاصة بالفترة التاريخية الأولى وبالعصور الوسطى والتي وردت في الكتاب أساسا كما كتبها المؤلف وكذلك عن الببلوجرافيا والتي سوف تبرئ المؤلف من أية مسئولية بل من تهمة اللورد كيزرن لبعض الكتاب «الذين يقرأون عادة ما كتبه غيرهم من كبار المؤلفين والكتاب الذين سبقوهم، أو أنهم يقرأونه لمجرد اختلاسه أو نشره كعمل من أعمالهم. أو الكتاب الذين يسيئون فهم ما يقرأون أو يعمدون إلى تحريفه أو يخطئون في تفسيره كما يحلو لهم».

ومن ثم فليس في نية المؤلف أن يستبدل أو يضيف إلى الحقائق التاريخية التي تناولها الكتاب.

لقد حاول المؤلف بأن يكتب وان لم يكن بالمستوى المطلوب التاريخ الإقليمي للمنطقة بهدف تمكين شعوبها من الإلمام بتاريخ المنطقة القديم اتباعاً لحب الاستطلاع الذي يشكل المادة الخام لحسهم الوطني وللعلوم التاريخية.

ان دراسة الخطوط الرئيسية للتاريخ دون إخضاعها للتطبيق العملي على الأوضاع التي تعيشها الشعوب قد يلقى ظلالاً قاتمة على عملية استيعابنا الصحيح للتاريخ.

ان من واجبنا أو بالأحرى في وسعنا سواء فيما يختص بالخليج أو أية منطقة أخرى أن نتعلم وأن نستفيد من أخطاء الأجيال التي سبقتنا. فإذا نجحنا في ذلك فانه يمكننا أن نتطلع بمنتهى الثقة في المستقبل.

ان غاية المؤلف هي أن يتسنى للذين يذهبون إلى الخليج سواء حبا في الاستطلاع أو من أجل العمل أو الذين يحتكون بمشاكله بحكم عملهم، أن يدرسوا مراحل تاريخه، ذلك التاريخ الذي لعبت بريطانيا دوراً بارزاً فيه منذ أن هزم دريك ودمرت رياح القدر الأرمادرا الأسبانية.

أجل، ان في كل ميناء من موانئ الخليج بل في كل جزيرة من جزره يرقد رجال منا كان لتضحياتهم الفضل في وجودنا في الخليج وفي ممارستنا للتجارة، تماما كما جعل عمل الأجيال منا في البحر وعلى الأديم من هذه المملكة (إنجلترا) الأرض الغالية علينا بما هي عليه اليوم.

وتقديرا لأولئك الرجال وباسم الذين يؤمنون بأن الإمبراطورية البريطانية ما تزال بعون الله أعظم عنصر من عناصر الخير في العالم، وباسم الذين يؤمنون مثلي بأن الدور البريطاني في الشرق لم يصل إلى نهايته بعدما ألفت هذا الكتاب.

ارنولد ويلسون

تقديم

على الرغم من المسحة الشاعرية التي تحيط باسم الخليج إلا أن الذين احتكوا بهذه المنطقة لا ينظرون إليها من هذه الزاوية، فهي منطقة تحيط بها شواطئ كئيبة معتمة وتهب عليها رياح شديدة الحرارة وتسطع في أرجائها شمس محرقة.

أما أسباب الحياة فيها فتكاد أن تكون معدومة والطبيعة قاسية عليها كما أن الإنسان فيها لم يفعل شيئاً للتخفيف من قسوتها، وسكانها قليلون ومستوى الحياة فيها في أدنى درجاته.

أما مناطق العمران فقليلة فيها كما تندر فيها الوسائل الصحية وقراها ليست أكثر من أكواخ من الطين.

والذي يصادف أن يزورها تبدو له منطقة نائية معزولة عن مواطن الحضارة في العالم[1]. غير أن المظهر خداع في كثير من الأحيان، وبالطبع فقد لعبت هذه المنطقة التي نعتبرها نائية ومعزولة دورها في تاريخ العالم لعدة قرون فقد رددت أرجاؤها صدى إيقاع جيوش الاسكندر، كما شهدت إمبراطوريات تقوم وتسقط، وصراعات بين دول الغرب البحرية في مياهها وعلى مقربة من شواطئها.

---

(1) يلاحظ ان هذا الوصف قد سجله المؤلف منذ نحو أربعين سنة.

وكما كانت منطقة الخليج تقع على الطريق المؤدي للهند فقد استأثرت باهتمام البريطانيين على امتداد فترة المائة عام الأخيرة، ولفترة تربو على قرن من الزمان ظلت بريطانيا الدولة المهيمنة في مياه الخليج.

ويعود الفضل أساساً في بقاء هذا الممر البحري مفتوحاً أمام الملاحة والتجارة العالمية وتحمل البريطانيون مسؤولية هذا الممر فقد كنا نحن الذين نتولى حمايته ونحن الذين أقمنا المناورات على شواطئه والعوامات والكابلات في مياهه كما يعود الفضل الينا أيضا في وضع حد للقرصنة وتجارة الرقيق وتجارة الأسلحة. كما أننا تمكنا من حمل زعماء القبائل العربية بأن تعيش في سلام مع بعضها البعض كما عقدنا معاهدات معها سارية المفعول عدداً من السنين.

وفي 15 مايو من عام 1903 وقف اللورد لندسداون في مجلس اللوردات البريطاني ليعلن: «بأننا نعتبر قيام أية دولة بإنشاء قاعدة بحرية أو حامية في الخليج تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية، وبالتالي فمن حقنا مثل هذه الإجراء بكل الوسائل المتاحة لنا».

وفي سنة 1907 عاد السير إدوارد جراى فأكد هذا الموقف ولا يزال الوجود البريطاني قائما حتى هذه اللحظة[1].

وقد عرض نشوب الحرب العظمى المصالح البريطانية في الخليج كما في مناطق أخرى لأخطار جسيمة فعلى رأس الخليج كان الأتراك يقفون لنا بالمرصاد ثم لما انضموا لعدونا اضطررنا لاتخاذ إجراء فوري حفاظاً على مصالحنا وعلى جهد عشرات السنين وتضحياتنا.

ومن هذا المنطلق أرسلت بريطانيا الحملة المعروفة ب D إلى

---

(1) اي منذ نحو خمسين سنة إذا استقلت كل دول الخليج في السنوات العشرين الأخيرة.

البصرة في خريف عام 1914 فقد كانت لتلك الحملة أهدافها فقد أملت علينا الظروف القاسية أن نتخذ هذا الاجراء.

لقد انجرفنا والحق أقول، إلى الدخول في تجارب غريبة وتحمل مسئوليات جديدة ربما نأى عنها غيرنا أن تلك الخطوة كانت في جوهرها حتمية إذ لم يكن لنا مفر منها.

ان سجلنا في الخليج قد يصمد لأدق الاختبارات، وأننا لم نفعل ما فعلناه من أجلنا وحدنا وإنما من أجل كل شعوب الدنيا، كما أننا لم نطالب بتسهيلات خاصة أو امتيازات استثنائية. لقد رضينا بأن نضع إمكانياتنا وجهودنا في حلبة المنافسة الحرة مع الدول الأخرى وان نلتزم بقبول نتائجها أياً كانت. ولقد أصبح في مقدورنا الآن أن نستعرض جهد قرن من العمل بروح شجاعة وضمير نقي.

هذا عن الماضي ولكن ما هو الأمر بالنسبة للمستقبل؟ وهل من المقدر للخليج في السنوات القادمة أن يلعب نفس الدور الذي لعبه في السنوات التي مضت؟

إنني من المؤمنين بأن أهمية الخليج سوف تزداد ولن تقل إطلاقاً، فالشرق الأوسط الآن في طريق الانفتاح وفي كل مكان منه تستجد ظروف وتتوفر فرص للنمو والتطور.

انه يقال لنا بأن الفرصة تكمن في الاتصالات البحرية ومن خلال هذه الاتصالات مع الشرق يمكن أن تشكل شواطئ الخليج صلة هامة، وهذا عامل جديد يضاف إلى الموقف وان كنا في هذه اللحظة لا نستطيع أن نستشف طبيعة تلك التطورات القادمة.

ولكن إذا كان لا بد لعملنا هذا أن يستمر، فعلينا أن نعتمد منذ الآن كما اعتمدنا في الماضي على ملكاتنا ومواهبنا.

واني لأود لو يسمح المقام بأن أنوه بتلك المجموعة من الرجال البريطانيين الأوفياء الذين جادوا بأرواحهم من أجل هذه الأهداف في هذه المنطقة القاحلة الجافة من العالم.

انهم نفس الرجال الذين شيدوا هذا البناء الذي يقوم الآن حجرا فوق حجر، فهل سينجلي المستقبل عن مجموعة جديدة من هؤلاء الرجال ليسيروا في خطاهم؟ بالنسبة لي فاني لا أشك مطلقاً في ذلك فالإمبراطورية البريطانية لها أن تتوقع دائما معينا لا ينضب من هؤلاء الرجال.

ومن بين الشخصيات البريطانية المعاصرة التي خدمت في الخليج يعتبر السير ارنولد ويلسون ألمعهم. فقد استطاعت قلة من الرجال أن تكون خبرة عن الشرق الأوسط ككل والخليج بوجه خاص. كما ان قلة منهم هي التي استطاعت أن ترسم صورة صادقة، وان تقدم للقارئ الإنجليزي القصة الكاملة لما حققه مواطنوهم في هذا المجال. واني على ثقة تامة من هذا وأنا اقدم هذا الكتاب لهم.

أي اس أميرى

الفصل الأول

نظرة تاريخية وجغرافية

نظرة تاريخية وجغرافية

ان كتلة الأراضي التي تتألف منها شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وفارس كما نعرفها اليوم، بدأت في اتخاذ شكلها هذا منذ العصور الموسينية، غير أنه في تلك الفترة من التاريخ، كان الجزء المنفصل من البحر الأحمر لا يزال مرتبطا بمنطقة البحر المتوسط على امتداد تشكيلاته الراهنة.

وفي بداية العصور التاريخية القريبة، والتي قد يقدر بأنها انتهت منذ نحو مليون سنة، انفصل حوض البحر الأحمر من البحر المتوسط ثم اكتسحته مياه المحيط الهندي، ثم في نحو منتصف تلك المرحلة التاريخية تكون خليج من المنطقة البحرية التي تمثل الآن البحر المتوسط وامتد حتى مدينة تدمر.

وفي مستهل المرحلة الميوسينية ـ كان البحر المتوسط الكبير يشمل الحزام الجبلي الجنوبي لمنطقة كردستان الحالية. وقد بدأ انحسار ملحوظ للبحر في أعقاب ذلك مما نشأ عنه بحيرات متبعثرة من الملح والجير، ثم عاد ذلك البحر في منتصف المرحلة الميوسينية فاحتل جزءا كبيرا من محيطه السابق، إلا أنه في نهاية تلك المرحلة تم انفصال نهائي فيما بين

المحيط الهندي والبحر المتوسط. وفي بداية العصور الميوسينية. كان الخليج محصورا ضمن شق ضيق على امتداد السهل الساحلي الحالي لفارس، ولكنه لم يكن امتداده يجاوز حدود لارستان، ثم إلى الشمال الغربي وعلى امتداد سفوح الحزام الجبلي الحالي فان تلك المنطقة كانت تتميز بمورد هائل من المياه العذبة والبحيرات المويلحة حيث تتجمع على شكل كتل، وتلال الرمال حيث تصل كثافتها في بعض المواقع إلى 15,000 قدم كدليل على العمق العمودي لتلك المنخفضات.

ان حركات الالتفاف الكبرى التي تشكل سلسلة جبال زجروس قد تمت خلال العصور التاريخية القريبة حيث وصلت أقصى حدتها في نهاية تلك الحقبة.

وقد اندفعت عملية الضغط من الشمال الشرقي، بحيث تحول موقع الأجزاء المنخفضة لبحيرات بختياري إلى الجنوب الغربي كنتيجة لتلك الضغوط، وبالتالي تكون عنها ما نعرفه الآن بالخليج وبلاد ما بين النهرين.

أما مقدم شبة الجزيرة العربية فقد كان كتلة صلبة لم تتأثر بالموجات المندفعة من تلك الالتفافات. أما عمان فهي تشكل استثناء: انها جزء غريب على التركيب الجيولوجي لشبه الجزيرة، فقد تشكلت بصورة قوية في منتصف العصر الطباشيري، هذا على الرغم من أن بروزها الهائل قد تم في فترة لاحقة.

إن الضغط الهائل المتولد عن عملية تكون الجبال، قد أفرز ظواهر ثانوية غريبة في منطقة الخليج.

ففي المراحلة الكامبرية من تاريخ الأرض (أي أقدم مرحلة جيولوجية نشأت عنها الحياة كما نعرف) تكونت طبقة ملحية شديدة الكثافة بقيت على امتداد العصور اللاحقة مدفونة داخل الصخور.

ان الملح يتحول بفعل الضغط إلى مادة لدنه، ويمكن أن يسيل ويتحرك كما يتحرك بكتلة ثم ان الضغط المتولد من حركة تكون الجبال قد امتص ذلك الملح من مكامنه داخل بطن الأرض، وبالتالي فقد ارتفع ذلك الملح إلى الأرض في مواضع كثيرة من الكرة الأرضية على شكل اسطوانات يتراوح قطرها من 4 إلى 6 أميال، ولهذا فان جزر هنجام وهرمز ولاراك وأبوموسى وكثير غيرها نرى أنها تكون على المنطقة الأساسية جبالا هائلة من الملح يصل ارتفاعها إلى أربعة آلاف قدم، كجبل (كوهى ناماك) الواقع في داشستان ولارستان. أما الصخور البركانية وغيرها من المعادن فهي غير موجودة في هذه البقاع وهي نماذج للطبقات السفلى التي أفرزها الملح في عملية ظهوره من جوف الأرض.

في الوقت الذي كانت تلك الظواهر الطبيعية تأخذ مجراها في جنوب غربي فارس كان هناك من ناحية أخرى نشاط بركاني هائل داخل فارس الوسطى وشبه الجزيرة العربية. فقد حدثت انفجارات كبيرة للأحجار البركانية وربما استمرت على امتداد العصور التاريخية القريبة، أو قد نقول حتى العصور التاريخية المعروفة بدءاً من دمشق حتى مكة وهي منطقة تتميز في عصرنا الحاضر بظهور موجات من الحمم التي يقذف بها سطح الأرض من وقت إلى آخر.

وإذا افترضنا وجود الإنسان الأول في الخليج فإن بقاياه في أكثريتها قد غطتها الرواسب البحرية والنهرية المتتابعة أو دفنتها في ثنايا الطمى، لأننا لن نعثر على أية آثار للرجل الأول في هذه المنطقة قبل مرحلة ما بعد العصر الحجري.

غير أن هذه الآثار لم تكشف بعد، وأنه على الرغم من أن القطع الصوانية التي تم جمعها في بلجيكا كمخلفات عن العصر الميوسيني لم تتأكد حقيقتها بعد إلا أن تلك المخلفات الحجرية التي لفظتها ضفاف

وادي النيل، تحمل ملامح أصدق عن تلك المرحلة.

كما أن بعض العناصر التي اكتشفت في شياي (قد تعود في تاريخها إلى 400,000 إلى 100,000 قبل الميلاد) قد تم العثور عليها فوق سطح الأرض في إيران وشبه الجزيرة.

وعلى أية حال فلا توجد أدلة على وجود إنسان العصر الحجري في شليا أو سوسيانا. فالأدوات المصقولة من الحجر التي عثر عليها في سوسا وبرشهر، لا يمكن أن نعزوها إلى فترة تسبق مرحلة ما بعد العصر الحجري.

ومع ذلك فعلى شواطئ المحيط الهندي وعلى امتدادها لا بد أن تكون قد مرت بعصر حجري. ويرى بعض المؤرخين أن عصرا خشبياً أو محاريا قد سبق العصر الحجري الأول. وفي هذه البقعة وقد لا يكون في غيرها كان الإنسان الأول قد استخدم المحار المستورة، كما شكل الخشب لحاجاته، وبالتالي فانه يبدو محتملا بأن مثل تلك الأدوات استخدمت مع استبعادنا للأدوات الحجرية أو الحديدية، لأنه عندما أقلع نيروشيس بسفينة عبر الخليج عام 325 ق م، لم يكن لدى القبائل التي مر بها على ساحل بلوشستان أدوات حديدية ولا نسيج لصنع الملابس فيما عدا الجلود.

وعندما كتب (أريان) عن القبائل التي تستوطن المنطقة الواقعة بين كراتشي ولاورمارا الحديثة قال: كان لديهم رماح طولها ستة أذرع إلا أن أطرافها لم تكن من الحديد وإنما من الخشب المسنون الذي يتم معالجته بالنار، ولم يكن لديهم حديد، وأن جلود السباع وبعض أنواع الأسماك الكبيرة كانت تستخدم لصنع الملابس، وأن الذين تم أخذهم من أولئك السكان كان الشعر يغطي سائر أجسادهم ورؤسهم، ولهم أظفار حادة وطويلة كأنها أظلاف أو مخالب الحيوانات المتوحشة.

ان هذا الوصف في مجمله هو صورة صحيحة لطبيعة الحياة للإنسان الأول في هذه المنطقة منذ العصور التاريخية القديمة والتي استمرت في بعض الحالات حتى يومنا هذا. كما لا يمكننا أن نفعل أو نشك في أن بعض أساليب الصيد البدائية لا تزال قائمة حتى اليوم. وان سكان جزيرة سقطرة في عمان لا يزالون حتى الآن يستخدمون نوعاً من قوارب الصيد البدائية ويسمونه الرمس، وهو يصنع من ثلاثة جذوع طولها 6 أقدام ويخاط بالحبال ويكون الجذع الوسطى أطول من بقية الجذوع.

ويعتبر القارب الشاشة الذي يستعمله سكان ساحل الباطنة في عمان من أهم الآثار القديمة، وهو يصنع من عيدان النخيل، كما يدخل في صناعته ألياف شجر جوز الهند، ويبلغ طول هذا القارب نحو 13 قدماً ويتسع لرجلين على الأكثر. وعلى الرغم من هشاشة هذه الأنواع في القوارب إلا انها مرنه ومطاطة وتستعصى على زبد الأمواج وتستخدم لصيد الأسماك ولأعمال الاتصال بالسفن الراسية داخل الميناء بعيدا عن الشاطئ. أما الهدرى وهو قارب يستقطع من أحد الأشجار، فهو كثير الاستعمال.

وهذه القوارب كما ذكر نيورشوش كلها تجري بالمجاذيف بنفس الطريقة التي يشق فيها الحفارون الأرض بالفؤوس. وهناك شبه في عادات الأكل التي نتجت بفعل الضرورات الاقتصادية بين الهنود والفرس والعرب من ناحية وبين الأوربيين في اعتمادهم على الصيد.

إن عمان وبالتالي كل الخليج لا تزال منطقة بكراً للاكتشافات التي تهدف إلى دراسة وجود الإنسان الأول فيها، ولا توجد مهمة تعوض العلم الباحث أكثر من التوصل إلى إيضاح لبعض المشكلات التي سوف يتعرض لها في هذا الكتاب.

انه على سواحل هذا الخليج قد التقت ثلاث سلالات للإنسان البدائي الدرافيديرن، والأورو ـ الأفريقيون والحاميون والمنغوليون. وانه لمما يدعو إلى الاعتقاد أن القبائل المنتشرة عبر المنطقة الواقعة بين كراتشي واورمارا الجديدة إلى الغرب، التي أشار إليها اريان هي من سلالة الدرافيدريين، هي من الوجهة السلالية هندية الأصل.

أما المجموعة الحامية فهي التي تقطن السواحل العمانية، كما أن النسحوح وهم قبيلة صغيرة من أصل زنجي، وهي التي تسبق في أصل تاريخها السلالات السامية لشبه الجزيرة العربية لا تزال تقيم في كهوف بمنطقة رأس مسندم.

وجميع هذه السلالات لها أصول افريقية مشتركة، إلا أنه عندما استوطن النوع الدرافيديري من تلك السلالات مدينة مكران، وانتشرت الفروع الحامية منه عبر ساحل عمان فإنها قد تطورت ضمن طابعها العنصري الخاص، ومن ثم أصبحت أجناسها مستقلة.

فالدرافيديون سكان مكران قد فقدوا بالفعل سماتهم الزنجية الخاصة، أي خلو أجسادهم من الشعر، أما الحاميون العمانيون فقد ظلوا متحفظين ببعض تلك الخصائص أي الصلعة الوبرية والشفة المقلوبة. أما المنعزليون فقد وفدوا بعد ذلك من آسيا القلب، وظلوا على ما يبدو منعزلين حتى مرحلة ما بعد العصر الجليدي. وقد ظهروا على المسرح كجنس منظم ومثقف وربما عاصروا بداية الحضارة كما نعرفها في العراق، وان كان عدد كبير من العلماء يرى أن حضارة سامية بدائية قد سبقت ظهور هؤلاء.

ان الأجناس الزراعية كانت دائما تميل إلى امتصاص الأجناس المدنية، وعلى الرغم من أن المؤثرات بقيت ظاهرة المعالم على امتداد ساحل مكران، إلا أنها كادت أن تكتسحها مجموعات الغزاة البلوش،

كما أن أحفاد جوكتان الذين كانوا يستوطنون ميشا (وهي كلما اتجهت غربا إلى سفار أي (ظفار) جبل يقع على الشرق). كذلك فقد كان الساميون من أبناء الأراضي الزراعية، ولهم مواشيهم الخاصة بهم، كالأغنام والإبل والبغال، وهي من سكان شبه الجزيرة العربية، أما الخراف وفي النهاية الخيول فقد تم اقتناؤها في فترة لاحقة في كلتا الحالتين من الشمال.

ولهؤلاء نوع متميز من التركيب اللغوي ولا يشاركهم فيه إلا من بعيد المجموعات الحامية، وأمزجة وملامح أكثر تجانسا واستمرارا من أية أجناس أخرى.

قبل أن نخرج من هذه الساحة المتغيرة للتصورات إلى ميدان آخر أكثر غموضا من ميادين التاريخ، وان كانت الأدلة بشأنه أكثر توافرا، فإن من الواجب أن نشير باختصار إلى التغييرات المناخية المحتملة، والتي لاحظنا أنها كانت العامل الرئيسي والمؤثر في تحديد تطور وحركة الجنس البشري.

تلقى الأبحاث الحديثة ثقلا أكبر على العوامل الجغرافية في هذه الحركة كتوزيع الأرض والمياه وارتفاع الأرض وانخفاضها، والأحوال الأخرى التي تهيئ الجو لسقوط الثلوج في مناطق أو فصول معينة أكثر مما تعتمد على التفسيرات الفلكية كدوران الأرض أو ضبط الفصول التي كانت من الأمور المألوفة قديما.

ومن المؤكد على كافة المستويات أن أقسى المراحل الجليدية قد وقعت في فترات الأعراف أي الفيضانات، وان الفتور المتكرر في تلك المراحل قد تزامن مع أعظم فترات بروز سطوح الأرض، ومع وجود مناخات حيوية استوائية جافة أكثر منها دافئة نظراً لأن جفاف المناخ، مهما كانت شدة برودته يعجل بسقوط ثلوج قليلة.

إن المراحل الجليدية الأربع التي مرت بها أوربا يناسبها المراحل المطرية الأربع التي مرت بوادي النيل، كما أن الكثافة النسبية لأقصى فترة جليدية مرت بها أوربا تماثل المراحل الجليدية التي مرت بالعالم الجديد.

وبالنسبة إلى الخليج فإن هذا الموضوع لم يلق الدراسة، وإن كان من المحتمل على ما يبدو ظهور مراحل مطرية مماثلة فيه على امتداد منطقة السفوح الواقعة على الشمال الشرقي للعراق.

وعلى طول نهر الفرات إلى الغرب توجد آثار لمناطق نهرية لا تزيد على ثلاثة، ويبلغ ارتفاع أعلاها تسعين قدما نسبيا. وفي مناطق أخرى من ساحل الخليج وعلى مدار ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية توجد شواطئ مرتفعة وقد تم تحديدها بشكل دقيق، وتقع على ارتفاعات تتراوح من مائة إلى مائتي قدم عن سطح البحر.

وتعتبر المراحل المطرية التي انتهت بالفترة الواقعة في مستهل التاريخ المدون السبب في ظهور السهول الطموية في منطقتي جنوب غرب فارس والعراق. وحتى الفترة التي أصبحت فيها بقايا الفيضانات ثابتة على امتداد المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال زخروس، امتدت مساحة منطقة الخليج وإن لم يكن بصورة متواصلة إلى نقطة لا تبعد عن منبع نهر الفرات الذي يصب في سفوح جبال كردستان.

كل هذه المناطق كانت آهلة بالسكان خلال الجزء الأكبر من العصر الجليدي، وثمة أدوات قد عثر عليها في إيران وفي شبه الجزيرة العربية وبين الأحجار التي تضم هياكل الحيوانات الضخمة على طول ساحل بحر قزوين تدل على أن تلك المناطق كانت آهلة بالسكان بشكل واسع.

لقد أدى انحسار الفيضانات إلى كوارث، وطبيعي أن هذا

الانحسار في الجنوب قد تم بسرعة فائقة، وما أن انتهت الفترة الجليدية حتى تدفقت السيول محدثة شقوقا عميقة في الرواسب السطحية لمنطقة شبه الجزيرة العربية وبعثرت أكواما هائلة من الأنقاض بمنطقة الزبير في العراق.

ومن قمم زجروس تدفقت موجات مماثلة من السيول بسرعة أقوى حاملة معها كميات من قطع الأحجار الثقيلة التي تكون الآن سفوح سلسلة جبال زجروس ابتداء من خانقين في العراق حتى مشارف بوارسجون، وهذه العملية لا تزال مستمرة حتى الآن وإن كانت بشكل مخفف.

وفي أواخر المرحلة المطرية تقريبا أي ما يقرب من نحو 7000 عام تدفقت على إيران والعراق وسواحل الخليج جحافل من أقوام ذوى رؤوس طويلة لعلها جاءت من آسيا الوسطى، وواضح من مخلفات تلك الأقوام من الأسلحة والخزف ونوعية الحياة كما كشفت عنها بقايا استحكاماتهم العسكرية أن ثقافتهم قد تكون أقدم من أي ثقافة تم اكتشافها في هذه المنطقة.

وبظهور هؤلاء يبدأ التاريخ المدون لهذه المنطقة بالرغم مما يكتنفه من غموض، ونحن لا نعرف ما إذا كان ذلك الجنس قد نقل معه أو استوعب ثقافة أقوام أخرى أكثر بدائية منه في هذه المنطقة، ولكن بما أن هذا الجنس لم يعرف شيئا عن النخلة، وبما أن زراعة أشجار النخيل تعتبر المدخل في حياة حضارية مستقرة وتتطلب رعاية دائمة وماهرة هي التي تميز الحضارات القديمة، فمن الجائز الاعتقاد بأن سكان الدلتا الأوائل قد زرعوا تلك الأشجار لبيئتهم وتوصلوا إلى صنع نوع من الأسمدة الصناعية قد تكون النخلة هي شجرة الحياة بالنسبة لهؤلاء السكان كما ورد ذكرها في سفر التكوين.

هكذا يذكر ويلكوكس: لقد كانت الشجرة وبصورة مؤكدة العامل الأساسي الأول في حياة الإنسان البدائي ليس في تلك المرحلة التاريخية فحسب وإنما لسنوات عديدة فيما بعد.

الفصل الثاني

الخليج في العصور التاريخية الأولى

الخليج في العصور التاريخية الأولى

معرفتنا عن التاريخ المبكر للخليج والمناطق التي تحيط بضفافه تقوم على مجرد الافتراضات، وهي تعتمد على الأساطير في معظمها وعلى الاستنتاجات المستمدة من كتب التاريخ القديم والتي انتقلت إلينا من مصادر متعددة كالإصحاح القديم والنقوش الأثرية والألواح القديمة، ومن تلك المصادر أخذت المعلومات تخرج شيئا فشيئا إلى حيز الوجود، كما ساهم في توفير هذه المعرفة الاستنتاجات السلالية ودراسة جماجم وعظام الأجناس الأولى والحديثة.

من الواضح كل الوضوح أنه قد حدث في فترة مبكرة من التاريخ لعلها 10000 عام أن استوطنت شواطئ الخليج ثلاثة عناصر من الجنس البشري هي الدرافيديون الذين استوطنوا ساحل مكران التي اندمجت فيما بعد داخل ممالك الفاتحين البلوش والساميين الذين استوطنوا ساحل شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد حلوا محل الأجناس الحامية الأصلية من الأورو ـ أفريقيين أو الزنوج البدائيين أو أنهم امتصوهم ثم العيلاميين الأصليين الذين أقاموا عند رأس الخليج وامتدوا إلى الشرق حتى بوشهر.

أما المقصود بالساميين عموما فانهم تلك المجموعة من الأجناس الذين عرفوا فيما بعد بالآراميين (السوريين الخ) أي سكان الشمال، والبابليين والآشوريين أي سكان الشرق، والغرب أي سكان الجنوب، والفينيقيين والعبريين والموباتيين أي سكان الغرب، وكانت هذه الأقوام قد استوطنت المنطقة الواقعة فيما بين جبال طوروس وجبال أرمينيا وإيران والخليج والمحيط الهندي والبحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط.

ولقد سميت تلك المنطقة بحق منطقة الهلال الخصيب لأنها خلفها وتقع الصحراء بواحاتها ونباتاتها القليلة أمامها، ويمتد قرن هذه الهلال على طول البحر المتوسط والمشارف الشرقية للخليج امتدادا إلى بوشهر.

وليس من قبيل التعميم أن يوصف تاريخ منطقة جنوب غربي آسيا بأنه كان صراعا طويلا امتد عبر الأجيال بين سكان الجبال الشمالية وسكان الصحراء للسيطرة على الهلال الخصيب.

واما المقصود بالعيلاميين فهم سكان عيلام الذين استوطنوا قبل الفترات التاريخية المعروفة سهول جنوب غرب فارس ابتداء من سوسه حتى بوشهر. والمعروف بوجه عام أن هذا الجنس يمت بأصله إلى آسيا الوسطى، ثم من هناك امتدوا إلى سهول إيران وسوريا ومصر قبل 4000 عام قبل الميلاد.

وهناك بعض الأدلة على أن المستوطنين الأوائل لمنطقة انوا في تركستان الروسية وسوسة تجمعهم أصول مشتركة، ومن ثم فمن الواضح على ما يبدو أن هناك فترة زمنية طويلة عاشتها حضارة ما قبل التاريخ في آسيا الوسطى وعيلام.

وتشير البحوث التي أجراها بيزار بأن الجبل القائم بالقرب من سبزاباد في شبه جزيرة برشهر كان مأهولا بالسكان في تلك الفترة البعيدة من التاريخ مما يصح معه الافتراض بان تلك الحضارة قد امتدت إلى

منطقة أبعد في الشرق وربما إلى بندر عباس والمناطق الخصبة في دلتا نهر ميناب.

بعد العيلاميين جاء دور السومريين وهم جنس لهم رؤوس طويلة ويتحدث بلغات متقاربة لكن العلاقة بينهم وبين العيلاميين الأصليين الذين سبقوهم تقوم على الافتراضات، وإن كانت هناك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأنهم فرع متأخر من شعوب آسيا الوسطى وأنهم وصلوا إلى الخليج قبل 5000 عام قبل الميلاد وأنهم جاؤا إليها من سهول آسيا الوسطى.

وعلى أية حال فإن موضوع أصل الشعوب التي استوطنت سواحل الخليج في العصور القديمة ليس بأي حال موضوعاً له صلة بهذا البحث، وربما اكتفينا، إذا عرفنا بأن المعلومات التي كوناها عن العصور القديمة بأن الأجناس السامية قد استوطنت الساحل العربي ومملكة عيلام وهي المنطقة التي كانت تشكل سهول جنوب غربي فارس والأراضي التابعة للسومريين.

أما الآن فعلينا أن نكتشف إلى أي مدى كان الخليج يشكل وسيلة الاتصال والتبادل بين الشعوب؟

إن النقوش الآشورية التي تعود إلى الفترة الممتدة من العصور الأولى حتى الفترة الأخيرة تشير إلى وجود جزيرة تسمى نيدوكي باللهجة الأكادية أو تلمان أو دلمون باللهجة الآشورية، وهذه التسمية قد تعنى أو لا تعنى البحرين، وقد جاء ذكرها في إحدى اللوحات وتتحدث عن ملك يدعى سرجون العظيم (2872 ق م) ويحتمل أن يكون هذا الملك قد وصل إلى شواطئ البحر الأسود أو كما نسميه الآن الخليج، وإلى بلاد ذوى الوجوه السوداء، وأن هذا الملك قد أخضع لسلطته كلا من ميدوكى وأحد الموانئ البحرية الواقعة في هذه المنطقة.

وقد ورد في إحدى اللوحات التي عثر عليها في تلك المنطقة ما يشير إلى استمرار تلك الغزوات، كما تشير إلى أن خليفة الملك سرجون نارام سن قد شن غزوا على ابيراك وعلى ملك ماجان، ولفظ ماجان مشتقة من اللفظ السوماري ما شب، وقد أطلقت عليها هذه التسمية بسبب ارتباط سكانها بالبحر وبالملاحة البحرية، بينما تشير إحدى اللوحات والتي يرجع تاريخها إلى عهد ملك ارو ـ دنجى (1450 ق م) إلى وجود صناعة للسفن في ماجان.

وتخلط النقوش السومريه باستمرار بين ماجان وملوخه، ولعل الثانية تقع على الساحل الجنوبي للخليج إلا أنه مع توسع الملاحين القدماء في نشاطهم الملاحي أخذت السفن تدور حول الساحل العربي بحيث وصلت إلى البحر الأحمر.

وهكذا أخذ اسما ماجان وجارتها ملخة ينتشر تدريجيا ناحية الغرب إلى أن أصبحت ملوخة تعني بالنسبة للآشوريين الحبشى، وتعتبر قطع الديورايت والجرانيت والرخام الضخمة بأشكالها العمودية اللامعة والتي ما تزال ملقاه أو مبعثرة فوق روابي أبو شهرين جنوبي أور، تعتبر النصب التذكارية بالنسبة لمملكة ماجان أو ربما لإحدى البلاد الواقعة على الطريق إلى ماجان وإن كان هناك احتمال بأن تكون تلك القطع قد وصلت عن طريق نهر الفرات من المناجم البركانية في كردستان، بينما يحتمل أن تكون أحجار الديورايت قد أحضرت من جبل سنام بمنطقة الزبير في العراق.

إنه من الواضح أن تلك القطع الصخرية لم تأت من مصر نظراً لأن صخور الديورايت السوداء التي اشتهرت بها مملكة ماجان تختلف في جيوليجيتها عن ديورايت مصر، وإن كان الإنسان لم يتوصل إلى معرفة أصلها الحقيقي بصورة مؤكدة حتى الآن.

وقد سميت ماجان بمنجم النحاس، كما يذكر أحد النقوش السومريه بأنها كانت مصدر الديورايت أيضا بينما يشير جيديا ملك لاجاش (2600 ق م) إلى الأخشاب التي كانت ترد من ماجان وملخة وجوبى وديلمون، كما اشتهرت هذه المناطق بوفرة الأغنام والمواشي.

وفي الملاحم والأساطير السومريه كان آلهة مملكة ماجان نندولا ومعنى اللفظ (ملك الأغنام والمواشي)، ومن هنا فإن الإشارة إلى ماجان كمصدر للنحاس إنما يثبت أن تلك المملكة كانت تضم داخل حدودها الجبل الأخضر في عمان حيث كانت توجد مناجم النحاس، وهذا يتيح لنا على ما يبدو اعتبار ماجان مرادفة لعمان، نظراً لأن النحاس، والديورايت والدويليرايت والمواشي كلها موجودة في عمان.

أما بالنسبة للأخشاب فمن المحتمل أنها كانت ترد إلى ماجان من الهند ثم تعيد ماجان تصديرها من هناك كما هو حادث في الوقت الحالي، كذلك توجد هناك صلة بين بلح ماجان وبلح ديلمون وملخة، كما تشير إلى ذلك اللوحات والنقوش التي عثر عليها في تلك المناطق.

ويعتبر البلح في الوقت الحاضر من منتجات عمان الرئيسية وتمور مسقط تحظى بشهرة واسعة في الأقطار الأوربية. وفي بداية حكم نارام سن تم غزوه لماجان واستولى عليها ثم أطلق اسمه على إحدى المدن التي ورد ذكرها في إحدى السجلات الكنسية من أسرة دنجى بعد مرور أربعة قرون على وفاة نارام سن.

وقد عرفنا أيضا أن سكان ماجان كانوا من السومريين الأوفياء وكانوا يؤدون الجزية لحكام سومر بانتظام، كما كانت المنطقة تشتهر بنوع من الحجر يسمى جج (بالسومريه) وشمتو (بالآشورية) والتي يعتقد انها تعني شوهام بالعبرية وكان الجوديون يحضرون الديورايت من ماجان، وقد عثر في إحدى النقوش لمنطقة تلو ورد فيها عن بناء سفينة

للآلهة بو وإلى رحلات بحرية إلى ماجان وملخه، وهكذا يتضح لنا بأن الرحلات البحرية البعيدة المدى عبر ساحل شبه جزيرة العرب كانت مألوفة خلال نصف القرن الأول من الفترة الألفية الثالثة.

كما لم تكن التجارة البحرية خلال تلك الحقبة مقصورة على سواحل شبه الجزيرة وعلى حد ما أورد أحد النقوش فقد كانت السفن التابعة للملك جوديا تجلب من أراضي الآلهة والإله تنجرسو منتجات من كل الأصناف من ماجان وملخه وجوبى ومن أقطار أخرى غيرها، فمن ملخه كانت تجلب الأخشاب اللازمة لبناء المعابد ومن جوبى كانت تجلب شجر كوبيو ومن ماجان كانت تجلب أحجار الديورايت.

ومن الكتابات الواردة في هذا الشأن يمكننا أن نستنتج أن سفن جوديا لم تكن ترتاد أقطاراً أخرى وإنما كان يتم إعادة تصدير تلك البضائع من ماجان ثم من ميناء آخر من الموانئ التي ذكرناها.

وعلى أية حال فلا بد أنه كانت هناك حركة مواصلات عن طريق البحر أو عن طريق البر فيما بين السواحل الشمالية للهند ودلتا شط العرب في فترة سابقة من التاريخ، لأنه قد عثر على أحد الأختام في منطقة كش بالقرب من بغداد، وكان الذي عثر عليه هو المستر ماكى وذلك فيما بين عام 1921 و 1923 وكان هذا الختم شبيها للأختام الكثيرة التي عثر عليها في منطقة شمال الهند من جانب السير جون مارشال، ولا يدل هذا الاكتشاف على وجود مواصلات منتظمة فحسب بل على وجود حضارة مشتركة تعد من أقدم الحضارات القديمة مما مكن الإنسان من معرفتها اليوم.

كذلك فلا ينبغي أن نغض الطرف عن أولئك الملاحين البارعين الذين يعود إليهم الفضل في تلك الحركة التجارية العظيمة، فعلى حد رأى الدكتور ثيودور بنت أن أولئك الملاحين هم الفينيقيون وأن الفضل

يعود إليهم في بناء تلك الأضرحة التي عثر عليها في جزيرة (البحرين) والتي يعتبر وجودها وأصلها من أمتع المشكلات الأثرية أمام الدارسين.

كان الفينيقيون من الساميين ومن حيث اللهجة تختلف لغتهم عن اللغة العبرية وهي تقترب إلى الآشورية، وعلى أية حال فربما لا يجوز أن ننسب الفضل إليهم في اختراع الكتابة وإن كانوا كتجار وملاحين قد ساهموا بقدر في نشر هذه المهنة في الأجزاء الغربية من تلك المنطقة، ومن المعروف أن الآشوريين كانوا من عام 1100 قبل الميلاد يستوردون أوراق البردى من مصر إلى مستوطناتهم على الساحل السوري.

ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك قوة بحرية أخرى للمانويين وذلك قبل أن يرد ذكر في التاريخ عن الفينيقيين، وبالتالي فإن الذين نطلق عليهم هذا الاسم هم مجرد ورثة لنظام تجاري أقدم.

أما عن حجم ذلك التبادل التجاري ومداه، فإن هذا الموضوع يخرج عن نطاق بحثنا وإنما نستعين في ذلك على الافتراضات، إلا أنه قد أصبح من المؤكد بأن عالم الساميين لم يكن عالما متقوقعا أو منعزلاً.

وقد جاء ذكر للتجارة الفينيقية في مؤلفات حزقيل عن مدينة طيره. ويجمع الكتاب العبريون والإغريق على أن الفينيقيين أقوام يتصفون بالمهارة وملاحون شجعان، وكانوا يقومون برحلات تجارية بعيدة المدى ثم يعودون منها بمنتجات تلك البلدان لكي يبادلوها بدورهم مع جيرانهم الأكثر تطورا.

ومما يبعث على الأسف أنه لم يتخلف شيء لنا من تراثهم الأدبي، كما أن رحلاتهم البحرية التي كانوا يقومون بها لم يتوصل أحد إلى تحديد مددها في اتجاهاتها الحقيقة على وجه اليقين، أما القول بأنهم كانوا يذهبون في رحلاتهم إلى البحار الشرقية فهذا قول يحيط به الشك، وهم ينسبون لأنفسهم تراثا تاريخيا يمتد إلى ما قبل ثلاثين ألف عام أو يزيد.

وعلى أية حال فقد ذكر هيرودوتس بأن مدينة طيره قد شيدت بنحو 2300 عام سابقة، غير أنه من الصعب تأكيد هذا الرأي، كما يذكر نفس المؤرخ بأن الفينيقيين قد زعموا بأنهم جاءوا من الخليج، غير أنه لا توجد أدلة تؤكد صح هذا الرأي.

كما أن هناك رواية أخرى منسوبة إلى جوستين وهو يربط الفينيقيين بالبحر الميت، ويذكر سترابو بأن مواطني جره كانوا بوجه عام يحملون معهم البضائع العربية والطيب عن طريق البر، غير أن اريستوبوليس يذكر العكس أي انهم كانوا يسافرون كثيرا إلى بابل على صنادل، ثم من هناك يبحرون عبر الفرات إلى ثابساكوس ثم يعودون فينقلون تلك البضائع عن طريق البر إلى شتى إنهاء البلاد، كما كانوا يبحرون إلى جزر فيما بعد مثل تيروس وأرادوس، وتوجد فيهما معابد تشبه الفينيقيين.

وإذا كان علينا أن نصدق سكان هاتين الجزيرتين فإنهم يقولون بأن جزرهم ومدنهم تحمل نفس أسماء المدن والجزر الفينيقية، وأن تلك الجزر تبعد عن تريدون مسيرة عشرة أيام بالبحر تقريبا كما تبعد مسيرة يوم واحد في الخليج.

وهكذا فإن كل من هيرودتس وسترابو يبينان بوضوح وجود أماكن للأنشطة التجارية وفينيقيين في شواطئ الخليج.

أما بليني فإنه يصف شاطئ الخليج كالآتي:

«إننا سوف ننبرى الآن إلى وصف ذلك الساحل (أي ساحل شبه الجزيرة العربية) فبعد أن نتخطى منطقة شراكس التي تم اكتشافها لأول مرة من قبل الملك ابيفانس نصل أولا إلى المكان الذي كان يوجد فيه مدخل نهر الفرات سابقا نهر سالوس ورأس شالدون، وابتداء من هذا المكان حيث يوجد البحر وعلى امتداد الساحل لمسافة تمتد 50 ميلا فإنه يشكل سلسلة من التيارات أكثر مما يشكل بحرا عاديا.

ثم يأتي نهر اشينوت وتليه منطقة صحراوية تمتد نحو مائة ميل إلى جزيرة تسمى أشارا، ثم يأتي بعد ذلك خليج كابيوس الذي تعيش على ضفافه قبائل الجالوكس والجاتينى، ثم يلي ذلك خليج جرا الذي تقع عليه مدينة جره بقطر خمسة أميال وهي تضم أبراجا شيدت بقطع مربعة من أحجار الملح».

«وعلى بعد خمسين ميلا من الساحل تقع منطقة آتين في الجزء الداخلي، كما تقع أمام مدينة جره جزر تايلوس ولكنها تبعد أميالا بعيدة عن الشاطئ، وقد اشتهرت بغزارتها من اللؤلؤ، وفيها بلدة تسمى بنفس الاسم، وتوجد بالقرب منها جزر صغيرة تسمى جزر أر أدوس وتقع بعيدة عن رأس الخليج على بعد نحو أثنى عشر ميلا ونصف».

أما المقابر الموجودة في البحرين التي سبق أن أشرنا إليها فإنها تمتد إلى بضعة أميال من نقطة قريبة من أبو علي وهي قرية تقع على الجزء الشمالي من الجزيرة على الجنوب الغربي من ميناء المنامة وتبعد نحو ستة أميال وتضم ومنطقة واسعة من المرتفعات تبلغ مساحة أكبرها من أربعين إلى خمسين ياردة عرضا ومن أربعين إلى خمسين قدما علوا وقد قام بفتح هذه المقابر ودراستها الكابتن ديوراند عام 1879، وثيودور بنت عام 1889، ثم في 1907 من قبل بريدو وكلها تظهر تشابها كبيرا في التصميم.

ومن بين المقابر التي اكتشفت والتي تقع أمام الجهة الغربية تلك التي تتكون من طابقين وقد بنيت بأحجار متداخلة، والدور السفلي فيها أكثر علوا من الدور العلوي، وعلى جانبي الممر المؤدي إلى الجهة الشرقية أقيمت غرف صممت لتضم المقابر التي صفت واحدا فوق الآخر، أما سقف الممر فقد شيد بأحجار مفرطحة متعارضة عبر الحائطين، وقد طليت بنوع من الطلاء الخشن المحبب، وعلى جانبي

المقابر توجد فتحات صغيرة يمكن وضع قضبان خشبية فيها لتستعمل في تقديم القرابين والهدايا للآلهة، وقد ظهر في أحد التلال التي قام بفحصها ديورنت بأن مساحة الغرف فيها سبعة أقدام طول وستة أقدام عرض وخمسة أقدام ونصف ارتفاع، كما عثر فيها على حجر أسود عليه كتابات آشورية وقام بفك رموزها السير رولنسون.

وحتى الآن لم تنكشف الأدلة على الأصل التاريخي لهذه المقابر وإن كان قد تم العثور على عظام آدمية وحيوانية منها جمجمتان وقطعة صغيرة من عجل ذهبي وأجزاء من صناديق مستديرة وتميمة ذهبية وكميات من الأواني الخزفية السليمة والمكسورة وعليها نقوش غريبة وخطوط سوداء، لم يعثر على أية كتابات أو لوحات وبالتالي فإن هذه الأواني والأدوات لا تقدم أساسا مضمونا لتكوين فكرة اركولجية.

وقد توصل المستر ماكي الذي أعاد الفحص عام 1924 على ما يبدو ـ إلى أن تلك المنطقة كانت على الأرجح مقبرة مقدسة وكان يؤتي إليها بالموتى لدفنهم هناك: طبيعة الأواني وحالة العظام ووجود رفات الذكور بأكثرية وعدم وجود منطقة سكنية، كل ذلك يوحي گلينا بهذه الاستنتاجات.

إن تصميم المقابر يشبه إلى حد مثير تصميمات الفينيقيين لمقابرهم، وقد لاحظ ذلك استرابو أيضا، وهو يقول في هذا المعنى إن جزيرتي طيروس وأرادوس تضم معابد تشبه معابد الفينيقيين لأن الفينيقيين هم الذين كانوا يستخدمون الغرف المزدوجة، وهناك مقبرة مبطنة من طابقين تشبه تلك المقابر، وقد عثر عليها في مقبرة امرت في فينسيا وفي سردينيا وفي قرطاجه، كما أن التشابه في أسماء المناطق ـ مثل تيلوس وطيروس (كما سماهما كل من سترابو وبيلني) في الخليج وصور وأرفاد على ساحل فينسيا أمر يدعو إلى الملاحظة، غير أن الأمر يختلف في

رأي رولنسون بالنسبة لأصلها المشترك.

فإذا اعتمدنا على هذه الآراء وحدها فيكون ثيودور بنت قد اعتبر هذه المقابر فينيقية دون أن يقوم بالمزيد من التحقيق من هذه النتيجة، وفي هذا المعنى يرى الدكتور دي جي هو جارت: -

«أن الدليل على كون تلك المقابر فينيقية الأصل لم تعد له أهمية على الإطلاق على ضوء ما أسفرت عنه البحوث التي أجريت مؤخرا، وقد بنيت هذه الآراء على أساس بعض قطع العاج في المتحف البريطاني والتي كان قد عثر عليها لايارد في منطقة غمرود، وقد اعتبرت من الآثار الفينيقية على أساس الاعتقاد الذي كان سائدا في ذلك الوقت بأن الفينيقيين كانوا الشعب الوحيد القادر على إبداع تلك الفنون».

غير أنه قد تبين لنا الآن بأنه من المحتمل أن يكون سكان الشمال السوري هم الذين صنعوا تلك الأدوات أو أنهم الآشوريون، ولقد تجمع الآن من الأدلة ما يؤكد أن الفينيقيين ليسوا هم الذين صنعوا تلك الأدوات.

وينبني على ذلك أن الاعتقاد بأن الفينيقيين هم الشعب الوحيد الذي كان يمارس النشاط التجاري في تلك المرحلة من التاريخ أو أنهم هم الذين كانوا يقطنون منطقة الخليج غير أكيدة أو على الأقل مشكوك فيها.

وعلى أية حال فإنه من المؤكد أن بعض المراكز التجارية الهامة قد برز في عدد المناطق من السواحل العربية منذ أقدم عصور التاريخ، وأن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن التجارة البحرية كانت من بين النشاطات القائمة خلال الفترة الرابعة الأولى قبل عصرنا.

تجارة بابل في الخليج:

أما القول بأن البابليين قد امتلكوا ملاحة بحرية نهرية خاصة بهم فإن هناك عددا من المصادر يؤيد هذا القول، ويجمع المؤرخون القدماء في وصف البابليين بأنهم قوم مغرمون بالوجاهة وأنهم قد اعتادوا على مجموعة من المواد والحرف الصناعية التي لم يكن في مقدروهم توفيرها إلا بالدخول في علاقات تجارية مع شعوب أخرى والتي كان يوجد بعضها في مناطق نائية عنها.

ومما لا نشك فيه أن بعض تلك المواد كان يتم استيرادها بالطرق البرية والبعض الآخر عن طريق البحر. وكنتيجة لموقع بابل المختار فقد أصبحت الدولة الكبرى في منطقة آسيا الغربية، وربما تكون قد اعتبرت العاصمة الكبرى للتجارة الدولية في آسيا.

ونظرا إلى موقعها بين نهر الأندلس والبحر المتوسط فقد كانت السوق الطبيعية لتلك المنتجات النفيسة التي كان ينتجها الشرق، وكان الغرب يتهافت على اقتنائها، كما كانت لها ميزة أخرى وهي قربها من الخليج أهم طريق تجاري كانت تستخدمه الشعوب الملاحية في الاتجار، لا سيما إذا أخذنا في اعتبارنا قرب بابل من النهرين العظيمين دجلة والفرات.

وحين ننتقل إلى المرحلة التالية أو ما يمكن أن نسميها بالمرحلة البابلية فيمكن اعتبار موضوع النقل البحري عبر الخليج الهدف في الاهتمامات الملكية، فقد رأى بختنصر الثاني (604 ـ 561 ق. م) أن ينشئ مرفأ في منطقة المستنقعات كما أنشأ مدينة تريدون الواقعة غربي نهر الفرات، وكان من أهم أهدافه لتلك المشروعات حماية البلاد من غزوات العرب.

ويرى فينسنت بأن هدف الملك بختنصر من هدم مدينة طيره هو

توسيع تجارة الهند والخليج إلى بابل، ومن هناك إلى دمشق وسوريا، وهو يستشهد بما كتبه ابيدينوس عن المشروعات التي أنجزها بختنصر بالقرب من بابل، فقد أنشأ هناك قناتين وأقام سدودا كبيرة لحصر مياه الفرات داخل السد.

كما بنى مدينة تريدون لصد غارات العرب عن المملكة، ويقول كذلك بأن هذه المدينة بسبب موقعها عند مدخل نهر دجلة كانت سوقا هامة، وحتى عهد الملك نيرشوس كانت تلك العاصمة سوقا للمنتجات الهندية والعربية.

غير أن هناك دليلا أقوى من ذلك فيما كتبه الكتاب الإغريق فأشيلوس في مسرحيته عن الفرس حين أخذ يعدد الشعوب التي كان يتألف منها جيش ذلك الملك العظيم قد ذكر «أن بابل التي كانت تزخر بالذهب كانت ترسل أفواجا من رجالها على متن السفن لكي يظهروا مهارتهم في رمي النبال».

أما آراء الكتاب المؤرخين الآخرين والموجودة في عدد من المؤلفات فانها تتناقض مع بعضها البعض، ورغم ذلك فهي كلها تجمع على إبراز مدينة بابل كمدينة هامة إذ كانت مركزاً لاستقبال السلع والمنتجات القادمة من الجنوب (من شبه الجزيرة العربية والهند) عن طريق الخليج، ومن آراء هؤلاء يمكن أن نستنتج مسار وحجم تلك التجارة بل قد تكون لمحة باهتة عن طبيعتها.

ومن بين الآراء التي أشرنا إليها ما كتبه سترابو عن مدينتي جره وطايلوس، فجره على حد رأيه كانت من مدن الكلدانيين وكانت لها تجارة مزدهرة وتبادل مستمر مع بابل، ويؤكد لنا اجاثرسيدس بأن الجره كانت من أغنى سكان العالم، ويعود الفضل في ذلك إلى اتجارهم في المنتجات العربية والهندية التي كانوا ينقلونها إلى الغرب عن طريق القوافل وإلى بابل عن طريق البحر.

وكان اللبان والتوابل هي أهم البضائع التي كانوا يستوردونها عن طريق جره، وكانوا يستهلكونها بكميات كبيرة، كما يحتمل أن يكون القطن من المنتجات التي كانت رائجة في تلك المناطق نظرا لأننا إذا اعتمدنا على ما أورده فيو فراستوس في هذا الشأن فقد يكون في جره مزارع واسعة لأشجار القطن، وأن أجزاء كبيرة من أراضيها كان ينتج القطن.

وعلى حد رأي بليني فقد كانت جزيرة تايلوس أكثر تلك الجزر إنتاجا للقطن، ويضيف فيو فراستوس في حديثه عن طيلوس فيقول:

«يوجد في تلك الجزيرة أنواع من الخشب كانت يستعمل في بناء السفن، وهذا النوع له خاصية مقاومة التخشب تحت الماء بحيث يمكن أن يبقى فترة تزيد على مائتي عام، أما خارج الماء فإنه يتلف بسرعة».

«ومن المؤكد على أي حال أن هذا الخشب هو خشب التيك، وكان يستورد إلى طيلوس من الهند ولا يمكن أن يكون من إنتاج الجزيرة إطلاقا».

أما عن مدى حجم النشاط الملاحي الذي كان يمارسه البابليون أنفسهم في مياه الخليج فلا يزال يلفه الغموض، وعلى أية حال فإنه من المؤكد لدينا أنه بظهور الإمبراطورية الفارسية اختفت كل المعلومات التي تشير إلى أولئك القوم كشعب من الشعوب التي ساهمت في التجارة البحرية للخليج تاركة المجال فسيحا لبروز دور الملاحين العرب بل انه يمكن القول بأن الملاحة في مياه الخليج من الناحية الفعلية كانت بيد العرب طوال تلك الفترة، ومن هنا فمن المعتقد بأن دور البابليين والآشوريين كان دور الوسطاء التجاريين الذين كانوا يستقبلون البضائع والمنتجات التي يأتي بها العرب.

الفرس والخليج:

أصيبت حركة الملاحة في الخليج بنكسة حادة أبان القرنين السادس والرابع قبل الميلاد على عهد أسرة الاخمينيين للإمبراطورية الفارسية وانه ليبدو لنا بأن التفسخ في أوصال تلك الإمبراطورية قد بدأ في عهد بختنصر عندما تحول تجار مدينة طيره عن طريق الخليج إلى طريق البحر الأحمر، وفضلا عن ذلك فقد كان الفرس يدركون دائما ولأسباب واضحة كيف كانت تتعرض أقاليم البحر للتدمير في الأساطيل الأجنبية.

ولقد كانت عاصمة بابل ونهر الفرات ومدينة سوسة على نهر دز وهو فرع من ذلك النهر محطتين تجاريتين لكثير من الأقطار نظرا لأنهما تقعان على نهر صالح للملاحة وكان همزة الوصل للأقاليم والممتلكات الخاضعة لهم.

ولا توجد دولة بحرية هامة بالمعنى الحديث للكلمة يمكن لها أن تقبل لنفسها ذلك الوضع، ولقد كانت عصابات القرصنة من المغامرين والتي يعج بها الخليج لم تكن تكف عن النهب والسلب في تلك الأقاليم.

ودرأ لاعتداءات السفن المعادية فقد قرر الفرس كما يذكر المؤرخين الأوائل إغلاق نهر قارون وهو أكبر أنهار الفرس في وجه الملاحة، فقد تمت هذه العملية بوضع الأحجار الضخمة عبر النهر على هيئة سدود، وقد بقيت تلك الأحجار في مكانها حتى مجيء الاسكندر الذي حاول إزالة تلك الأحجار بعد عودته من الهند إدراكا منه بأهمية التجارة والتبادل التجاري لمنطقة الخليج، غير أن الاسكندر توفي قبل أن يتم المشروع.

وعلى أية حال فإنه من المؤكد من الوجهة العلمية بأن تلك السدود

قد أقيمت لغاية واحدة وهي الري كما هو حاصل الآن في الجزء الأسفل من نهر الفرات. لقد بقيت تلك السدود في نهر قارون حتى نهاية القرن الثامن إلا أنها قد زودت بفتحات لعبور المراكب الصغيرة، وعلى أي حال فلا يبدو أن الفرس كانوا معرضين بأي تهديد يأتي من البحر.

وانه على الرغم من أن تجارة بابل البحرية قد انخفض معدلها في ظل الفرس إلا انها لم تتوقف نهائيا، وبالتالي فمن المحتمل أن يكون النشاط الملاحي قد عاد ولو مؤقتا إلى مياه الخليج مع فتوحات الاسكندر الأكبر خلال الجزء الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

وابتداء من ذلك التاريخ تجمعت لدينا الأدلة القاطعة عن حركة التبادل الملاحي فيما بين موانئ الخليج والهند وشرقي أفريقيا، إلا أنه في عهد سيطرة الرومان كانت إمبراطوريتهم تحتل الصدارة في المياه الشرقية وكان البحر الأحمر هو الطريق الرئيسي للاتصالات بين الشرق والغرب وقد احتفظ بذلك المركز حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية في مستهل القرن السادس بعد الميلاد.

الفصل الثالث

الخليج في العصور الوسطى

الخليج في العصور الوسطى

كانت عمان من النواحي الجغرافية والسياسية والتاريخية أكثر أجزاء شبه الجزيرة العربية عزلة، وبالنسبة لاتصالات عمان بالأقطار العربية الأخرى فقد ظلت لقرون عديدة أشبه بجزيرة يفصلها البحر من ناحية والصحراء من الناحية الأخرى، كما يعتبر سكانها العرب في المستوى الحضاري كسائر العرب الآخرين بوجه عام.

ومسقط هي المدينة الوحيد من عمان التي انفتحت على العالم كله، كما أنها الميناء الوحيد الذي تزوره وتغادره السفن، كما أن الحكم التركي لم يمتد إلى عمان ولا حتى في عهد سليمان الكبير.

ومن ناحية أخرى فإن الخلفاء المسلمين الأوائل لم يمارسوا السيادة على عمان لفترات طويلة، فقد بقى حكامها قرونا عديدة حكاما مستقلين سواء في عهد الأئمة أو عهد السلاطين ولم يخضعوا لأحد، وسكان عمان بوجه عام عرب مسلمون، وهم ينحدرون من قبيلتين عربيتين رئيسيتين هما قبيلة قحطان وعدنان، وقد ظلتا هاتان القبيلتان على عداء إحداهما مع الأخرى فترة من الزمان.

بهذا التوضيح يلخص زويمر تاريخ عمان كبلد لعب دورا بارزا في

تاريخ الخليج. أما تاريخ عمان القديم فيكتنفه الغموض، والإشارات التي وردت عن هذا التاريخ في مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين لا تجود بمعلومات وافية عن الأوضاع السياسية في عمان في العصر القديم، وذلك أن هذه المعلومات تختصر على الجوانب الجغرافية والتاريخية، وتتناول الأجزاء الساحلية لعمان.

وحتى المؤرخين العرب البارزين لا يقدمون بيانات وافية عن تاريخ عمان سوى بعض الملاحظات العارضة، وهذه الملاحظات تتناول الأحداث قبل استقلال عمان في ظل الخلافة الشرقية وخلالها. ولم تتوفر لنا معلومات تاريخية يعتد بها إلا في كتاب «كشف الغمة».

ومع ذلك فلا يمكننا الآن تحديد أبعاد التاريخ العماني القديم وان كان من الممكن الآن بوجه عام أن نقول بأن عمان كانت تضم مساحة أوسع مما تضمه الآن وأن حدودها قد امتدت غربا إلى اليمن وامتداد شبه الجزيرة العربية.

وتكاد معرفتنا عن أوائل السكان الذين استوطنوا عمان أن تعتمد في معظمها على الروايات المتناقضة فمن هنا فهي معلومات باهتة ومتقطعة، إلا أنه من الطبيعي أن يرتبط تاريخ عمان بتاريخ شبه الجزيرة العربية.

ويتراءى لنا أن سكان عمان الأوائل ينحدرون من السلالة الأوربية ـ الأفريقية (الحامية) كما يبدو أيضا أن أولئك السكان قد تفرقوا أو قد امتصتهم هجرات سامية كبرى خرجت من الشمال وكانت تتألف من سلالتين رئيسيتين هما القحطانيون أي (أبناء قحطان) الذين استوطنوا اليمن، والعدنانيون أي (النزاريون) الذين استوطنوا ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب.

وحسب الروايات التي يتناقلها عرب عمان أنفسهم فان العمانيين

ينتمون إلى تلك السلالتين، ويقول القحطانيون انهم هم أول من استوطن عمان، بينما جاء العدنانيون إليها في مرحلة لاحقة من التاريخ، وأن هؤلاء أقل نقاء من حيث أصلهم العربي. ويبدو لنا أن موجات عديدة من موجات الهجرة إلى عمان من تلك السلالتين قد تعاقبت على عمان.

وكان أول اليمنيين الذين استوطنوها هم اليعاربة من الأصل القحطاني، بينما تنتمي الموجة الأخرى من المهاجرين إلى الأزد (وهم يشكلون النسبة الكبيرة من سكان عمان الحاليين) وهؤلاء هم أحفاد كهلان، وكانوا في الأصل يستوطنون اليمن أيضا.

ويعزى تفرق الأزد في أرجاء عديدة من شبه الجزيرة العربية إلى انهيار سد مأرب الأمر الذي يضطرهم إلى مغادرة سبأ والاتجاه ربما نحو الشرق، غير أن تلك الواقعة ينبغي اعتبارها مجرد سبب عارض في استيطان العمانيين لعمان.

أما قبل تلك المرحلة من التاريخ فقد كانت عمان كما تذكر الروايات تخضع القحطانيين اليمنيين ويقال ان يعرب الذي هو من سلالة قحطان قد استطاع أن يفرض سيطرته على جنوب شبه الجزيرة العربية كلها بما في ذلك عمان وحضرموت.

لقد حدث ذلك في فترة تسبق التاريخ الميلادي بمقدار من 700/ 800 عام. وقد خرج من سلالة يعرب أعداد كبيرة من أئمة عمان ابتداء من عام 624م إلى 741 م وقد خلف يعرب نجله يشجب ثم حفيده عبد شمس جد حمير (مؤسس أسرة حمير) وكهلان ولم يتأكد تاريخيا من هو الذي خلف حمير مباشرة، هل كان أخوه كهلان أو نجله وائل أو حفيده شمر، إلا أنه قد اتضح أن وائل قد حكم عمان كذلك اعترف شمر بسيادة الفرس على عمان الأمر الذي يؤكد أن الفرس كانوا يسيطرون على عمان خلال تلك المرحلة، لعلها في عهد سيروس العظيم وذلك عام 536 قبل الميلاد.

ثم أمكن طرد الفرس من عمان بعد ذلك بمعاونة المهاجرين الجدد من اليمن من قبيلة الأزد، وهذه المجموعة من الأزد بزعامة ناصر نجل أزد هي التي توجه أفرادها إلى عمان فيما بعد وسموا بأزد عمان.

وبعد مضى سبعين عاما على ذلك الحادث استقر قسم من تلك القبيلة في البحرين والتي كانت تشمل في ذلك الوقت مساحة واسعة من أراضي شرقي شبه الجزيرة بالإضافة إلى الجزيرة المعروفة الآن بذلك الاسم.

كما انه من المحتمل أيضا أن يكون بعض مجموعات من الأزد قد نزحت إلى عمان من أراضي نجد إلا أن تاريخ هجرتهم غير مؤكد، وإذا شئنا الدقة فقد تكون تلك المجموعة من سلالة حطمة بن انمار ابن نزار بن معد بن عدنان الذي يعتبر من سلالة ار (البطريرك ابر) من نسل إسماعيل، ويعتقد أنهم من أصل عدنان أو نزار وهو اللقب الذي يعرفون به في عمان. وبمضي الوقت وصل مهاجرون جدد إلى عمان من كل من نجد واليمن.

لقد تحدثنا بإسهاب في هذا الشرح الوجيز عن سكان عمان وبينا أنهم قد وفدوا إليها من مناطق مختلفة في فترات تاريخية مختلفة غير أن هناك أمر واحدا لا يأتيه الشك وهو أن أزد اليمن كانوا الفئة المسيطرة والحاكمة في عمان حتى نهاية القرن السادس عشر. وقد ذكر البلاذري في سياق حديثه عن فترة قريبة على ظهور الإسلام بأن الأزد هم سكان عمان الأصليين إلى جانب جماعات أخرى كثيرة غيرهم.

وفي نحو هذه الفترة سير ملك فارس انو شروان (خسرو الأول) جيشا عرمرماً إلى اليمن بقيادة وهرز فأخضعها وضم حضرموت والمهرة وعمان والبحرين إلى الإمبراطورية الفارسية.

غير أن هذه الأقاليم، على أية حال لم تبق وقتا طويلا تحت حكم

الفرس إذ سرعان ما ظهر في شبه الجزيرة العربية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم برسول إلى عمان وكان يحكمها يومئذ جيفر وعبد نجلى الجلندي، وقد دعاهم الرسول للدخول في الإسلام ونبذ الوثنية وقد استجاب الحاكمان العمانيان لدعوة الرسول بسرعة.

وفي عهد أبي بكر الصديق أعلنت عمان وحضرموت والبحرين الثورة، فأرسل أبو بكر بعض القواد المسلمين إلى عمان ونجح في نهاية الأمر في إعادة الأمور إلى نصابها، كما يذكر البلاذري أن عمر بن الخطاب خليفة أبي بكر قد عين في سنة 15 بعد الهجرة (636م) عثمان ابن أبي العاص حاكما على عمان والبحرين مما يحمل على الاعتقاد على أن عمان كانت تخضع لحكم الخليفة الإسلامي في تلك الفترة.

وعلى أيه حال فان سلطة الخليفة على عمان كانت على ما يبدو سلطة اسمية، واحتفظت بطابعها هذا إلى أن تولى الخليفة الأموي عبد الملك سنة 65 هجرية أي (684م) فأرسل عدة حملات عسكرية إلى عمان وتمكن أخيرا من فرض سيطرته عليها وعين على عمان حاكما اختاره بنفسه.

وبمرور الوقت تم تعيين بعض العمانيين في وظائف أدنى كجمع الزكاة، وأخيرا عين جناح بن عباده من قبيلة النهاوية واليا على عمان.

وقد استفاد العمانيون من ذلك الوضع فقاموا في سنة 751 بتعيين حاكم من بينهم وهو الجلندي بن مسعود ومنحوه لقب الإمام. أما الحكام الذين سبقوا الجلندي فلم يكونوا يحملون أي لقب على ما يبدو، ومن المحتمل أن تكون النزعة لدى العمانيين إلى الاستقلال بدافع العقيدة نظرا لأن الأباضيين قد أصبحوا في تلك الفترة الفئة الأقوى.

منذ ذلك الوقت أي منذ عهد الجلندي والى نهاية القرن الثاني عشر باستثناء فترة اعتراضية تقدر بنحو 260 عاما أي ابتداء من 1154 م

تمكن بنو نبهان من الاستيلاء على الحكم وإنشاء أسرة الملكيين أو الملوك النبهانيون والذين شمل حكمهم الجزء الأكبر من داخلية عمان.

ومنذ ذلك الوقت ظلت عمان تخضع لحكم سلسلة من الأئمة المنتخبين الذين يجمعون بين السلطة العسكرية والسياسية والدينية، وكان يتم انتخابهم غالبا من قبيلة الأزد وبني هناه، والكنود من قبيلة اليعاربة، وقد ظل الأئمة يحتفظون بالعاصمة في داخلية عمان كنزوى وأزكى وبهلا والرستاق وجبرين.

وإذا استثنينا ما وقع من أحداث خلال تلك الفترة، فقد كانت فترة تتميز بالصراعات القبلية والسياسية للاستيلاء على الحكم، مما لا يسمح المجال هنا بسردها. (وقد ورد تفصيل هذه الأحداث في كتاب الغمة) غير أن في بعض تلك الأحداث مواقف هامة تقضي الإشارة اليها.

خلال إمامة الوارث قام الخليفة هارون الرشيد (789/ 809) بمحاولة غير ناجحة لفرض سيطرته على عمان، كما بذلت خلال حكم غسان محاولة لقمع نشاط إحدى الجماعات التي كانت تمارس القرصنة بشكل واسع في المياه العمانية، وكانت تتخذ في شمال نهر الأندلس قاعدة لها، والإشارة إلى هذا الحادث لها أهميتها إذ أنها تكشف عن مقدرة العمانيين ومهارتهم في البحر والشئون الملاحية.

ووسط هذه الفوضى أصدر الخليفة العباسي المعتضد بالله (892/ 902) أصدر أمره إلى عميله في البحرين محمد بن نور بأن يغزو عمان ويقال ان محمد بن نور نفذ تلك الأوامر بجيش قوامه 25 ألف مقاتل معظمهم من قبائل نزار وطي، وقد غادرت عمان أعداد كثيرة من الأسر العمانية والتجأت إلى هرمز والبصرة وشيراز بينما أخذ محمد بن نور يمارس الحكم بقوة الحديد والنار، كما ارتكب فظائع لم يسبق لها مثيل ضد السكان، ودمر قنوات المياه وأحرق الكتب وعاث خرابا في البلاد.

وعند عودة محمد بن نور إلى مقره في البحرين ترك حاكما آخر مكانه ولكن هذا الحاكم راح ضحية انتقام الشعب وغضبه على ما ارتكبه محمد بن نور من فظائع.

وبعد هذا الحادث تولى الحكم في عمان وبالتتابع ما لا يقل عن سبعة أئمة تم انتخابهم خلال فترة امتدت ثلاثين عاما، ولكن أهل عمان ظلوا يدفعون الجزية على فترات متقطعة للخلفاء. وبعد ذلك تعرضت عمان إلى غزو واحد من قوات الخلفاء أو من المحتمل أن تلك القوات قد استدعيت من جانب العمانيين للمساعدة في تسوية الخلافات التي كانت قائمة بين العمانيين.

أما بعد تلك الفترة وبالأخص في العام الألف بعد الميلاد وعلى أثر تفكك الإمبراطورية العباسية لا نقف على معلومات عن تدخلات جديدة في شئون عمان من جانب الخلفاء.

وهكذا عاد العمانيون إلى ممارسة أسلوبهم في الحكم بهدوء تام إلا أنه عند انتصاف القرن الثاني عشر استولى النبهانيون على الحكم في عمان وأخضعوا أكثرية المناطق لسلطتهم إلى أن عادت الإمامة مرة أخرى في عام 1424 م، إلا أنه من ناحية أخرى واصل النبهانيون ممارسة نفوذ كبير على امتداد قرنين تقريباً، ولم تتداع قبضتهم على الحكم إلا في عام 1624 م عندما بدأ الأئمة اليعاربة حكمهم للبلاد.

وحسب ما ورد في كتاب (كشف الغمة) تعرضت عمان أثناء حكم الملوك النبهانبون لغزوتين من فارس إحداهما قام بها سكان شيراز وذلك في عام 1265 م والأخرى بعد الأولى بقليل، وقام بها الأمير محمود بن أحمد القوصي حاكم هرمز، وكانت في ذلك الوقت محمية من أصل عربي داخل مقاطعة كرمان، وينتمي هؤلاء الغزاة إلى الأصل المغولي وكانوا يؤمئذ سادة فارس كلها وقد رد الغزاة على أعقابهم في المرة

الثانية وان كان ملوك هرمز استمروا في الادعاء بالسيادة على الأجزاء الساحلية حتى القرن السادس عشر.

وهذه الفترة تمثل حقبة انتقالية في تاريخ عمان وذلك بظهور البرتغاليين في الخليج. وهنا تأتي روايتنا لتاريخ عمان المبكر إلى نهايتها، بحيث نعود إلى التقاط هذا الخيط عندما نتحدث عن قصة نشاط البرتغاليين في مياه الخليج والذي يرتبط به تاريخ عمان وحتى القرن السابع عشر ارتباطا لا انفصام منه .

ولم يبق لدى المؤرخين ما يذكرونه إلا قليلا من المعلومات والأدلة عن حملات الغزو المتتالية التي قام بها الفرس على عمان.

وعلى أية حال فمن المحتمل جداً أن يعود الفضل في بناء قنوات المياه الجوفية التي تغطي أراضي عمان الزراعية إلى الفرس، وهذه القنوات تشبه القنوات التي في الأحساء، كما تشبه السدود الحجرية التي تم العثور عليها على ساحل الباطنة في عمان، كذلك من المحتمل أن تكون الخبرة الزراعية للفرس قد ساهمت في تطوير أساليب الزراعة في عمان، بحيث أظهر العمانيون براعة فائقة فيها. أما بالنسبة للغة الفارسية والمذهب الفارسي والفلسفة الفارسية فلم يبق في عمان أي أثر لها.

البحرين

خلال القرون الأولى من عصرنا هذا كانت البحرين (وهو الاسم الذي يطلق الآن على هذه الجزيرة) والتي تقع على الضفة الوسطى للجانب العربي من الخليج تعرف باسم الحجر وهو الاسم الذي استمدته من اسم المقاطعة الرئيسية التي كانت تضم عددا من المدن والقرى الصغيرة كان يسمى أكبرها بالحجر، كما كانت تضم أيضا المنطقة المعروفة الآن باسم الأحساء، إلا أن التاريخ الأول لهذه المنطقة قد تبعثر إلى حد كبير.

ولا توجد لدينا معلومات أكيدة عن المستوطنين الأوائل للبحرين فأول من ألقى بعض الضوء على تاريخها هو الطبري الذي عاش في القرن التاسع، وقد ذكر المؤرخ ما يأتي:

«في عهد الملوك الاشكانيين (من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد) لم يكن للعرب أي وجود في العراق، فيما عدا عرب قبيلة معد بن عدنان وهم من سلالة الذين أخذهم الملك بختنصر أسرى من الجزيرة العربية. أما بقية العرب فقد كان معظمهم في الحجاز أو في الصحراء أو في مكة أو في اليمن حيث كانوا يعانون من مشكلة الغذاء ومن الحروب والصراعات الداخلية، ولهذه الأسباب فقد نزح عدد كبير من ملوك وسادة العرب والحجاز من مواطنهم، ولكنهم لم يجرءوا على دخول العراق خوفا من الملوك الاشكانيين، ومن ثم فقد

استقروا في البحرين واليمامة، وكانت اليمامة تقع في صحراء تضم عدد كبيرا من المناطق تسمى إحداهما الحجر والأخرى الأحساء بالإضافة إلى سبعة أو ثمان مدن أخرى يحتلها الآن القرامطة».

ويعزو كوسين دي بيرسفال تاريخ تلك الأحداث إلى سنة 190 بعد الميلاد تقريبا، وهو يعطي قصة خيالية إلى حد ما ربما استقاها من كتاب الأغاني، وهو يتفق في الخطوط الرئيسية مع الطبري ويقول دي بيرسفال:

«كان على رأس تلك المجموعة من الأسر ملك وأخوه عمر وابن أخيهما زهير وقد وصلوا في عام 190 بعد الميلاد إلى منطقة الحجر، وكانت تشكل المنطقة الرئيسية للبحرين غير أن سكانها الفطنين حاولوا منعهم من الاستيطان مما اضطر القادمين إلى قتالهم وطردهم من مواطنهم ليحلوا محلهم.

ولكن قبل أن يقوم الأزد بطرد السكان الأصليين استشاروا إحدى الكاهنات وكانت تدعى زرقاء اليمامة وكانت ابنة زهير وشقيقة مالك فأجابتهم زرقاء بأن هذا المكان سيكون لكم إلى أن يأتي طائر بحلق في قدميه وسيقف على نخلة ثم يطير وهو يغرد فاتبعوه إلى الحيرة إلى الحيرة».

وربما استمد هؤلاء المهاجرون لقب تنوخ أو التنوخيين من هذه الرواية، وقد انضمت إليهم جحافل أخرى من العرب من بينهم أحفاد الكنود من الحجاز وهم فرع من قبيلة أياد، كما انضمت إليهم فصيلة من الأزد الذين يتزعمهم مالك، وهؤلاء الأزد هم جزء من أحفاد العرب الذين نزحوا عن أرض مأرب مع عمر مزيتية، غير أنه لا يعرف المكان أو المنطقة التي قدموا منها إلى البحرين، والبعض يرى أنهم جماعة انفصلوا عن الأزد الذين كانوا يستوطنون بطن المر في تهامة بينما يعتقد

البعض الآخر أنهم قدموا إليها من عمان والتي كان الأزد قد أقاموا فيها مستوطنات.

كل هذه العناصر ذات الأصول والانتماءات المتباينة قد شكلت تحالفا فيما بينها، وتعهدوا بأن يناصروا بعضهم البعض، وأن يكونوا يدا واحدة، ومنذ ذلك الوقت أصبحوا يعرفون بالتنوخيين.

بعد أن أقام التنوخيون بضع سنوات في البحرين شاهدوا ذات يوم بومة وكانت قدماها مذيلة بحلق ذهبي وكانت على إحدى شجيرات النخيل ثم طارت وهي تطلق صوتا حادا، عندئذ تذكروا ما قالته لهم العرافة زرقاء اليمامة ومن ثم بدءوا رحلتهم متعقبين ذلك الطائر الذي سار بهم إلى العراق. وقد نزلوا في نفس المكان الذي نزل فيه مالك وأسس فيه لأول مرة مدينة الحيرة. ويبدو أن هذه القصة التي ذكرها صاحب الأغاني هي أقدم قصة تتناول أصل التنوخيين.

وهناك مؤرخون آخرون لهم رأى أكثر منطقية من قصة الطائر حول استقرار تلك القبائل في العراق، وهم يعتقدون أن هذا الحادث قد وقع خلال إمبراطورية الأرساسين أو ملوك الطوائف، وكانت هذه الإمبراطورية قد أخذت تتفكك وتنهار بفعل الثورات والحروب المدمرة، وكان العراق في ذلك الوقت من المناطق المعرضة للغزو.

وهكذا أدرك عرب البحرين أن الظروف في العراق قد أصبحت مواتية للاستيلاء عليها خصوصا وأن العراق كانت أخصب وأغنى من البحرين، ومن ثم فقد عقدوا العزم على تنفيذ تلك المغامرة، وهكذا انقضوا على العراق في موجات عارمة متعاقبة وتمكنوا من طرد سكانها الأرمانيين من عاصمة حكامهم كلدة، وحلوا محلهم، ويقال ان أغلبية هؤلاء العرب قد أقاموا في منطقة الأنبار الواقعة على نهر الفرات والقريبة من الفلوجة.

ونعرف من الطبري انه في عهد الملك أربوشير (بداية القرن الثالث) كان يحكم البحرين ملك يدعى ستيرون، وكان يقيم داخل قلعة منيعة. وفي أعقاب حملات الفتح التي قادها أربوشير واستولى فيها على الأقاليم المحيطة بفارس أرسل جيشا إلى البحرين وتمكن ذلك الجيش بعد حصار دام عاما واحد من الاستيلاء على الحامية وعلى ما كان فيها من ثروات، ثم عاد إلى فارس بعد أن عين نجله شهبور الأول حاكما عليها.

وإذا عدنا إلى بداية الشطر الأول من القرن الرابع نرى أنه خلال حكم الملك شهبور الثاني وقبل بلوغه سن الرشد أي (عام 309 ـ 325م) قامت القبائل العربية في البحرين بشن غارات متتالية على أراضي شهبور. غير أن شهبور هاجمهم وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، فلجأ بعضهم إلى العراق بينما عاد بعضهم إلى ديارهم الأصلية.

ولما كان شهبور ينوي الاستيلاء على هذه المناطق في وقت لاحق، فقد قام بالزحف بجيشه على الخليج وقام بعملية إنزال على ساحل القطيف، وقد تمكن من الاستيلاء على منطقة الحجر وإبادة معظم أفراد قبيلة عبد قيس، كما شن حملات انتقام رهيبة على قبائل الخطم وتميم. وبعد أن سئم شهبور من عمليات التنكيل والإبادة طلب من أفراد جيشه بأن يغرسوا الرماح في أجساد خصومهم وأن يربطوهم بالحبال ويجروهم أسرى إلى بلاطه. وقد اكتسب شهبور بتلك الأعمال الوحشية في تاريخ الشرق لقب (ذو الأكتاف).

أما الفترة الثانية التي برزت فيها البحرين فهي الفترة التي توافقت مع ظهور الإسلام في بداية القرن السابع، ويومئذ كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم تمتد شرقا بسرعة حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث في السنة التاسعة من بدء الرسالة (أي عام 622 م) برسول هو العلاء بن الحضرمي للاتصال بالمنذر زعيم قبيلة عبد قيس

وكان يومئذ واليا على البحرين بالنيابة عن خسرو الثاني ملك فارس وذلك لدعوتهم للدخول في الإسلام.

وقد استجاب أهل البحرين للدعوة وكانت قبيلتا عبد قيس وبني بكر في مقدمة القوى البارزة التي اعتنقت الإسلام، وقد ظلوا معتصمين بالدين الإسلامي حتى خلافة أبي بكر.

وفي أعقاب وفاة المنذر ارتد أهل البحرين عن الإسلام بعد أن وجدوا أنفسهم معزولين، غير أن شخصا يسمى جارود استطاع إعادة بني قيس إلى رحاب الإسلام .

وأما بنو بكر فقد استمروا في ارتدادهم بل حاولوا تنصيب ملك من بينهم، وقد أوفد أبو بكر العلاء أحد قواده من الحضارمة لقمع التمرد، وقد تمكن جيش هذا القائد من إخضاع نجد واليمامه في نفس الوقت حتى وصل إلى موطن حلفاء الإسلام في المنطقة الواقعة بين اليمامة والبحرين.

وكان قائد التمرد قد نصب نفسه حاكما على القطيف ومعظم المناطق التي تضمها منطقة الحجر، كذلك استطاع العلاء الحضرمي أن يستولي على منطقة جواثة بعد حصار طويل، وفي تلك الأثناء توفي قائد التمرد مما مكن القائد الإسلامي من الاستيلاء على منطقة دارين في الخليج وعدد كبير من الأسرى والغنائم، وبذلك تم له فرض سلطة الخليفة على المنطقة.

وقد تخلف العلاء الحضرمي في البحرين بعد أن عينه الخليفة أبو بكر واليا عليها، وأما الجيش فقد عاد إلى المدينة. وبعد ذلك خضعت البحرين لسلطة الخلفاء الأمويين، وفي عهد العباسيين الحق البحرين بعمان واليمامه، وظلت حتى ظهور القرامطة فاغتصبوا السلطة.

في عام 639 تقريبا قام العلاء الحضرمي بمحاولة غير ناجحة لضم

المناطق الشرقية إلى الخلافة، وجهز حملة عسكرية عبر بها الخليج لإخضاع فارس وقد ترك السفن بغير حماية وتوغل بجيشه داخل البلاد دون أن يلقى مقاومة في البداية، غير أن معركة عنيفة نشبت عند التقاء جيش المسلمين بالعدو (الفرس) ولكن المسلمين تعرضوا لحصار من جانب الفرس مما حمل القائد على إيفاد مبعوث إلى المدينة طلبا للنجدة والإمدادات، وقد جاءه القائد عتبة بقوة مؤلفة من 12 ألف ونزل في الأجزاء الشمالية من ساحل الخليج وتمكنت تلك القوة من الالتقاء بالجيش الإسلامي المحاصر، وقد دمرت القوات الفارسية وانسحب المسلمون إلى البصرة. وفي الفصل التالي سوف نتناول أحداث الفتح العربي لفارس.

ويحدثنا ابن قرطبة الذي كتب في سنة 864 م يقول:

«ان القرصنة في تلك الفترة كانت منتشرة على سواحل البحرين، وكان أهل البحرين يمارسون القرصنة، ولم تكن لهم حقول زراعية يعيشون منها بل كانوا يمتلكون الإبل ومزارع النخيل، وكان من بين مدن البحرين وقراها في ذلك الوقت الحجر، والقطيف ودارين، وقد أشار ابن قدامه إلى المناطق الثلاثة الأخيرة وذكر بأن حصيلة دخل الخليفة من كل تلك المناطق بما في ذلك اليمامة وفقا لجدول الضرائب المعمول به في سنة 237 بعد الهجرة هو مبلغ 510,000 دينار، ويعلق ابن قرطبة تعليقا غريبا عن مناخ البحرين ويقول بأنه يحدث إمساكا في المعدة، كما يقول بأنه يزرع في هذه المنطقة نوع من التمر يسمى الانابيج ويستخرج منه نوع من الشراب يمكنه أن يغير اللون الأصفر إلى الأبيض».

ويقول ناصري خسرو بأن البحرين تسكنها قبيلة عبد قيس الذي نزح إليها من تهامه، وقد زار خسرو البحرين بنفسه وكان في طريق عودته من الحج عام 1051 م، وكانت البحرين في الأصل مجرد حامية تقع

بالقرب من الحجر العاصمة القديمة للإقليم، ويقدم المؤلف صورة مشرقة ومحببة عن تاريخ المنطقة وأحوالها الاجتماعية.

وأما عن الأحساء فانه يقول بأن الذي أنشأها أبو طاهر الجنابي زعيم القرامطة، وذلك في عام 314 هـ (926 م) وأطلق عليها اسم المؤمنية، وكان القرامطة قد استولوا على البحرين في ذلك الوقت وكان يحكمها رئيس من بينهم ويدعى أبو سعيد.

كذلك يذكر خسرو بأن البصرة كانت أقرب مدينة إلى الاحساء تخضع لسلطة المسلمين وتبعد عنها نحو 150 فرسخا. ولم يجرؤ أي أمير من أمراء البصرة على مهاجمة الأحساء ويستطرد خسرو في وصفه فيذكر:

«وتطلق لفظة الأحساء على البلدة وضواحيها والمنطقة التي تحيط بها والقلعة أيضا وتحيط بالبلدة أربعة أسوار حصينة قوية البنيان، ويفصل الواحد منها عن الآخر مسافة فرسخ واحد، وبها مصادر للماء كثيرة في إمكان كل واحد منها أن يدير أربعة معامل وينقل الماء بشكل جيد بحيث لا يتسرب إلى الخارج.

وفي وسط البلدة مدينة جميلة مزودة بالتحصينات والاستحكامات وبجميع المرافق التي تتميز بها المدن العظيمة ويعسكر فيها أكثر من 20 ألف جندي.

وكان يحكم الأحساء باعتبارها دولة ذات سيادة رئيس يدعى أبو سعيد وقد أخرج الناس عن دين الإسلام وأعفاهم من أداء الصلاة والصوم وأقنعهم بأنه ملاذهم وملجؤهم الوحيد.

وعندما كان يسأل الأهالي عن الدولة التي ينتمون إليها يجيبون بأنهم أبو سعيديون وقد وعد أبو سعيد أتباعه بأنه سوف يظهر لهم بعد الوفاة، وقد بنى له ضريحا جميلا داخل المدينة، وكانت أمنيته الأخير

هو أن يتولى خلفاؤه الستة شئون البلاد وأن يحكموا الناس بالعدل والمساواة، كما أمرهم بأن يحافظوا على وحدتهم إلى أن يظهر لهم.

وحتى هذا اليوم يقيم ورثة أبو سعيد في قصر منيف هو مقر الحكم وفي داخل القصر أرائك يجلس عليها أبناءه الستة ويديرون منها شئون الحكم ويصدرون المراسيم والأوامر بصورة جماعية ويعاونهم في ذلك شبه مجلس وزراء يجلس أفراده في المقاعد الخلفية ويتم الفصل في كل القضايا فيما بينهم.

ويقول خسرو إني عندما كنت في الأحساء كان لدى الأمراء 30 ألف عبد زنجي أو حبشي وكانوا يستخدمون في إدارة الزراعة والحدائق ولم يكن الأهالي يدفعون أي ضرائب وكل من يجد نفسه من المواطنين في حالة من الدين أو الفقر يقدم له المعونة المالية بدون فوائد إلى أن تتحسن ظروفه.

وكل غريب يزور الأحساء ويجيد حرفة تجارية تقدم له مساعدة مالية لاستغلالها في تلك الحرفة إلى أن يضمن لنفسه مورد يعيش منه، كما يمكنه شراء ما يلزمه من معدات وأدوات لحرفته إذا رغب في ذلك، كما أنه لا يسدد السلفة التي صرفت له.

وإذا تعطل معمل أو إذا كان صاحبه عاجزا عن القيام بالإصلاحات المطلوبة يصدر الوالي أوامره لبعض الخدم والعبيد لاجراء الإصلاح المطلوب دون مطالبة صاحب الحرفة أو البيت بدفع تكاليف الإصلاحات، كما كانت بعض المصانع في الاحساء مملوكة للدولة وكانت عمليات طحن الدقيق تؤدى مجانا للمواطنين، والحكومة هي التي تتحمل أجور العمال والصيانة.

وكان الأمراء يلقبون بالسادة والوزراء بالمستشارين.

ولم تعد توجد في الأحساء مساجد لأداء فريضة الجمعة كما لا

تقرأ الخطبة، وقد تم بناء مسجد لحساب أحد المواطنين الفرس يدعى علي بن محمد، وكان هذا الفارسي متمسكا بمناسك الدين وقد أدى فريضة الحج أيضا، وقد جمع هذا الرجل ثروة ضخمة وكان يقدم المساعدات المالية للحجاج الذين يأتون للأحساء.

أما المعاملات التجارية فقد كانت تتم عن طريق قطع من الرصاص توضع في سلال أو أكياس ويضم كل كيس 6000 درهم، وعند أجراء إحدى الصفقات فانهم يعدون بعض تلك الأكياس للتأكد، وهذه النقود محظور تصديرها للخارج.

وكانت الأحساء تنتج نوعا فاخرا من الفوط تصدر إلى البصرة، ولا يمنع الأجانب من أداء الصلاة وعندما يتقدم المواطنون إلى رجال الدولة يخاطبهم الأمراء بلهجة تتسم بالرقة والاحترام.

وسكان الأحساء لا يتعاطون المسكرات، وقد وضع جواد عليه سرج عند باب ضريح أبي سعيد لكي يمتطيه عند بعثه من الموت، ويقال أنه قال لأبنائه قبيل وفاته إذا عدت إليكم ولم تعرفوني فاضربوني فإن كنت ذلك الشخص فان ذلك يعني عدت إلى الحياة، وقد أمر أبو سعيد بذلك حتى لا ينتحل شخصيته شخص آخر.

وأثناء حكم الخلفاء في بغداد قام أحد حكام الأحساء القرامطة بهجوم على مكة واستولى عليها وذبح الحجاج أثناء طوافهم للبيت الحرام، كما انتزع الحجر الأسود من مكانه وحمله إلى الأحساء، وقال أنصاره صحيح أن الكعبة هي مكان لجذب الناس من كل أنحاء الدنيا، ولكنهم لا يعلمون أن الذي كان يجذب الناس إلى الكعبة هو علو شأن محمد صلى الله عليه وسلم ومجده، وقد بقى الحجر الأسود في الأحساء فترة طويلة ولكن الناس لم يذهبوا اليه، وفي النهاية أعيد الحجر الأسود إلى مكانه مقابل فدية.

وفي الأحساء يباع كل أنواع لحوم الحيوانات كالبقر والخراف، وغيرهما ولكنهم يعرضون رأس الحيوان المذبوح وجلده أمام اللحم حتى يعرف الناس نوع اللحم الذي يشترونه، وكان الناس في الأحساء يربون الخراف حتى تسمن لدرجة لا تستطيع معها الحركة وعندئذ يتم ذبحها وأكلها.

وإذا تركنا الأحساء وتوجهنا شرقا فإننا نصل إلى البحر بعد مسيرة سبع فراسخ، وإذا ركبنا البحر يمكن الوصول إلى البحرين التي لا تبعد إلا خمسة عشر فرسخا عن الأحساء، ولفظ البحرين تشمل أيضا اسم بلدة هامة يحيط بها مزارع النخيل، كما يتم صيد اللؤلؤ في البحرين، ويذهب نصف اللؤلؤ الذي يستخرج إلى أمراء الأحساء أنفسهم.

أما إذا اتجهنا جنوبا فإننا نصل إلى عمان على ساحل شبه الجزيرة العربية، وتبلغ مساحة عمان 80 فرسخا مربعا، وتحيط بها الصحراء من ثلاث جهات، وهي بلد حار المناخ وينمو فيها شجر جوز الهند، أما إذا اتجهنا شرقا من عمان فإننا نصل إلى ساحل مكران وساحل قيس، وإذا واصلنا السير جنوبا فإننا نصل إلى عدن، أما إذا سرنا في الاتجاه العكس فإننا نصل إلى إقليم فارس.

الأحساء مليئة بأشجار البلح إلى الحد الذي يقدم البلح كعلف للحيوانات لتسمينها.

وإذا تركنا الاحساء واتجهنا شمالا فإننا نأتي إلى إقليم يسمى القطيف وفيه مدينة بهذا الاسم، وفي هذه المدينة تنمو أشجار النخيل بكثرة.

وحدث أن هاجم أحد الأمراء العرب الأحساء وتمكن من احتلالها بعد حصار دام عاما واحدا، وقد استولى على كميات هائلة من الغنائم، إلا أنه فشل في إخضاع أهلها، وحين التقى بي سألني عن مجرى

الأفلاك والنجوم، وذكر «ان غايتي هي الاستيلاء على الأحساء ولا أدري إذا كنت سأنجح في هذا المسعى أم لا، وقد أجبته بما اعتقد انه الإجابة الصحيحة.

«وفي رأي أن البدو في الصحراء لا يختلفون من حيث الديانة عن سكان الأحساء، وكلامي هذا هو حصيلة ملاحظاتي الشخصية ورأيي لا يستند على الكلام الفارغ لأنني اختلطت بهم وعشت معهم شهورا عديدة، ولم أقدر على شرب اللبن الذي كان يقدمه لي البدو، وعندما رفضت شرب اللبن وطلبت ماء بدلا منه أجابوني عندما تجد الماء أطلبه ولكنه لا يوجد ماء لدينا».

وبعد مرور قرن من الزمن على هذا التاريخ كتب ناصري إدريس الذي لم تكن له معرفة شخصية بالمنطقة (وبالأحرى بأي جزء يقع على الشرق من آسيا الصغرى) كتب عن المنطقة ولكنه لم يضف جديد عن تلك المعلومات وان كان قد ذكر بأنه في زمانه كان من الصعب الانتقال بطريق البر من صحار في عمان إلى البحرين (والمسافة بينهما تساوي مسيرة عشرين يوما) ويرجع ذلك إلى حالة الحرب والصراعات المستديمة بين القبائل العربية بحيث كان يتعذر على الناس الانتقال من منطقة إلى أخرى أو نقل أمتعتهم.

ثم مضى هذا الكاتب يتحدث عن البلاد الواقعة شمال القطيف وتقيم فيها قبيلة عمر بن ربيعة ويقول بأن من بين مناطق البحرين منطقة الحجر والقطيف والأحساء وخواته أو خاته يصنع نوع من النصال يعرف بالنصال الخاتيه، كما يقول أيضا:

«بأن الجزيرة الرئيسية في البحرين اسمها أوال ومساحتها ستة أميال مربعة وعاصمة هذه الجزيرة هي البحرين، وهي مدينة مكتظة بالسكان وتتميز أرضها بالخصب وتنتج البرسيم والبلح بوفرة، كما أن فيها مصادر

كثيرة للمياه العذبة بعضها كالشلالات الصغيرة، وفيها طاقة لإدارة الرحى ويحكم الجزيرة حاكم مستقل، وكل سكان جانبي الساحل راضون عن حكمه وعدله وتقواه، وعندما يموت الحاكم يخلفه شخص آخر ويتحلى بنفس صفات الفضيلة والنزاهة».

ويذكر الأمير والجغرافي السوري أبو الفدا (1321م) والذي استمد معلوماته من مؤلفات المؤرخين الذين سبقوه بأن البحرين قريبة لنجد، ولهذا السبب تسمى بالحجر. ويبدو بأن الأحساء في عهد قد تضاءلت أهميتها لأنه ذكر «بأنها بلدة صغيرة وخالية من الأسواق وقد حدد موقعها على بعد مسيرة يومين غرب جنوب القطيف تقريبا».

وقال أيضا «انها محاطة بأشجار النخيل من جميع الجهات تماما كغوطة دمشق. أما النخيل في القطيف فإنها تنمو على الساحل وان كانت أقل من نخيل الأحساء، كما أن فيها مناطق محددة لاستخراج اللؤلؤ، وقد أخبره أحد مواطني القطيف بأن القطيف لها أسوار مزودة بأربعة منافذ وخندق، وفي وقت المد يرتفع الماء إلى محاذاة السور، وأما في الجذر فان جزءا من الأرض يبرز من تحت الماء، وكانت تقع كما يقول في طرف خليج تستطيع السفن أن تلجأ إليها بحمولاتها في فترة المد».

أما معلومات ابن بطوطه عن البحرين فهي أكثر دقة من معلومات أبو الفداء على الرغم من أنه يخلط بين الإقليم والبلدة، وكان ابن بطوطة قد زار المنطقة وهو في طريقه إلى الحج، وعبر مياه الخليج من سيراف.

يقول ابن بطوطه «ان البحرين مدينة جميلة وكبيرة بحدائقها وجداولها وأشجارها، ويحصل السكان على الماء بسهولة إذ يكفي أن يحفر الإنسان بيديه فينبع الماء من باطن الأرض، وتزخر المدينة بحدائق الليمون والرمان، كما ينمو فيها القطن، ودرجة الحرارة عالية جدا، وتهب عليها العواصف الرملية فتطمر المنازل أحيانا، وأما الاتصال

البري بين عمان والبحرين فمقطوع على ما يبدو، وبالتالي فلا يمكن الوصول إلى البحرين إلا عن طريق البحر.

وأما القطيف فإنها بلدة جميلة وكبيرة ومليئة بأشجار النخيل وتقيم فيها القبائل العربية.

وقد مر ابن بطوطه بالأحساء وقال عنها بأنها بلدة يتداول فيها الناس المثل القائل (كمن يحمل بلحا إلى الحجر) نظرا لأن أشجار النخيل فيها أكثر مما توجد في أي بلدة أخرى حتى انهم يطعمون الحيوانات منها، وسكانها عرب ينتمون في أصلهم إلى قبيلة عبد قيس ابن الأقصى.

الفصل الرابع

وصول البرتغاليين إلى الخليج

وصول البرتغاليين إلى الخليج

«ان سيف الرب وجيدون قد خدم البرتغاليين تماما كشعار للاحتلال والاستيلاء غير انه من خلال إهمالهم المريع لمتطلبات السلم وبسبب افتقارهم إلى الموهبة الضرورية في ممارسة الاستعمار، فانهم عجزوا عن الاحتفاظ بمستعمراتهم».. اللورد كرزن في كتابه «فارس والمسألة الفارسية»

المرحلة الأولى:

قبل أن نتناول هذه المرحلة من تاريخ الخليج بشيء من التفصيل أرى أن نعود قليلا إلى الوراء. وقبل أن تولي الإمبراطورية الرومانية الأدبار كان الفينيقيون يزاولون أهم نشاط تجاري مع الأقطار الأخرى. وبعد سقوط القسطنطينية حققت فينيقيا السيادة على اليونان مما ضاعف من ثروة الجمهورية ونفوذها وجعلها من غير منافس في منطقة الشرق الأدنى.

وقد زاول الفينيقيون في القسطنطينية قسطا هاما من التجارة وبالأخص في المنتجات الشرقية، غير أن إمبراطور بيزنطة وقد شعر

بالغيرة من تعاظم إمكانيات وثروة القسطنطينية أرغمهم على الانسحاب منها، وبالتالي فقد تحقق لجنوا، وبيزا قسطا من تجارة تلك المدينة. بعد إخراج الفينيقيين من القسطنطينية وجهوا اهتمامهم إلى مصر وتمكنوا عن طريقها من إنشاء تجارة منتظمة مع الشرق من ميناء الإسكندرية وزوزينا، وبذلك العمل استطاعوا في مدة قصيرة أن يحتكروا التجارة البحرية للشرق، كما أن أهل جنوا من جانبهم قد ساهموا بقسط وافر في احياء النشاط التجاري مع الإمبراطورية البيزنطية، وكسبوا لأنفسهم تجارة التوابل البرية مع الشرق الأقصى. غير أن استيلاء أهل جنوا في النهاية على امتيازاتهم، قد حمل حكومة بيزنطة على طلب مساعدة الأتراك والفينيقيين الذين تمكنوا من إقصائهم. ومن ناحية أخرى فان نفوذ أهل جنوا في الشرق بدأ يضمحل وذلك قبل أن يضمحل نفوذ فينيقيا التي كانت في تلك الفترة تتحكم في تجارة الشرق.

وفي أواخر القرن الخامس عشر تقريبا بدأ التفوق التجاري لفينيقيا في التدهور وذلك قبل أن يبدأ الأتراك زحفهم، مما اضطر الفينيقيين إلى التخلي لهم عن امتيازاتهم التجارية في الشرق، ومن ثم فقد أغلقت القنوات التجارية العديدة لهم مع الهند بصورة تدريجية وأكيدة.

وبعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية لم يبق للفينيقيين سوى نشاط تجاري محدود مع الهند الشرقية، وكان ذلك يتم عن طريق موانئ الإسكندرية والبحر الأحمر، غير أن ذلك النشاط كان عرضة لمؤامرات حكام مصر من المماليك، كما أن البابا كان يعارض ذلك النشاط.

والضربة القاضية التي سددت إلى تجارة الشرق الفينيقية جاءت نتيجة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند الأمر الذي مكن السفن البرتغالية لجلب المنتجات الشرقية الهامة بأسعار تقل كثيرا عن تكاليف الطريق القديم.

ففي عام 1486 التف بارثلميو دي ياز حول رأس الرجاء، غير أن هذا الملاح لم يكن يدرك في ذلك الوقت أهمية تلك العملية.

وفي عام 1497 أقلع فاسكو دي جاما من لشبونه إلى الهند التي وصلها في عام 1498، وعاد إلى لشبونه في عام 1499.

لقد كانت تلك الرحلة عملا حاسما في تاريخ العالم، فهي بالنسبة للبرتغال قد مهدت لها الطريق إلى إقامة الإمبراطورية البرتغالية في الهند والشرق، وهي إمبراطورية عاشت أربعة قرون حافلة بالأحداث وقد أضفى ذلك الاكتشاف الهيبة على البرتغال ورفع من شأنهم، ومنذ ذلك الوقت أطلق ملوك البرتغال على أنفسهم (سادة الفتح والملاحة) وقد بارك البابا لهم هذا اللقب.

وفيما بين (1481 ـ 1487) أي قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، أرسل دوم جوا الثاني عدد من البعثات والحملات محاولا بذلك تحقيق رغبته في اكتشاف البلاد التي كانت تجئ منها التوابل، وفي إحدى تلك الحملات كلف جوا بيريز جي كافيلهو (الذي اقترن اسمه باسم الفونسو دى بيفا) بقيادة البعثة وقد خرج هؤلاء 1487 وعبروا نابولي ورودس إلى القاهرة التي التقوا فيها ببعض العرب الذين كانوا ينوون السفر إلى عدن، فانضموا إليهم وخرجت القافلة إلى الطور ثم البحر الأحمر، ومن هناك اقلعوا بالسفن إلى عدن.

وفي عدن افترق كافلهو وبيفا عن رفاقهما فركب الثاني سفينة تابعة لأحد العرب أوصلته إلى كانانوز، ومن كانانوز توجه إلى كليكوت، وفي كليكوت اكتشف وجود الفلفل والزنجبيل، وكن يزرع قريبا من تلك البلدة، كما عرف أن القرفه والقرنفل كانا يستوردان من مناطق بعيدة عن كليكوت. من كليكوت توجه كافلهو إلى جوا، ومن جوا أبحر إلى جزيرة هرمز.

وبعد أن جمع كل المعلومات عن التجارة في هذا الميناء الفارسي ركب السفينة إلى زيلا وباب المندب ومنه إلى الساحل الأفريقي حتى وصل إلى سفالة، وبعد أن استوعب تماما طبيعة النشاط التجاري في مياه الشرق عاد إلى القاهرة، ومن هناك بعث إلى الملك دوم جوا بتقرير مفصل عن جميع البلدان التي زارها وانطباعاته عنها.

وقد عاد كافلهو إلى هرمز وعدن مرة أخرى وأقام فترة في الحبشة والى هذا الحد تنتهي قصة هذا البرتغالي.

ان إعطاء صورة شاملة للإمبراطورية البرتغالية في الهند هو موضوع يخرج عن هذا البحث، وإذا كنا لا نريد أن نغض الطرف كلية عن النقاط الهامة في هذا التاريخ، فإنه حري بنا أن نتناول الأحداث التي لها صلة مباشرة بالخليج. فقبل أن يظهر البرتغاليون على المسرح في الخليج كان عرب (عمان واليمن) يتحكمون في التجارة البحرية للشرق، وكانت هذه التجارة تدر ثروات ضخمة لأصحابها لقرون عديدة، وكل ما فعله البرتغاليون هو أنهم انتزعوا تلك التجارة من أيدي أولئك العرب وتمكنوا من الاحتفاظ بها لفترة تزيد على 300 عام.

وكان دوم فرنسيسكودي الميدا أول حاكم عام ونائب للملك دوم مانويل الأول ملك البرتغال في الهند، وكان هدفه مجرد إنشاء مراكز تجارية في الهند لمزاولة الأعمال التجارية البحتة غير أن افونسو دي البكويرك الذي خلفه في السلطة لم يكن من نفس الرأي، وقد أبحر هذا في النصف الثاني من سنة 1506 لكي يقنع الميد برأيه، كما أنه كان قد أبحر إلى أسيا مبكرا في عام 1503، وبالتالي فإن طموحات افونسودي البكويرك هي التي مهدت الطريق لإنشاء إمبراطورية برتغالية في الشرق.

كما كان البكويرك يوجه اهتماما خاصا إلى إقامة التحصينات والقلاع العسكرية في كل مكان يوجد للبرتغال مركز تجاري فيه، ولم

يكن الهدف مقصورا على حماية التجارة البرتغالية فقط وإنما كان الهدف هو أن يتمكن البرتغاليون من تدعيم النفوذ البرتغالي في تلك المناطق وإخضاع حكامها وشعوبها لسيطرتهم . بل إرغامهم في النهاية على الاعتراف بالسيادة البرتغالية، وكان إعجاب هذا القائد البرتغالي بالإسكندر الأكبر شديداً.

كلف داكنها بمسئولية القائد العام للأسطول البرتغالي الذي شكل من 14 سفينة والذي أقلع في سنة 1506، وقد تولى القيادة فيه البكويرك، وزود بالتعليمات اللازمة بالتوجه إلى سقطره عن طريق الرأس وأن يقوم في سقطره ببناء حامية تستخدم كمركز لتموين الأسطول البرتغالي الذي كان يقوم بحصار البحر الأحمر والعمل ضد الفينيقيين والمصريين، وكان يتعين عليه بعد بناء الحامية بأن يتوجه بقسم من ذلك الأسطول إلى الهند بأن يترك بقية الأسطول للبكويرك للقيام بهجوم على عدن وجده ولإعاقة تجارة العرب في المنطقة.

وقد أبلغ البكويرك سريا بأنه سوف يعين حاكما على الهند بدلا من الميدا، وذلك عند انتهاء مدة خدمة الميدا في نهاية السنوات الثلاث.

وأثناء الرحلة هبت زوبعة فرقت الأسطول البرتغالي، إلا أن قطع الأسطول عادت فالتقت عند موزمبين فيما عدا قطعتين كان يقود إحداهما روى بريرا وهو الذي اكتشف جزيرة مدغشقر التي كانت تسمى سانت لورنسو.

وقد نشأ خلاف في الرأي بين البكويرك وداكنها حول أهداف الحملة (حيث أصر الأخير على أن يتجه الأسطول أولا إلى رأس الغضروفي ولإنشاء الحامية في سوقطرة).

وعلى كل فقد وضع داكنها الجانب الأكبر من الأسطول تحت تصرف البكويرك بعد أن منحه سلطات كاملة على بقية القباطنة وسمح له

بالمضي إلى وجهته. وبعد أن استولى داكنها على جزيرة سوقطرة سلم ستاً من السفن برجالها وعتادها ومؤنها إلى البكويرك أما هو فقد أبحر إلى الهند.

وجه البكويرك اهتمامه أولا إلى الإدارة الداخلية للجزيرة إلا أنه أدرك بعد ذلك عدم جدوى جزيرة سوقطره للغرض الذي اختيرت من أجله، ولما لم تكن لدية قوات كافية لاحتلال عدن وفقا للتعليمات التي لديه، اتجه إلى الشمال الشرقي وترك انوفسو دي نورنها كقائد للحامية، وكان البكويرك مصمما على الاستيلاء على هرمز التي كما بينا في الفصل السابق، كانت السوق الرئيسية لمنطقة الخليج. وتصور أنه لو نجح في احتلالها فإن ذلك سوف يخوله سلطة مطلقه على طريق الخليج كما ستكون نصراً أكبر للبرتغاليين من مجرد فرض حصار مؤقت على البحر الأحمر.

بعد مغادرة الأسطول جزيرة سوقطره في العاشر من أغسطس مر بجزر كوريا موريا، ثم رسا الأسطول على شاطئ رأس الحد حيث التقى هناك ب 30 أو 40 مركب صيد قادمة من هرمز وغيرها من مناطق فارس الساحلية، فقام بحرقها ثم غادرها متجها إلى الغرب ورسا عند قلهات، وكانت قلهات يومئذ محطة لتموين السفن القادمة من الهند ومحمية لمملكة هرمز.

وقد أبدى سكان قلهات استعدادهم لدفع الجزية للبرتغال. وقد تمون الأسطول ثم دفع ثمن المواد التموينية التي حصل عليها.

منذ وصول الأسطول إلى قريات استقبل فيها بصورة لم يكن يتوقعها، فقام البكويرك بمهاجمة البلدة إلا أن قريات قاومته مقاومة عنيفة وإن كان البرتغاليون قد تمكنوا فيما بعد من فتح البلدة. وقد لقي 80 من السكان مصرعهم بينما خسر البرتغاليون ثلاثة. وقد أمر البكويرك بتدمير

البلدة ونهبها بالإضافة إلى حرق 14 مركبا راسية في الميناء.

بعد ذلك أبحر البكويرك إلى مسقط التي كانت تعد أقوى المعاقل العمانية، وكانت مزودة بوسائل دفاع قوية وبقوة من الجنود الذين جاءوا إليها من داخل البلاد بعدما سمعوا عن تدمير البرتغاليين لمدينة قريات.

وعند وصول الأسطول إلى ميناء مسقط حضر بعض عرب مسقط على رأس وفد من حاكم البلاد، وناشدوا القائد عدم تعريض المدينة لأي تدمير، وأبدوا رغبتهم في تبعيتهم للبرتغال ودفع ما يقرره القائد من ضريبة كالتي كانوا يدفعونها لملك هرمز.

غير أن المفاوضات بين الجانبين لم تصل إلى نتيجة، ولما أحس البكويرك بأن عرب مسقط قد أخذوا يستعدون في الخفاء وينظمون صفوفهم للمقاومة والدفاع عن بلدهم، وأصدر أمرا إلى سفينتين من سفنه بقصف المدينة كتمهيد لشن هجوم عليها، وقد دافع عرب مسقط بعناد شديد إلا أنهم اضطروا للاستسلام في النهاية وناشدوا البكويرك ألا يدمر المدينة أو يحرقها وقد وافقهم على ذلك بشرط أن يدفعوا 10,000 زرافين ذهب، على أن تصل إليه ظهر اليوم التالي.

ولما لم يصل هذا المبلغ إلى البكويرك أصدر أمره بإشعال النار في البلدة بما في ذلك مساجدها والسفن الراسية في الميناء. وقد أطلق البكويرك سراح بعض الرجال والنساء الذين كانوا أسرى لديه ولم يكن في الإمكان نقلهم، وكان قبل الإفراج عنهم قد أمر بقطع أنوفهم وآذانهم. وقد عاث الجنود البرتغاليون فسادا في المدينة باستثناء قصور الحكام لأنهم كما ذكر البرتغاليون قد استقبلوا رجالنا بالترحاب.

ويمكن الاطلاع على بعض المعلومات عن أوضاع مسقط السياسية وأهميتها التجارية في السنوات الأولى من القرن السادس عشر (والتي دمرها البرتغاليون عن عمد) من التعليق التالي:

«مسقط مدينة كبيرة وكثيفة السكان ومحاطة من الداخل بسلسلة من الجبال العالية، وأما على الجانب الساحلي فهي تطل على البحر وميناؤها صغير يشبه حدوة الحصان في شكله، وهو محمي من جميع الجهات من العواصف، وهي المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز، ولا بد أن تمر فيها جميع السفن التي تزاول الملاحة في هذه المنطقة وذلك للاحتماء فيه من الساحل المواجه الذي فيه كثير من المياه الضحلة.

ومسقط سوق قديمة للخيول وللبلح، كما أنها مدينة أنيقة جداً ومنازلها جميلة، وتحصل على موادها التموينية من الحنطة والشعير والذرة والبلح من داخليتها، ومن هناك يتم شحن هذه المواد على السفن الكثيرة التي ترتادها، وهي جزء من مملكة هرمز، أما الجزء الداخلي من البلاد فيخضع لحاكم يدعى بن جابر، ولهذا الحاكم شقيقان وقسمت السلطة بين جابر وأخويه. وتمتد سلطة ابن جابر إلى عدن، ومن الشمال تمتد إلى ساحل بحر الخليج، ومنه إلى حدود مكة».

بعد ما دمر البرتغاليون مسقط غادروها إلى صحار، وكان في صحار في ذلك الوقت حامية ضخمة يتطلب الدفاع عنها ما لا يقل عن 1000 شخص، وعلى أية حال فقد غادرها السكان هربا من البرتغاليين فيما عدا الوالي وبعض كبار الشخصيات الذين قاموا بتسليم البلدة إلى البكويرك، ثم وافق القائد البرتغالي على أن يستمر أهل صحار في الحكم ولكن باسم الملك البرتغالي الملك مانويل بشرط دفع الجزية إلى هرمز.

من صحار اتجه الأسطول البرتغالي إلى خور فكان، وبما أن سكان هذه البلدة هبوا لمقاومة البرتغاليين فقد قرر القائد البرتغالي تدميرها ونهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى الذين أخذوهم تماما كما فعلوا بأهل مسقط.

من خور فكان أسرع الأسطول إلى رأس مسندم ومنه مباشرة إلى هرمز بعد أن أصبحت جميع تلك المناطق تابعة لهرمز، وقد رسا الأسطول على الساحل، وقد خشى البرتغاليون في البداية من نتائج المهمة التي كلفوا بها، وقد زاد خوفهم أكثر من ضخامة المدينة وعدد الجنود الذين تجمعوا على الشاطئ إلى جانب السفن الكثيرة المسلحة الراسية على الشاطئ.

وكان الأمر يتطلب من البرتغاليين اتباع الحذر قبل القيام بأي هجوم على المدينة نظرا لأن هذه البلدة كانت تختلف عن المدن الأخرى التي استولى عليها البرتغاليون ودمروا معالمها وحضارتها وقد علم البرتغاليون أن هناك تجمعات كبيرة للقوات المسلحة تحتشد على الساحل. وعند إبلاغ ملك هرمز باقتراب أسطول البرتغال من البلدة أمر بالاستعداد للتصدي للهجوم وقد ذكر فارنا سوسا.

«عند وصول البكويرك إلى هرمز كان يحكمها سيف الدين وهو فتى لا يتجاوز عمره 12 عاما، وكان يرأس مجلس البلاد عبده كوجيه عطار وكان عطار شجاعاً وماكرا فبعد أن عرف بوصول البكويرك بعد استعداداته استولى على جميع السفن الموجودة في الميناء، كما استأجر بعض الجنود من الأقاليم المجاورة من الفرس والعرب وغيرهم، وهكذا عندما وصل البكويرك كان قد احتشد في المدينة ما لا يقل عن 30 ألف جندي بينهم 4000 من الفرسان، وكان هؤلاء خبراء في رمي السهام، كما كان في المرفأ نحو 400 سفينة، ستون منها من الحجم الكبير، وكان فيها 2500 رجل.

بالإضافة إلى تلك القوة فقد جمع الملك في الميناء عددا كبيرا من السفن المسلحة بالمدافع إلى جانب 200 قارب وعدد من زوارق الشاطئ، وكان فيها رماة السهام والمدافع».

دعا البكويرك ملك هرمز إلى إعلان ولائه لملك البرتغال، وبما أن هذه المحاولة لم تنجح وبالرغم من التفوق الهائل في قوات ملك هرمز ومعارضة مساعدي البكويرك على القيام بأي عمليات عسكرية ضد هرمز، إلا أنه فتح المعركة بأسطوله الصغير نسبيا واستطاع أن يحقق نصرا بحريا كاملا وإن لم يكن سهلا.

وهكذا أصبح ملك هرمز تابعا لملك البرتغال، كما وافق على دفع 15000 ذرافين كجزية سنوية، كذلك عقدت اتفاقية مع هرمز نصت على إعفاء المنتجات البرتغالية من الرسوم الجمركية، ومساواة البرتغاليين في نسبة الرسوم التي تدفع بالأقطار الأخرى، وقد عمد البرتغاليون إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية، وأصدروا قرارا بمنع أي سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية، وبذلك العمل كتب البرتغاليون السطر الأول في سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج.

بعد التوقيع على معاهدة السلام طالب البكويرك سلطات هرمز بتحديد موقع يصلح لإقامة حامية برتغالية، وبعد استطلاع مختلف المناطق تقرر أن تقام الحاميات في (قشم وترمباك، ونابند) وقد وضع حجر الأساس والبرج الرئيسي للحامية في شهر أكتوبر سنة 1507، وقد طلب البكويرك الإسراع في بناء الحامية، نظرا لأنه كان يزمع التوجه إلى البحر الأحمر للقيام بعملية استكشاف، وكان يريد بناء الدور الأول للبرج حتى يستطيع البرتغاليون أن يدافعوا عن أنفسهم ريثما يعود البكويرك إلى هرمز، كذلك أنشأ البكويرك مركزا تجاريا في هرمز، وأخذ يرسل أنواعا مختلفة من السلع والمنتجات مستهلا تجارته مع العرب. وقد أصدر تعليمات مشددة بأن يتم بيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغال.

ولما كان شاه إسماعيل ملك فارس قد عاد يطالب ملك هرمز بدفع الجزية المفروضة عليه كل عام، فقد طلب هذا من البكويرك بأن يوضح له ما الذي يجب أن يفعله إزاء هذا الطلب، فكان رد البكويرك هو أن هرمز قد أصبحت تابعة لملك البرتغال وأنه حصل عليها عن طريق الحرب وبالتالي فإن على ملك هرمز أن يعلم بأنه في حالة دفع جزية لأي ملك آخر غير ملك البرتغال، فإن البكويرك سوف يخلع ملك هرمز عن السلطة ويقلد المسئولية لشخص آخر لا يخاف من شاه إسماعيل ملك فارس.

وعلى الفور طلب البكويرك من جميع السفن أن تحضر إليه قنابل ومدافع ومتفجرات وطلب من رسول ملك هرمز بأن يبلغ الملك بأن في إمكان البكويرك بأن يرسل كل تلك الأسلحة إلى قبطان شاه إسماعيل، وبأن تلك الأسلحة هي الجزية التي يمكن لمملكة هرمز أن تدفعها إلى شاه إسماعيل، كما ذكر البكويرك لرسول الملك بأنه بعد أن يتم بناء الحامية فإن البكويرك مصمم على الدخول إلى مضيق فارس، وبأن يضع جميع المناطق الساحلية الخاضعة لشاه إسماعيل تحت سلطة ملك البرتغال، وعندما يصل البكويرك إلى تلك المناطق فانه يمكن للفرس أن يطالبوا ملك هرمز بالجزية المستحقة عليهم، إذ أنه في تلك الحالة سوف يدفعها بطريقة أفضل.

وفي عام 1508 كان الأسطول البرتغالي لا يزال في هرمز وقد أخذ الضباط والبحارة يضيقون ذرعا بأوضاعهم، مما أسفر عن قيام تمرد ضد البكويرك، كما قام بعضهم بالتآمر مع الحاكم المحلي للمدينة، وهكذا تدهور وضع البكويرك وأرغم على صرف النظر عن القيام بالمزيد من الفتوحات مؤقتا.

وكان وجهة نظر المعارضين أنه سيكون من مصلحة ملك البرتغال

بشكل أفضل لو توجه الأسطول إلى رأس الغضروفي وتربص للسفن القادمة من الهند حاملة التوابل والبهارات، وبدلا من أن يضيع الوقت في بناء حاميات يستولي عليها العرب عاجلا أو آجلا. غير أن البكويرك رأى أن يتوجه إلى الهند وذلك في عام 1508 مصطحبا القواد والبحارة المؤيدين له، وقد زار أسطوله وهو في طريقه إلى الهند مدينة صحار وجزيرة سوقطره، أما القباطنة الذين عارضوا خطته وتمردوا عليه فقد أبلغوا نائب الملك في الهند بما حدث، وقد أصدر نائب الملك أمراً بإجراء تحقيق في الموضوع. وعلى هذه الصورة انتهت أول محاولة للبرتغاليين لإثبات وجودهم السياسي في الخليج.

تقلد البكويرك منصب الكابتن جنرال ونائبا للملك في الهند بعد سفر الميدا في شهر نوفمبر سنة 1509، وكان الميدا قد رفض في البداية تسليم السلطة إلى البكويرك. ومن الأحداث التي وقعت في بداية عهده هو فقدان جوا ثم استعادتها، الأمر الذي جعله يصمم على تحويلها إلى قاعدة للحكم البرتغالي في الهند وقاعدة عسكرية قوية.

وبمرور الوقت أدرك البكويرك بأن وضعه في الهند لن يكون مرضيا إذا لم تكن خطوط المواصلات مع حكومة البرتغال منتظمة وفي حالة جيدة، وعلى هذا الأساس بعث برسالة إلى الملك دوم مانويل جاء فيها: «إن أكثر ما يسيء إلى جوا هو على أية حال ما يردده الناس دائما بأن الروم قادمون وذلك هو أكبر مصادر الخطر على الهند وأنه يسبب بين السكان قلقا وإحراجا سواء كان مسيحيين أو هنودا، وفيما يختص بهذه الإشاعات المدمرة، التمس من جلالتكم بأنهم إلى أن نتوجه إلى البحر الأحمر ونطمئن هؤلاء الناس بأنه لا يوجد شيء اسمه الروم، فإنه لن يكون هناك سلام وثقة لرعايا جلالتكم في هذه المناطق».

بعد هذا الخطاب مباشرة أقلع البكويرك بكامل أسطوله متجها إلى

الغرب (عدن ومكة) دون أن يظهر أي اهتمام للأحوال الجوية أو إلى تحقيق منجزات جديدة أكثر من مجرد هدم الحامية في سرقطرة التي ثبت عدم فاعليتها إلى جانب تحصيل الضرائب من أهل هرمز.

في شهر فبراير سنة 1513 بعد استلامه تعليمات عاجلة من الملك دوم مانويل بالعمل على الاستيلاء على عدن والتوجه إلى مضايق البحر الأحمر، أبحر البكويرك بأسطول من عشرين سفينة ويضم قوة مكونة من 1700 برتغالي و 800 ما باري أبحر من جوا باتجاه رأس الغضروفي، وقد وصل إلى عدن في الوقت المحدد، غير أن الهجوم الذي شنه البكويرك على عدن قد فشل وسبب لهم خيبة أمل، ولكنه أدرك بأن الاحتفاظ بالإمبراطورية البرتغالية في الهند لا بد من أن تتوفر له ثلاثة عناصر:

1 ـ احتلال عدن والاحتفاظ بها وذلك للسيطرة على مضايق مكة.

2 ـ الاحتفاظ بهرمز في السيطرة الكاملة على مضايق البصرة.

3 ـ الاحتفاظ بديو وجوا وذلك من أجل فرض السيادة الكاملة على كافة أقاليم الهند.

أما في عدن فلم ينجح البرتغاليون في شيء ما عدا تدمير السفن الراسية في الميناء والاستيلاء على بعض معداتها، وكان البرتغاليون في حاجة إلى تلك المهمات لإصلاح السفن.

وبعد ذلك اتجه أسطول البكويرك إلى البحر الأحمر إلا أنه لم يذهب إلى أبعد من كمران حيث اضطر إلى البقاء فترة بسبب سوء الأحوال الجوية، ومن هناك عاد الأسطول إلى ديو، وفي طريق العودة قام بمحاولة جديدة للاستيلاء على عدن وقد حدث أثناء توقف أسطول البكويرك في كمران أن انتهز قائدو الفرصة لجمع ما يمكن جمعه من المعلومات عن مداخل البحر الأحمر، كما أنهم تفقدوا جزيرة بريم.

عند عودة البكويرك إلى الهند حضر إليه مبعوث من شاه إسماعيل الذي أصبح حريصا على كسب صداقة الحاكم البرتغالي. وفي تلك الأثناء وصلت إلى البكويرك معلومات أثارت قلقا عن تحركات كان يقوم بها حاكم عدن، كما تلقى معلومات عن وفاة حاكم هرمز وهو الذي كان خلال حياته يعارض بشدة وجود حامية برتغالية في جزيرة هرمز. ومن ثم قرر بأن يرسل حملة أخرى بقيادة ابن أخيه بيرو. وخلال صيف 1513 أقلع بيرو بأسطوله واستطاع الاستيلاء على عدد من مراكب العرب كانت وجهتها البحر الأحمر.

وفي سنة 1514 وصل بيرو إلى هرمز غير أنه لم يحقق نصرا يذكر من خلال المفاوضات التي أجراها بشأن الحامية ودفع الجزية نظرا لأن ملك هرمز قد اعترف فعلا بسيادة شاه إسماعيل ملك فارس، وهكذا عاد بيرو ادراجه إلى جو في سبتمبر 1514 وقدم تقريره إلى عمه البكويرك.

وبموجب هذا التقرير قرر البكويرك التوجه شخصيا إلى هرمز بأسرع وقت ممكن دون أن يستعد الاستعداد الكافي، وخلال ذلك أعلن بأنه ينوي إرسال حملة إلى مكة. وبتاريخ 20 أكتوبر بعث إلى الملك دوم مانويل برسالة كانت تعبيرا عن حنكته السياسية وبعد نظره، ووصف الحالة بالبحر الأحمر كما يلي:

«ينبغي علينا الاستيلاء على عدن والاحتفاظ بها بإقامة حامية فيها. ويوجد في عدن ميناء صالح للعمل في وسعه تقديم الحماية لسفننا في فصل الشتاء. وإن بناء حامية خارج المضيق موضوع لا يفكر فيه أحد لأنه لا توجد هناك مصادر للمياه، وبما أن عدن لا تبعد عن هذه المداخل إلا بمسير ثلاثة أيام فإني أعتبرها المفتاح لهذه المضايق، أما بخصوص جزيرة كمران فقد نما إلى علمي أن واحدا من اثنين هما الروم أو حاكم عدن قد يقيم حامية ولكن هذا الأمر لا أهمية له لأن عندنا

حامية أخرى قريبة من جده في منطقة تسمى فرسان .. إن أول خطوة أمامنا بأن نحمي أنفسنا في مصوع حتى نضمن لأنفسنا مصدر للتموين».

وفي خطاب لاحق أرسله البكويرك للملك ذكر فيه:

«إنني أزمع التوجه إلى مصوع وهو ميناء يتبع برستوجو، وذلك للاستيلاء على ذلاقه وأرى ما يمكن عمله في جده، ولا غرو في أن بعض المسائل الخاصة بالتجارة يضطرني إلى التوجه إلى هرمز. أما رحلتي إلى البحر الأحمر فسوف تكون دون شك رحلة مفيدة نظرا لشحنات التوابل القيمة التي ترد إلى تلك المنطقة من الهند كل عام. وبما اني أرغب بأن أقضي على الروم بعد إنشاء علاقات مع بيتر جون. ولكل هذه الأسباب فإني مصمم على التوجه إلى البحر الأحمر أولا للقضاء على نفوذ السلوان هناك».

بعد أن اطمأن البكويرك على الأوضاع في الهند أبحر في شهر فبراير سنة 1515 بأسطول مكون من 26 سفينة يضم 1500 برتغالي و 700 ملباري. وقبل تحرك الأسطول كان السؤال المطروح هو ما إذا كان يتعين على الأسطول أن يتوجه أولا إلى عدن أو إلى هرمز، وأخيرا صرف النظر عن عدن بعد أن تبين للبكويرك بأن الأوضاع في هرمز كانت أهم وأكثر إلحاحا لا سيما وأن حاكمها في ذلك الوقت كان سيف الدين الذي كان صنيعه في يد شاه إسماعيل، وانه من المحتمل ان يطرد البرتغاليين من هرمز في أي وقت.

وبعد وصول الأسطول إلى قريات توجه منها إلى مسقط وفي مسقط علم البكويرك بأن هرمز قد أصبحت في حالة ثورة وبأن ملكها أصبح أسيرا لدى شخص يسمى رئيس أحمد، فقرر بأن يسرع إليها غير أنه على أية حال لم يكن استرداد هرمز يتطلب استخدام الأسطول أو القوة العسكرية.

وعند وصول البكويرك إلى هرمز أطلق بعض طلقات تحية للمدينة ولكن هذا الأجراء أشاع الخوف في رئيس أحمد فبادر بالإفراج عن الملك، وبعد مفاوضات طويلة مع الملك استرد البرتغاليون الحامية ورفعوا العلم البرتغالي على مقر الملك. وبعد فترة من وقوع هذا الحادث حضر مبعوث من شاه إسماعيل وتم التوصل إلى اتفاق بين الفرس والبرتغاليين سمح بموجبه لملك هرمز بالاستمرار في ممارسة سلطاته باسم الملك دوم مانويل ملك البرتغال. وهكذا أصبح البرتغاليون السادة في هرمز من حيث الشكل والموضوع.

عين البكويرك ابن أخيه بيرو قائدا للحامية وزوده بتعليمات شاملة لإنجاز الإجراءات الخاصة بالحامية البرتغالية وتسليحها، وبعد تسوية كل الأمور في هرمز أقلع البكويرك على ظهر السفينة فلوردا روزا إلى الهند وكانت حالته الصحية سيئة بل وأخذت تتدهور يوما بعد يوم وتوفى في جوا بعد وصوله مباشرة أي في 15/ 12/ 1515. وكانت آخر رسالة منه إلى ملك البرتغال قد بعث بها إليه وهو في البحر تتضمن ما يلي:

«إن هذه الرسالة التي أبعث بها إلى جلالتكم لم أستطع أن أكتبها بنفسي لأنني في هذا الوقت أعاني من مرض الفواق وهو دلالة على قرب نهايتي، ولي هنا ولد واحد أوصي له بالقليل الذي أملكه، أما أوضاع الهند فانها تتحدث بنفسها عن نفسها وعني، وإني أترك المكان الرئيسي في الهند تحت تصرف جلالتكم والأجراء الوحيد الذي بقي ويتطلب الإنجاز هو إغلاق المضايق وأملي أن جلالتكم سوف تذكرون دائما الإنجازات والمكاسب التي حققتها للهند وأن ترفعوا من شأني».

وهكذا مات أول رجل قدير وضع أسس أول إمبراطورية أوربية في آسيا قبل أن يتمكن من تحقيق مشروعاته الكبرى، وقد تجلت قوة أرادته وسلوكه بالطريقة التي تمسك بها والتي مكنته من التغلب على جميع

المعارضين لمشروعاته لتدعيم النفوذ البرتغالي واحتكار تجارة الشرق، غير أن طريقته القاسية والعنيدة في معاملة خصومه كانت ولا بد تؤدي في النهاية إلى تقوية أسس الإمبراطورية التي بناها.

خلف البكويرك كنائب لملك البرتغال في الهند لويوسوريز وكان شخصية تختلف تماما عن البكويرك. وعند وصول لويو لكوشن لم يكسب رضا أي أحد من الناس وعلى الأخص ملك البرتغال وذلك بسبب تحفظه المصطنع على عكس البكويرك الذي اعتاد ملك البرتغال على كياسته ولبقته، ومن ذلك اليوم تغيرت معالم السياسة البرتغالية في الشرق إذ أنه حتى ذلك الوقت كان المسئولون يعملون بما تمليه عليهم روح الشرف الحقيقي وكانوا يعتمدون على قوتهم العسكرية وليس على ثروتهم. أما بعد ذلك فقد اتجهوا إلى التجارة وتحول القادة العسكريون إلى تجار، واعتبروا القيادة سبة والكرامة فضيحة، وحسن السمعة مذمة. لقد باشر سوريز أعماله الحكومية وقام بتفقد الحامية وعين فيها قادة جدداً، وأصدر أوامر كان من شأنها مجرد أن تملأ السطور ولكنها لا تساهم إطلاقا في تحقيق الجوهر التاريخي.

وعلى امتداد القرن السادس عشر مارس البرتغاليون سيطرتهم القصوى وإن لم تكن هادئة في الخليج. أما هرمز فقد ظلت بحكم موقعها المتحكم في مدخل تحتل مركزا رئيسيا في نشاطاتهم، وكانت كل تجارة البرتغال مع البصرة وغيرها من موانئ الخليج بما فيها مسقط تمر عن طريق ميناء هرمز.

وعلى الرغم من أن قبضة البرتغاليين على الخليج قد اشتدت مع مضي القرن السادس عشر، إلا أن حجم تجارتهم وأهميتها أخذت تتدهور بصورة مستمرة وإن كانت بطيئة، بل حتى منذ اليوم الذي استولى فيه البكويرك على هرمز. وربما يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى طريقة

السلب والنهب والقهر التي كان يسير عليها البرتغاليون وقادتهم العسكريون.

وقد ساهم الوجود البرتغالي في هرمز على احتفاظ حكامها بالسلطة على التوالي، ولكنها كانت سلطة شكلية، فقد أرغمهم البرتغاليون على الولاء لملك البرتغال، ولم يكن يسمح لهم بمغادرة الجزيرة من غير موافقة الحاكم البرتغالي. وفي منتصف القرن حاول الأتراك أن يتحدوا النفوذ البرتغالي في الخليج والمحيط الهندي، غير أن النجاح لم يحالف الأتراك.

إن الأحداث التي اقترنت بوجود البرتغاليين في الخليج خلال القرن السادس عشر تتلخص فيما يلي: في سنة 1516 م أقلع سوريز من جوا إلى البحر الأحمر للبحث عن أسطول سلدان الذي قيل انه كان يعد العدة للاستيلاء على الممتلكات البرتغالية في الهند، وعند وصول سوريز إلى عدن قام حاكم عدن الذي وجد نفسه أعزل من السلاح ووسائل الدفاع بتسليم مفاتيح الحامية إلى سوريز غير أن سوريز رفض تسلمها فكان هذا أجراء غير حكيم من جانبه لأن سوريز فضل بأن يؤجل الاستيلاء على المدينة إلى موعد آخر، وواصل رحلته إلى جده ولكنه لم يجد أثرا لأسطول سلدان.

وفي طريق عودة سوريز استولى على مدينة زيلع، ثم منها عاد إلى عدن لكي يحتلها. غير أنه خلال تلك الفترة أعيد تحصين القلاع وتجديدها، فلم يتمكن سوريز من عمل أي شيء، وغادر عدن متوجها إلى بربره، وفي هذه الأثناء هبت عاصفة شتتت أسطوله وفقد عدداً من سفنه نتيجة لذلك، وهكذا انتهت الحملة نهاية فاجعة. أما في هرمز فقد تطلب الأمر إرسال تعزيزات إليها بعد وقوع اضطرابات سببها محاولة السلطات البرتغالية الاستيلاء على الجمارك.

وسرعان ما أصبح موضوع الجمارك مسألة ذات أهمية أولية. ويبدو أنه في سنة 1522 م وبناء على تعليمات صادرة من الملك دوم مانويل عين بعض المسئولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك في هرمز، غير أن هؤلاء بسبب معاملتهم الصلفة تسببوا في قيام ثورة شاملة في هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار، وتعرضت كل تلك المدن إلى هجمات ليلية مفاجئة انطلقت من البر والبحر بناء على طلب من ملك هرمز. وقد قتل خلال تلك الاضطرابات عدد كبير من البرتغاليين.

وكان حاكم هرمز يرمي من وراء تلك الثورة الإطاحة بالنفوذ البرتغالي، كذلك تعرضت الحامية البرتغالية في هرمز لحصار عنيف، إلا أن الإمدادات التي وصلت إلى البرتغاليين من مسقط جعلت حاكم هرمز يقطع الأمل في نجاح الثورة، وبالتالي فقد اتخذ إجراءات انتقامية خوفا من انتقام البرتغاليين، وأشعل النار في المدينة وظلت النيران مشتعلة لمدة أربعة أيام، أما هو فقد هرب إلى جزيرة قشم، وأثناء وجوده هناك اغتيل من جانب سكان جزيرة قشم، وقد حل محله في السلطة محمود شاه البالغ من العمر 13 عاما.

وقد وقعت معاهدة جديدة بين الملك الجديد والبرتغاليين، وقد وقع على المعاهدة من جانب البرتغاليين دوم دورت دي منزيس، وجرى التوقيع في ميناء يقع على نهر ميناب وذلك في شهر يوليو سنة 1523، وقد استندت المعاهدة الجديدة على المعاهدة السابقة التي عقدت مع البكويرك والتي تعهد والد الحاكم الحالي لهرمز بتسليم هذه المدينة للبرتغاليين متى طلب ذلك ملك البرتغال، وقد نص في المعاهدة الجديدة على تطبيق تلك المادة.

وقد مهدت الاتفاقية الجديدة لتشديد قبضة البرتغال على هرمز، وبعد أن تم التوقيع عليها سمح القائد البرتغالي للحاكم الشاب بممارسة سلطاته المحلية.

وبعد أن جمع منزيس أرباحا طائلة من العمليات التجارية التي كانت تتم عن طريق هرمز عاد إلى الهند في سنة 1524، وعند وصوله إلى الهند فوجئ بتعيين دوم فاسكو دي جاما في منصبه كنائب للملك في الهند.

في عام 1526 نشبت ثورات محلية جديدة في كل من قلهات ومسقط ضد البرتغاليين وكان يتزعمها رجل يدعى رئيس شرف الدين غير أنه تم قمع تلك الثورات من جانب حاكم الهند البرتغالي في ذلك الوقت واسمه لوبو فاز الذي خرج بأسطول كبير لقمع تلك الثورات.

في سنة 1528 عين نوفر داكنها خلفا للوبو فاز نائبا للملك في الهند الذي غادر لشبونه في طريقه إلى الشرق وكان ينوي الاطلاع على الأوضاع العامة في المناطق التي توجد فيها مراكز برتغالية بما في ذلك هرمز.

وفي سنة 1529 أثناء وجوده في هرمز وصل تفاريز دي سوزا وكان قادما من البصرة بعد تقديم مساعدة لحاكمها ضد تمرد قامت به جزيرة الخضر أو عبدان، وكانت أولى الحملات البرتغالية على رأس الخليج، وبما أن حاكم البصرة قد رفض تسليم سبع من السفن التركية للبرتغاليين أو منع الأتراك من ممارسة التجارة في البصرة، قام تفاريز بإشعال النار في منطقتين من البصرة وبعدها انسحب إلى هرمز، وفي نفس العام أرسلت حملة برتغالية إلى البحرين التي تمردت هي الأخرى على هرمز، غير أن نتيجة تلك الحملة كانت بمثابة الكارثة للبرتغاليين بسبب النقص في معداتهم.

وفي عام 1542 وبسبب الصعوبات التي كان يواجهها البرتغاليون لتحصيل الضرائب المستحقة على حاكم هرمز والتي بلغت متأخراتها حتى ذلك التاريخ 500,000 دكته، وافق مارتن افونسو نائب الملك على

إعفاء حاكمها من دفع المتأخرات بعد أن أقتنع بعجزه عن السداد، إلا أنه في مقابل ذلك الإعفاء أرغمه على الموافقة على تعيين مشرفين برتغاليين لتحصيل رسوم الجمارك مع احتفاظ الموظفين المحليين بوظائفهم. ومنذ ذلك اليوم لم تبرز مسألة متأخرات الرسوم الجمركية مرة أخرى، لأن البرتغاليين كانوا يتولون تحصيلها بأنفسهم، وبذلك الأجراء القهري أصبح البرتغاليون الملاك الفعليين لهرمز.

في منتصف القرن السادس عشر تقريبا بدأ الأتراك يقومون بنشاط متزايد في منطقة الخليج مما دفع بالأمور إلى صراع مكشوف بينهم وبين البرتغاليين، وفي عام 1550 سلم العرب قلعة القطيف إلى الأتراك فأثار ذلك استياء شديد لدى حاكم هرمز، كما قام الأتراك بخلع حاكم البصرة، غير أن هذا الحاكم وكان لديه نحو 30 ألف رجل طلب من أفرنسو دافورنها الذي كان نائبا للموانئ في الهند المساعدة ضد الأتراك مقابل عدد من الامتيازات في البصرة من ضمنها إنشاء حامية لهم في ميناء البصرة، وردا على ذلك أرسل إليه بأسطول من 19 سفينة فيها 1200 رجل بقيادة انطونيو دي نرنها وذلك لمد يد المساعدة إلى حاكمي البصرة والقطيف. وقد تمكن نورنها من تدمير حامية القطيف وتسويتها بالأرض، وبعدها اتجه إلى البصرة غير انه لم يحقق هناك شيئا وعاد منها فاشلا إلى هرمز حيث اكتشف الخدعة ولكن الأوان قد فات.

وقد قرر الأتراك الانتقام من البرتغاليين مما سببا لحامية القطيف والبصرة فأوفدوا أسطولا يضم 16 ألف رجل وذلك للرد على عمليات البرتغاليين، وأثناء وجود نورنها في هرمز بعث ببعض السفن البرتغالية لاستطلاع النشاط الذي كان يقوم به القائد التركي بير بك، وكاد هذا الأسطول أن يعتقل ابن بير بك.

ومن ناحية أخرى قام الأسطول التركي بالهجوم على مسقط

وتدميرها وأرغم قائد الحامية البرتغالي جوا دي لسبوا على الاستسلام بعد قصف متواصل للحامية البرتغالية استمر 18 يوما، ثم أمر بنقل المدافع البرتغالية إلى سفنه وأسر قائد الحامية ورجاله الذي قدر عددهم بنحو 60 شخصا، وبعد أن أنهى الأسطول التركي تلك العمليات أبحر إلى هرمز وقام بحركات لاستعراض القوة أمام سواحلها. ويصف الكاتب فاريا واي سوازا نشاط بير بك على النحو التالي:

«جاء أسطول العدو إلى مسقط ولكن تلك الدولة الكبرى استطاعت أن تصمد لمدة شهر تقريبا إلا أنها اضطرت إلى الاستلام أخيرا وقد داس القائد بير بك على القوانين، كما أسر قائد الحامية البرتغالي و 60 من رجاله ونقلوا إلى السفن التركية وبعد ذلك غادر بير بك إلى هرمز، وكان مع دى الفارو دى نورنها 900 رجل في الحامية، كما التجأ حاكم البلدة وأسرته وقاضي المحكمة إلى الحامية من العدوان التركي، وكان الأسطول التركي قد أعد نفسه لحصار طويل واستولى على 40 مركبا شراعيا كانت في الميناء. وبعد رسو الأسطول التركي نزل رجاله إلى البر وأقاموا معسكراتهم فيها ثم أخذوا في بناء تحصيناتهم ونصب المدافع التي استخدموها بشدة متناهية وبدون توقف لمدة شهر واحد.

وكنتيجة للخسائر الفادحة التي تكبدها الأتراك فقد أمر قائدهم رجاله بنهب المدينة، وبعد ذلك أبحر إلى قشم التي كان لجأ إليها عدد كبير من أهالي هرمز، وفي قشم استولى الأتراك على كميات هائلة من الغنائم ثم انسحبوا».

لقد أدرك نورنها نائب الملك في الهند الأخطار التي باتت تهدد النفوذ البرتغالي في الخليج كنتيجة حتمية لنشاط القائد التركي بير بك، ولهذا جهز أسطولا كبيرا وقرر أن يقوده شخصيا وذلك لإنقاذ هرمز، وأقلع الأسطول في شهر سبتمبر سنة 1551، وعند وصوله إلى هرمز

ظهر له بأن الخطر التركي قد زال عنها فعاد إلى جوا.

وفي سنة 1552 قطعت رأس بير بك في القسطنطينية لأنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه، وقد حل محله قائد آخر يدعى مراد بك وهو نفس الشخص الذي كان مسئولا عن ضياع القطيف من يد الأتراك. لقد خرج مراد بك بأسطول من 15 سفينة والتقى بالأسطول البرتغالي وكان يقوده ديجو نورنها بالقرب من ساحل فارس، ونشبت معركة حامية بينهما لم تسفر عن غالب أو مغلوب. وبعد عام من ذلك التاريخ عاد البرتغاليون فالتقوا مرة أخرى بأسطول الأتراك الذي كان بقيادة على الشلبي وذلك في منطقة قريبة من مسقط. وقد نجح البرتغاليون في إبادة الأسطول التركي تقريبا وإعادة توطيد سيادتهم على الخليج.

عاد الأتراك إلى محاولتهم لاحتلال الموانئ العربية على الخليج وأعدوا أسطولا من سفينتين وسبعين صندلا، وكانت تحمل 1200 فرد من الأتراك الإنكشاريين.

لقد قام هذا الأسطول بشن هجوم على البحرين، غير أن النجدة التي وصلت إلى البرتغاليين من هرمز القريبة من البحرين أسفرت عن فك الحصار عن القلعة وارغام الأتراك على تسليم ما لديهم من أسرى وأسلحة ومعدات وخيول بالإضافة إلى غرامة 10,000 دكة، بعد ذلك انسحب الأتراك إلى البصرة.

في سنة 1581 نجح الأتراك في احتلال مسقط احتلالا مؤقتا بقيادة علي بك الذي كان قد خرج من مخا ومعه أسطول من ثلاث سفن، وعند وصول الأسطول إلى مسقط شن هجوما مفاجئا على البرتغاليين الذين لم يكونوا مستعدين إطلاقا مما أثار الفزع في صفوفهم ففروا إلى داخل البلاد، وبعد انسحاب على بك عاد البرتغاليون إلى مسقط، ولكنهم وجدوا المدينة مدمرة ومنهوبة.

كان حكام إقليم لار في الأزمنة السابقة أقوى من ملوك هرمز إلا أنه في عهد سيطرة البرتغال على الخليج انقلب الوضع إلى العكس. ويقول المؤرخ فاريا سوزا.

«حاول حكام لار دائما أن يظهروا تفوقهم على ملوك هرمز كما كان الوضع في السابق، أما الحاكم الحالي فيبدو أنه مصمم على احتلال موجستان وأرسل جيشا جرارا تمكن من الاستيلاء على بعض المناطق، كما ضرب حصارا على هرمز ومنع دخول المؤن إليها من المناطق المجاورة.

وبمساعدة عسكرية قوية من البرتغاليين قام حاكم هرمز بالزحف على حامية شامل وكانت قوية الاستحكامات ويصعب اختراقها، لا بسبب شجاعة المدافعين عنها وإنما بحكم موقعها الطبيعي، ولقد تمكنت القوات المتحالفة بعد قتال مرير من احتلال القلعة وبذلك انتهت عملية استثمار هرمز».

في سنة 1586 سير البرتغاليون حملة بقيادة ميلو بيرو على ممباسا حيث كان يوجد فيها الأتراك، وبعد أن قاموا بتدمير المدينة عادوا إلى هرمز، وفي هرمز توفى القائد، وبعد وفاته توجه خليفته إلى مسقط لإقامة حامية فيها شبيهة بالحامية الموجودة في هرمز.

في أواخر القرن السادس عشر تقريبا وقعت تغيرات في أوضاع البرتغاليين في الشرق كنتيجة لوصول سفن لدول أوربية أخرى والتي وصلت لتشارك البرتغاليين في الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من تجارة الشرق، فقد ظهر الهولنديون في مياه الهند الشرقية، كما بدأت إنجلترا هي الأخرى تتحرك في نفس الاتجاه. وعلى الرغم من أن الهولنديين قد باءوا في سنة 1596 ـ 1597 يوجهون اهتمامهم إلى الهند الشرقية، إلا أنهم لم يكونوا قد ظهروا حتى ذلك الوقت في مياه

الخليج، بل انه حتى قبل ذلك التاريخ أي سنة 1583 كان الشاب الهولندي المشهور جام هوجين فام لينشوتن قد أقلع من لشبونه في رحلته التاريخية إلى الشرق.

أما بالنسبة إلى إنجلترا فإن شركة الهند الشرقية لم تكن قد ظهرت إلى حيز الوجود حتى ذلك الوقت، ومن ثم فإن الاحتمالات التجارية في الشرق لم تكتشف إلا من قبل بعض الإنجليز كان أبرزهم هو جون نيوبري الذي غادر إنجلترا ووصل إلى هرمز في عام 1580 ثم عاد إلى إنجلترا في عام 1582، وبعد ستة أسابيع من عودته غادر نيوبري إنجلترا مرة أخرى يصحبه رالف فتش وغيره وقد وصلوا هرمز في سنة 1583 ثم عادوا إلى إنجلترا في سنة 1591، وربما كانت أهم بعثة رسمية إلى المياه الشرقية هي بعثة لانكستر في عام 1591 غير أن التاريخ التفصيلي لتلك النشاطات سوف نشير إليه في الفصول التالية للكتاب.

الفصل الخامس

الصراع بين الإنجليز والبرتغاليين

الصراع بين الإنجليز والبرتغاليين

«من عادة المؤرخين أن يقيموا أفكار الإنسان كما يشاءون ويصنفوها كما لو كانت عينات في مختبر أحد علماء الطبيعة، ويقولوه بأن ذلك الشيء إنما وقع إرضاء لغرور الإنسان وهذا الشيء من أجل أهداف قومية وآخر بسبب دوافع دينية، ولكن في حقيقة الواقع ينبغي أن نتأكد أنه لم يكن حقيقة».. ..
جاردينير

نستعرض الآن سير الأحداث التي تمخضت عن انتقال السيطرة على الخليج من البرتغاليين إلى دول أخرى. ففي جهود إطار عباس الثاني الكبير الذي تولى الحكم سنة 1587 لدعم مركزه، فقد كان من الطبيعي أن ينظر بغيرة إلى القوى التي اغتصبت هرمز.

ويقول اللورد كرزون بأن البرتغاليين كانوا مهووسين ومستبدين ومجردين من الروح التجارية الحقيقة. وبدلا من أن يتكيفوا مع مصالح فارس فقد داسوا على تلك المصالح وأرغموا فارس على أن تشتري

متطلباتها من البرتغاليين بالأسعار التي كانوا يقررونها بأنفسهم، وأن يتنقلوا ببضائعهم على السفن البرتغالية، غير أن هذه السياسة قد جلبت عليهم النقمة.

لقد صمم عباس على استرداد هرمز من البرتغاليين واقترح على حاكم لار أن يقدم طلبا بهذا المعنى إلى البرتغاليين بحجة أن حاكم فارس دائن له حيث امتنع عن دفع الجزية، وكان دفع الجزية قد توقف في الواقع منذ احتلال البكويرك لهرمز، كما نشب خلاف حول تجارة الحرير الفارسية.

ولما كان البرتغاليون رافضين الاعتراف بحقوق الفرس على الجزيرة، اضطر عباس إلى عقد اتفاقية غريبة مع جيمس ملك إنجلترا لاسترداد هرمز، ولكي نفهم الأهمية الحقيقة في الاتفاقية المذكورة فإنه لا بد لنا من الرجوع للوراء بنحو ربع قرن لمناقشة الأحداث التي أدت إلى عقد تلك الاتفاقية.

بعثة شيرلي:

في سنة 1598 وصل إلى بلاط شاه عباس رجلان إنجليزيان كانا شقيقين ومن أسرة بارزة في إنجلترا، وعند وصول الشقيقين إلى قزوين ومعهم حاشيتهم المؤلفة من 26 فردا، وكانوا قد وصلوا في موكب تحيط به الأبهة والمظاهر، ومثلوا أمام شاه عباس باعتبارهم فرسانا قد سمعوا بمكانته العالية وشهرته، وأنهم قد جاءوا ينشدون التشرف بالخدمة لدى بلاط العاهل الفارسي، واستقبلهم الشاه جميعا.

ان السير انطوني شيرلي لم يزعم بأنه يمثل أي جهة رسمية، غير أن السبب الأساسي في مجيئه هو محاولة إقناع الشاه على إقامة علاقات مشتركة مع الدول الأوربية المسيحية بهدف العمل ضد الأتراك بالإضافة إلى إقامة علاقات تجارية مع إنجلترا.

وبعد أن برهن الزائر على صدق نواياه للشاه بطرق عديدة، كما ثبت ذلك من الجهود التي بذلها ذلك الرجل لتعليم الفرس شئون الحرب وفنونها، كلف هذا المبعوث في النهاية بعدد من المهام لدى الدول الأوربية. وتعتبر وثائق الاعتماد التي أصدرها شاه عباس إلى السير انطوني شيرلي، كما يذكر جون مالكولم نوعا فريدا في مجال التمثيل الرسمي، وكانت موجهة إلى ملوك أوربا المسيحية الذين دعاهم العاهل الإسلامي إلى إقامة علاقات صداقة، وقد جاء في تلك الوثائق:

«لقد حضر إلينا في هذه الفترة السعيدة، رجل بارز (السير انطوني شيرلي) وقد جاء إلينا بمحض إرادته قادما من أوربا إلى هذه المناطق فيا أيها الأمراء ممن تؤمنون بالسيد المسيح نفيد بأن المبعوث مكلف بعقد اتفاقيات صداقة بيننا وبينكم، ومن جانبنا فقد فوضناه في تحقيق تلك الرغبة، ولم يسبق قبل الآن أن تقدم أحد لهذا الغرض ولإزالة سوء التفاهم بيننا وبينكم غير هذا الشخص الذي تقدم إلينا بمحض رغبته وإرادته، وإنني أبعث برفقته أحد رجال دولتي.

إلى أن يقول: وقد توطدت العلاقة بيني وبين هذا الشخص إلى الحد الذي كان يتناول طعامه معي طوال إقامته بيننا حتى أصبحنا وكأننا أخوان، ولهذا فعند وصول هذا المبعوث أيها الأمراء فيمكنكم أن تكلفوه بكل ما يقوله لكم فهو مفوض مني شخصيا، بعد أن يكون هذا المبعوث قد قطع البحر وخطا بالمثول بين يدي ملك موسكو العظيم (والذي تربطنا به صداقة قوية تصل إلى مستوى الأخوة) نرجو أن يستقبل هذا المبعوث بصورة لائقة من جانبكم، ولما كانت هناك صداقة عظيمة بيننا وبين موسكو، لذا فإننا نوفد هذا المبعوث إلى بلدكم أملين أن تسمحوا له بحرية التنقل دون عوائق».

وفي نفس الوقت أصدر الشاه عباس مرسوما يمنح امتيازات هامة

للتجار الأوربيين ممن كانوا يرغبون في التعامل مع فارس، وقد ضمن المرسوم ضمانا تاما لجميع التجار فيما يتعلق بسلامتهم وأموالهم أو في ممارسة شعائرهم الدينية، والامتيازات والحصانات التي منحها العاهل الفارسي للتجار الإنجليز والتي أدخلت عليها تعديلات بمضي الوقت، قد تمتع بها كافة الأجانب المقيمين في فارس على امتداد فترة ال 300 عام الماضية.

وعلى عكس الامتيازات الأجنبية التي كانت ممنوحة للأجانب في تركيا، فإن الامتيازات التي منحها حاكم فارس لم تحدث أي إحراج إطلاقا للحكومة الفارسية فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية وذلك في المناطق الشمالية من فارس، حيث كان المسئولون الروس قد اعتادوا قبل الثورة الروسية، ووفقا للمعاهدات القديمة أو لأسباب أخرى على المطالبة بامتيازات غير معقولة لعملائهم الكثيرين جدا في تلك الأقاليم. إن تلك الامتيازات التي تبدو من الناحية النظرية على الأقل مرحلة جديدة في العلاقات الأوربية الفارسية تعد أمرا بالغ الأهمية.

وبموجب الاعتماد الذي منح للسير انطوني شيرلي فقد غادر فارس إلى أوربا عن طريق موسكو. ولم تظهر أي نتيجة تذكر على الأقل بشكل مباشر لمهمته لأنه بعد أن زار عددا من الدول الأوربية وصل إلى مدريد حيث بقى هناك إلى أن توفى سنة 1630 ولم يعد إلى فارس بعد ذلك، غير أن شقيقه روبرت شيرلي بقى مع الشاه بعد سفر أخيه وعينه الشاه قائدا لجيش فارس، وقد أظهر روبرت شيرلي دورا بارزا في العمليات الحربية التي شنها الشاه عباس بنجاح ضد إمبراطور القسطنطينية فيما بين سنة 1602 / 1627، وكان يأمل في تحقيق حلمه في إبادة الأتراك وتحقيق اللقاء بين أحلامه وأحلام الدولة الأوربية.

عندما لم يتلق شاه عباس أي أخبار أو معلومات من مبعوثه السير

أنطوني شيرلي أو عما حققه في مهمته فإنه أخذ ينظر إلى أخيه روبرت شيرلي بعدم الاهتمام. وعلى أية حال ففي سنة 1608 أو سنة 1609 أوفد شاه عباس روبرت سيرلي إلى أوربا لنفس الغرض أي إقامة وتدعيم روابط الصداقة بين فارس والدول الأوربية والأعراب عن رغبته في القضاء على النفوذ التركي ومد الحدود الفارسية إلى حدود الدول الأوربية وذلك بالرغم من النتائج السلبية التي أسفرت عن مهمة المبعوث الأول.

وقد زار روبرت شيرلي بولندا وألمانيا وإيطاليا، ومن إيطاليا توجه إلى مدريد حيث أعلن هناك عن مشروع لتمويل تجارة الحرير (التي كانت تنتقل عن طريق تركيا) إلى هرمز أو إلى أحد الموانئ القريبة. غير أن ملك أسبانيا لم يحبذ المشروع، ومن أسبانيا سافر روبرت إلى إنجلترا وذلك في عام 1611 لتسليم الرسائل التي معه من شاه عباس والتي يعرب فيها العاهل الفارسي عن تقديره العظيم وحبه لصاحب الجلالة ملك إنجلترا مع رغبته الصادقة في إقامة علاقات وثيقة مع بريطانيا العظمى، كما تضمنت الرسائل وعدا صريحا بإعطاء الحرية التجارية لكافة رعايا جلالته في جميع أقاليم فارس.

كانت نتائج مفاوضات شيرلي غير مشجعة، ولقد كانت هناك شكوك حول مهمته كما كان رجال الأعمال في شركة الهند البريطانية يعارضون مشروع شيرلي. وبعد منحه لقب فارس عاد السير روبرت إلى فارس عن طريق السند وبقى في خدمة الشاه.

في سنة 1613 شعر الأسبانيين بالقلق بشأن مسألة الأمن في هرمز إذ أنه في شهر نوفمبر من ذلك العام وجه فيليب الثالث ملك أسبانيا تحذيراً للسلطات البرتغالية في الهند عن محاولات كان يقوم بها السير روبرت شيرلي في إنجلترا للحصول على سفن لمهاجمة هرمز، وعند

مغادرته إنجلترا كان يحمل تفويضا لعقد معاهدة مع الشاه بشأن تجارة الحرير والسلع الحريرية مع فارس، كما أكد ملك أسبانيا في رسالته إلى نائب الملك البرتغالي في الهند على الحاجة إلى دعم وسائل الدفاع عن هرمز ضد المخططات الإنجليزية، كما حثه على اعتقال المبعوث البريطاني. وبالرغم من كل ذلك تمكن السير روبرت شيرلي من الإفلات والوصول إلى فارس.

تأسيس شركة الهند الشرقية:

في نفس الوقت وبنهاية عام 1600 تم تأسيس شركة الهند الشرقية بموجب مرسوم ملكي (بتاريخ 31 / 12 / 1600) أصدرته الملكة اليزابيث بوصفها المؤسسة لتجارة لندن مع الهند الشرقية.

أما المحاولات الأولى لبريطانيا للوصول إلى الهند بقصد التجارة فقد كانت (الممر الشمالي الغربي) ثم بعد ذلك عن طريق روسيا، وان أول رجل بريطاني زار الهند فعلا للتبادل التجاري هو المستر توماس ستيفن من أساتذة كلية اكسفورد الجديدة وذلك سنة 1579 ثم عين فيما بعد رئيسا لكلية العبيساويين في جوا.

وقد أثارت خطابات توماس إلى والده ضجة كبيرة وحماسا شديدا في إنجلترا لإنشاء تجارة مباشرة مع الهند، غير أن الوثائق التي عثر عليها في السفن البرتغالية والتي استولى عليها القبطان ديرك سنة 1587 قد كشفت (عن معلومات هامة حول فوائد التجارة مع الهند بحيث دفعت الإنجليز على التصميم لإقامة اتصالات مباشرة مع الهند). كذلك فإن تحطيم الأرمادا سنة 1588 قد بعث ثقة الإنجليز في أسطولهم وفي قدرتهم في التعامل مع الأسبان والبرتغاليين الذين كانوا سادة البحار في ذلك الوقت، ومنذ ذلك التاريخ بدأ تجار لندن يبتكرون الوسائل للحلول محل البرتغاليين في المحيط الهندي.

وعلى أية حال فإن الاحتمالات المغرية لتجارة الشرق كانت إلى حد ما قد اكشتفت من قبل ذلك، ومن جانب أربعة تجار بريطانيين هم رالف فيتش وزملاؤه جون نوبري ووليم ديديز وجيمس ستوري، وقد غادروا إنجلترا في سنة 1583 ومعهم رسائل من ملكة إنجلترا إلى ملك كومبي وإلى إمبراطور الصين، وكانت رحلتهم تتسم بالمغامرة. ومن ميناء طرابلس السوري عبرو المنطقة إلى الفرات والفالوجا، ومن الفالوجا إلى بغداد، ثم عبروا نهر دجلة إلى البصرة ومن البصرة مضوا إلى هرمز في الخليج، وعندما وصولهم إلى هرمز اعتقلتهم السلطات البرتغالية بتهمة التجسس وأرسلوا إلى جوا حيث بقوا في السجن بعض الوقت، ويصف المستر فيتش هذا الحادث بقوله:

«هنا في هرمز وبعد وصولنا بوقت قصير تم اعتقالنا وإيداعنا السجن وصودرت السلع التي كانت في حوزتنا من جانب قائد الحامية البرتغالي ويدعى دوم متياس دي البكويرك. ومن هرمز حملتنا السفينة إلى جوا بتاريخ 11 أكتوبر».

بعد أن قام فيتز بزيارات كثيرة لمناطق الهند وبورما وملقا وسيلان عاد إلى إنجلترا بمفرده سنة 1591. وضع تقريرا عن رحلته الثانية، ولا شك أن التقرير المثير عن ثروات الشرق التي لا تنضب والذي وضعه ذلك الرائد المغامر قد أثار لندن، وبعث حماسا كبيرا في إنجلترا من أجل الحصول على نصيب من تلك الثروة التي كانت حتى ذلك الوقت حكرا على البرتغاليين.

كانت باكورة نشاط شركة الهند الشرقية هي إرسال أسطول تجاري إلى الشرق، ففيما بين 1600 و 1612 أرسل ما لا يقل عن 12 أسطولا من هذا النوع، وقد نجحت هذه الأساطيل في الحصول على نصيب من تجارة الهند. أما أول سفينة تجارية إنجليزية وصلت إلى سوارث كانت

سنة 1608 وكانت بقيادة وليم هوكنز الذي كان يحمل خطابا من الملك جيمس إلى إمبراطور المغول، وقد حقق هوكنز بعض النجاح في تلك الرحلة. وفي عام 1612 نجح توماس بست الذي وصل بأسطول آخر من ثلاث سفن في عقد اتفاق تجاري مع السلطات المحلية في سورات.

وبموجب مرسوم صدق إمبراطور المغول على ذلك الاتفاق ثم بعد وقت قصير أنشأ مركز تجاريا في سورات، وفي عام 1516 اتخذت خطوة هامة من جانب شركة الهند الشرقية في لندن. إن تجارب شركة الهند الشرقية وعلى الأخص الإجراءات البرتغالية المعادية لكل مشروعاتها بأن مصالحها التجارية في الهند سوف تكون أكثر فائدة ومركزها أكثر قوة لو تم تعيين ممثل دبلوماسي لإنجلترا لدى بلاط إمبراطور المغول. وقد حبذ الملك جيمس الاقتراح وتم تعيين السير توماس روى وكان من الشخصيات البارزة وله خبرة في السياسة والقضاء سفيرا معتمدا لدى إمبراطور المغول في مدينة أزمير وذلك في سنة 1615.

وتتخلص مهمة السير توماس روي كما صدر بها المرسوم في 29 ديسمبر سنة 1614 فيما يلي:

«تنص التعليمات الصادرة للسير توماس روى الذي يتمتع بلقب فارس هي أنه قد فوض من قبلنا وتحت خاتم دولتنا إنجلترا بتمثيلنا كسفير لدى إمبراطور المغول (أو إمبراطور بلاد الهند الشرقية) وتبعا لذلك يتعين عليه أن يحافظ على شرف الملك وهيبته سواء باعتبارنا ملكا ذا سيادة أو كمسيحي مؤمن، وأن يعمل على تطوير تجارة شركة الهند الشرقية وهو المجال الرئيسي لوظيفته وأن يلتزم بتعليمات الشركة ولا يحيد عنها، وإذا ما سأله إمبراطور المغول عن سبب خلاف البرتغاليين في جوا، وما يجري مجراه في تلك المنطقة لرعايا الملك، وبما يبدون لهم من عداء فعليه أن يرد عليه بأن البرتغاليين قوم يسعون أن تكون التجارة كلها في أيديهم ومع أن البريطانيين قادرون على رد القوة بالقوة

دفاعا عن النفس إلا أن صاحب الجلالة يرغب في الامتناع عن القيام بمثل هذه الإجراءات».

وهكذا استطعنا أن نقيم شركة الهند الشرقية على أسس متينة كخطوة في سبيل التنمية السياسية والاجتماعية لإنجلترا خلال القرون من السابع عشر حتى التاسع عشر، وليس غرضنا في هذا الكتاب على أية حال أن نتتبع أعمال وتطور الشركة ككل وإنما نتناول ذلك النشاط الذي اقتصر على فارس ومنطقة الخليج وبصورة تدريجية.

عند وصول المندوبين الإنجليز للشركة أمام إمبراطور المغول وجدت السلع والأقمشة الإنجليزية سوقا فورية، إلا أنه تبين فيما بعد أن السلع التي صدرت إلى هناك كانت زيادة عن الطلب، وبعد البحث تبين لتوماس أن هناك سوقا لتلك السلع في فارس بسبب برودة الجو هناك وأن الفرس يستعملون مثل تلك الأقمشة لفترة تمتد لخمسة شهور كل عام.

وقد تلقى توماس اولدورث تلك المعلومات من ريتشارد ستيل وهو شاب من برستول كان قد وصل إلى فارس سنة 1612 للحصول على ديون له، وعند وصوله إلى سوارت كشف عن تلك المعلومات المثيرة بشأن احتمالات التجارة في فارس بحيث أرسلوه بصحبة تاجر آخر يدعى جون كروسر إلى أصفهان لجمع المزيد من المعلومات للحصول على مرسوم حكومي يضمن استقبالا سليما لرجال الشركة وسفنها وبضائعها في كافة الموانئ الفارسية.

وقد زود كروسر بخطاب توصية للسير روبرت شيرلي الذي قد عاد لتوه من دولته كمبعوث للشاه إلى جميع حكومات أوربا (1608 ـ 1613) كما طلب من المبعوثين بأن يتأكدوا من نجاح المشروع التجاري وأن يزوروا موانئ الساحل الفارسي لمعرفة أفضلها لرسو السفن. غير أنه

يبدو أن السير روبرت شيرلي قد استقبلهم بفتور في أول الأمر إلا أن مهمتهم في النهاية قد كللت بالنجاح التام.

وفي سنة 1616 أصدر شاه عباس مرسوما بذلك المعنى ويتضمن تعليمات بحسن استقبال البريطانيين الذين يفدون إلى فارس. أما بالنسبة للميناء فبعد أن تفقد عددا من الموانئ كبندر عباس وجاشك وساحل الباطنة في عمان والبحرين وبوشهر وقع اختيارهم على جاشك التي تبعد 90 ميلا فقط من هرمز، وكان الميناء يقع داخل الخليج ولا خطر عليه من البرتغاليين.

وقد أعطى ستيل وصفا لاختياره جاشك في الخطاب الذي بعث به إلى الشركة سنة 1616 أو سنة 1617 قال فيه (هذه هي موانئ بلاد فارس حيث أنه يصعب أن ترسو سفينة من حمولة 100 طن، ومع ذلك فميناء هرمز الذي كان اسمه رأس جاشك يمكن لسفينتين حمولة 500 إلى 600 طن أنه ترسو فيه، كما علمت ذلك من مصدر موثوق به، كما يمكن للسفن الكبيرة حسب اعتقادي أن تدافع عن نفسها ضد أي هجوم من البرتغاليين بعكس السفن الصغيرة».

إن منح ذلك المرسوم إلى ستيل قد أثار جدلا فوريا حول ما إذا كانت الامتيازات التجارية التي منحها شاه عباس تحول لصالح شركة الهند الشرقية، وإذا كان ذلك فبأي طريقة. أما السير توماس روى فقد طلب الحذر والتروى في الأمر، واقترح اجراء تحقيق أولا عن الحالة التجارية في فارس كما اقترح أن يزور أصفهان بنفسه بتكليف من ملك إنجلترا، وذلك لكي يتأكد من الأمر شخصيا، وكان يرى أن المرسوم ليس له أهمية خصوصا وأنه لم يتضمن نصا بوجوب إنشاء ميناء مزود بوسائل الدفاع (كرد على ميناء هرمز البرتغالي).

كما أن المرسوم لم يتضمن تعهدا بتوجيه التجارة فعلا إلى ميناء

جاشك، أو لنفس الأسباب، إلى أي ميناء فارسي آخر قد يتعامل معه البريطانيون، وأما بالنسبة لفارس فلا يعرف أصحاب الشركة ما هي التعهدات التي التزم بها. وجاشك ليست ميناء صالحا لتصريف السلع وكان من رأيه أن الوقت غير مناسب لتنفيذ ذلك المشروع في فارس خصوصا وأن السير روبرت شيرلي كان قد عاد منذ وقت قريب إلى فارس بعد أن مثل شاه عباس لدى ملك أسبانيا والذي كان قد زود بمعلومات لعقد اتفاق مع ملك أسبانيا يقضي بان يقوم البرتغاليون والأسبان في حالة السماح لهم باستخدام بندر عباس وغيرها من مناطق الساحل الفارسي بشراء كافة السلع الفارسية المعدة للتصدير وبإرسال أسطول كل عام إلى فارس بشحنات من التوابل والفلفل والأقمشة الهندية.

وكان هدفهم من ذلك في حالة نجاح مهمة شيرلي أن تبطل تعهدات الشركة. وعلى هذا الأساس كان السير توماس روى يحاول منع الشركة من اتخاذ أي أجراء حاسم. ومع ذلك فإنه قد وجه رسالة إلى شاه فارس يشكره على المرسوم الذي منحه لزميله ستيل، إلا أنه أوضح في رسالته بأن مفاوضات الشاه مع أسبانيا قد تتعارض مع نصوص المرسوم لأنه يعطي حرية التجارة إلى كافة التجار المسيحيين، وأشار إلى أن منح دولة أخرى حقوق احتكار التجارة قد يدفع الإنجليز إلى استعمال القوة وتعكير صفو الأمن في الخليج.

وعلى أية حال فلقد كان لأصحاب الشركة في سوارث رأى يختلف عن ذلك فقد كانوا مصممين على افتتاح مركز أو مراكز لهم في فارس على الرغم من اعتراضات توماس روى، وكانت أسبابهم تتركز في:

أ ـ بأن الفرصة القائمة هي فرصة نادرة خاصة وأن روبرت شيرلي

الذي قد يثير المشاكل بعيدا عن فارس.

ب ـ بأن الحرب بين فارس وتركيا والتي كانت تعرقل سير حركة التجارة مع أوربا قد تؤدي إلى نقص في بعض الأقمشة القطنية والحريرية في فارس.

ج ـ أنه لا بد من البحث عن سوق لتصريف فائض السلع الموجودة في سوراث.

د ـ أن ميناء جاشك ملائم للعمليات وأن وجود سفينة واحدة يعتبر كافيا لتوفير الحماية للميناء من أي عدوان قد يقوم به البرتغاليون.

وهكذا تم تجاهل آراء روى، كما أن التجار قد عارضوها في رسالة بعثوا بها إلى الشركة وذكروا فيها أن روى غير مطلع على أمور التجارة في فارس.

اختير إدوارد كونك الذي له خبره طويلة في التجارة مع تركيا للأشراف على المشروع وفي سنة 1616 خرجت أول سفينة إنجليزية واسمها جيمس من سوراث إلى جاشك بحمولة ضخمة من السلع إلى فارس. وقد حاول البرتغاليون الاستيلاء على السفينة ولكنهم لم ينجحوا في ذلك وتمكنت من الوصول إلى وجهتها يوم أول ديسمبر بعد رحلة دامت 27 يوما، وفي يناير التالي تم إنزال السلع. ورغم عدم أهمية تلك الصفقة إلا أنها شكلت بداية طيبه لنصيب البريطانيين في النشاط التجاري في الخليج.

وفي سنة 1619 نجحت الشركة في إقامة مركز لها في جاشك وكانت التجارة مع العاصمة الفارسية تتم عن طريق هذا الميناء إلا أن تم افتتاح ميناء جمبرون.

ويعود الفضل إلى حد كبير إلى السير توماس روى رغم أنه قد

عارض الأجراء الذي أرتاه جماعة التجار الإنجليز في سوراث، وكان يعلق عن موقفه هذا صراحة، ومع ذلك فقد بذل روى جهدا كبيرا لإنجاح المشروع، ويبدو لنا أن السير توماس روى كان يهدف إلى سوق تجارية منتظمة، رغم أنه كان يحبذ أن تكون التجارة حرة مع أسبانيا وتفاهما سلميا معها إلا أن غيره كان يرى وجوب تشجيع شاه فارس على طرد البرتغاليين من بلاده وأن يتمكن الإنجليز من احتكار التجارة الفارسية لصالح شركة الهند الشرقية.

ويمكن تلخيص نشاطات شركة الهند الشرقية خلال السنوات القليلة التالية على الشكل التالي: في سنة 1617 أقام كونك مركزا تجاريا في شيراز، وفي مستهل نفس العام افتتح مركزا آخر في أصفهان، وكان الشاه متغيبا على الحدود التركية عند وصول كونك، غير أن الأخير استطاع مقابلة الشاه الذي احتفى به وبالغ في إكرامه إلى حد أنه لقب الملك جيمس بأخيه الأكبر وشرب نخب الملك، كما وعد بإعطاء الإنجليز ميناء جاشك أو ميناء آخر، وهكذا حصل كونك على مجموعة أخرى من الامتيازات من الشاه.

في سنة 1618 حصلت شركة الهند الشرقية على امتيازات أخرى محددة في فارس كما تبين أن الشاه كان يحبذ رأي توماس باركر وهو الشخص الذي عين كونك مسئولا عن شئون البعثة في فارس وبأن يتم بيع جميع أصناف الحرير الفارسي للإنجليز وحدهم في المستقبل والامتناع عن إرسال أي شيء منها إلى أوربا عن طريق تركيا أو إلى أسبانيا أو إلى البرتغال.

وهذه المعاملة التفضيلية للإنجليز تعتبر (من الناحية النظرية على الأقل) مرضية جداً.

ومن المفيد أن ندرس موقف البرتغاليين في الخليج في تلك الفترة.

لقد كانوا في عام 1600 أسيادا في الموانئ الرئيسية على جانبي الخليج أي في هرمز وقشم ومسقط والبحرين وفي البصرة أيضا من الناحية التجارية على الأقل، غير أن علامات التفسخ قد بدأت تظهر عليهم، ويمكننا أن ندرك بسهولة كيف أن ظهور البريطانيين في القواعد الشرقية للبرتغال قد أثار الفزع فيهم فكانوا ينظرون إلى أي حركة للسفن الإنجليزية في غيرة شديدة، ولهذا حاولوا قد المستطاع منع جميع السفن الأجنبية الأخرى من ممارسة الملاحة في الخليج بغير تصريح من قباطنة الموانئ التي يسيطرون عليها، وكانوا يمارسون تلك الإجراءات بمنتهى التعسف، كل ذلك من أجل الاحتفاظ بسيطرتهم على التجارة. غير أن ولاء الشركة في سوراث والذين كانوا واثقين من تقيد ملاحيهم الإنجليز بالنظام وتحليهم بالشجاعة قد عارضوا تلك الإجراءات البرتغالية بشدة، وكانوا في قرارة أنفسهم مصممين على انتزاع الهيمنة على الخليج من أيدي البرتغاليين عندما تسنح الفرصة.

وفي سنة 1602 تقريبا نجح شاه فارس في طرد البرتغاليين من البحرين التي كانوا يسيطرون عليها منذ أن طردوا الأتراك منها في أواخر القرن السابق. وفي عام 1604 أصبح البرتغاليون في حالة يائسة على طول ساحل الخليج وذلك بسبب الغارات التي كانت تشنها سفنهم من ناحية ولعجزهم على الحصول على المواد التموينية اللازمة من ناحية أخرى. ويذكر تيكسيرا الذي أبحر في مياه الخليج في تلك الفترة تقريبا أنه:

«على طول هذا الساحل سرنا 35 يوما أمضيناها في عناء وتعب فقد نفدت مئونتنا ولم نقدر على الحصول على مواد تموينية لأن كل منطقة ذلك الساحل موبوءة بأعمال القرصنة التي يمارسها البرتغاليون مستخدمين نوعا من السفن الصغيرة يسمى (فيستا). وإلى الشمال يوجد خليج سيف الدين تقطنه أغلبية عربية وهو يخضع للشاه، كما يخضع بعضهم للبرتغاليين ويحصلون على جوازات سفر منهم وبدون تلك الجوازات يتعرضون للخطر من جانب السفن البرتغالية المسلحة التي

تتعقب سفنهم غير أن هؤلاء السكان على عداء مع البرتغاليين بسبب المظالم التي كانوا يتعرضون لها».

وفي عام 1612 وسنة 1615 مني الأسطول البرتغالي بهزيمة في معركة بحرية مع البريطانيين في منطقة غير بعيدة عن سوراث كان من نتيجتها أن بدأ إمبراطور المغول ينظر إلى البرتغاليين بأنهم ضعفاء في قوتهم البحرية وكان لتلك النكسة رد فعل سيئ على سمعتهم البحرية في الخليج. وفي سنة 1612 أيضا استولى البرتغاليون كما يبدو على جمبرون أو بندر عباس كما سميت فيما بعد وقاموا بتحصينها احتياطيا ضد أي هجوم محتمل على هرمز. وفي سنة 1613 حاول حاكم إقليم لار استعادة جمبرون ولكنه فشل في محاولته. أما البرتغاليون فقد احتفظوا ببندر عباس حتى سنة 1615 إلى أن أخرجهم منها الفرس بعد حصار طويل.

أما على الساحل الغربي فقد كانت قبضتهم أقوى، وفي سنة 1616 قاموا بهجوم على صحار واحتلوها وقاموا بنهب الحامية وذبح أفرادها والقضاء على صحار كميناء منافس لمينائي مسقط وهرمز، كما أنهم استولوا على دخل المدينة بالقوة .

وفي الوقت الذي كانت الشركة الإنجليزية توطد أقدامها تدريجيا ولكن بصورة أكيدة، كان البرتغاليون يقومون بمحاولات فاشلة لخطب ود شاه عباس بعد أن شعروا بأنه يسعى لطردهم منها، وفضلا عن ذلك فإن العمليات التجارية الناجحة للبريطانيين في المناطق القريبة من هرمز قد أضرت كثيرا بازدهارها، وقد أحدث وصول أسطول إنجليزي مع بعض السفن التجارية إلى جاشك قلقا شديدا في هرمز وبالتالي فقد بدأت الاستعدادات للدفاع عن المدينة.

في عام 1620 تقريبا نجح الفرس في طرد البرتغاليين من موقع كانوا يحتلونه على الساحل الغربي بالقرب من رأس الخيمة وقد ساعدهم

بعض العرب في ذلك الأجراء بينما كانت قوة عسكرية فارسية تعمل من داخل فارس وتهدد بشكل خطير تموين هرمز للمياه، وذلك عن طريق محاصرتهم للقلعة التي شيدها البرتغاليون في جزيرة قشم والتي كانت تزود هرمز بالماء وبالمؤن.

في نهاية عام 1620 منعت سفينتان تابعتان للشركة الإنجليزية من دخول جاشك وذلك من جانب الأسطول البرتغالي، غير أن السفينتين عادتا إلى سوراث وهناك تم تعزيزهما بسفينتين أخريين، وبذلك استطاعت السفن دخول جاشك بعد مناوشة بينهم وبين البرتغاليين. لقد عاد الأسطول البرتغالي إلى هرمز لتجهيزه، وعاد إلى الظهور مرة أخرى بأسطول أكبر، ونشب قتال بين الجانبين أسفر عن انتصار الإنجليز.

ويبدو أن مدفعية البرتغاليين كانت ضعيفة وبعد أن يئسوا انسحبوا من ساحة المعركة متكبدين خسائر كثيرة، ومن ذلك الوقت لم يكرر البرتغاليون محاولاتهم للتصدي للإنجليز. وبعد أن قام أسطول شركة الهند الشرقية بشحن 520 بالة من الحرير الفارسي لإنجلترا عاد إلى سوراث راضيا عن النصر الذي حققوه في أول مواجهة لهم مع منافسيهم البرتغاليين في الصراع على مكان تحت الشمس في مياه الخليج.

الفصل السادس

طرد البرتغاليين من الخليج

طرد البرتغاليين من الخليج

استاء البرتغاليون كثيرا من الخطوات التي كان يتخذها الإنجليز لتدعيم مركزهم في فارس على أسس تجارية متينة، كما استاءوا من نشاط الفرس سواء داخل فارس أو في الجزر المجاورة لهرمز والتي كانت تزود هرمز بحاجتها من الماء والمواد الغذائية، وبالتالي فقد بعث الملك فيليب في سنة 1618 برسالة إلى نائب ملك البرتغال في جوا يحثه فيها على دعم وسائل الدفاع عن هرمز وقد تسلم الملك ردا مطمئنا على اتخاذ تلك الخطوات بالفعل.

في سنة 1621 شعر شاه عباس الذي كان يقيم علاقة سليمة مع تركيا منذ عام 1618 والذي استطاع إخضاع إقليم لار المجاور لسلطته، بأنه في وضع يسمح له بطرد البرتغاليين من هرمز، والتي كان وجودها تحت سيطرتهم يتناقض مع كرامته القومية وازدهار بلده.

في سنة 1621 أدرك الشاه أن الوقت قد حان فعرض طلبه عن طريق حاكم إقليم لار، ولكن الأخير رد عليه بأن الجزيرة هي جزء من إقليم لار وذلك من قبل وصول البكويرك إلى المنطقة، كما قام البرتغاليون من جانبهم بإرسال ردهم بالرفض القاطع لطلب الشاه،

وبذلك أصبح الفرس والبرتغاليون في حرب سافرة غير أن الفرس كانوا أضعف من أن يغامروا بالقيام بعمليات حربية حتى لو افترضنا أنه كان في إمكانهم أن يضغطوا بمدفعيتهم ضد استحكامات جزيرة هرمز، وأنه كان يتعين عليهم أولا حل مشكلة الاحتفاظ بجيش لمحاصرة الحامية في تلك الجزيرة المقفرة في الوقت الذي كانت سفن روي فريد هي التي تتحكم في البحر.

في البداية ضرب الفرس الحصار على قلعة جزيرة قشم لكي يضمنوا وصول المؤن والمياه إلى هرمز. أما على الجانب الفارسي فقد كنت هناك فرصة أمام قولي حاكم شيراز وهو الذي كان يقود العمليات، غير أن الأمور حتى في الجانب الفارسي لم تكن تسير على ما يرام.

صادف في ذلك الوقت وصول أسطول من السفن الإنجليزية متجها إلى جاشك من سوراث، ومن الواضح أنه كان في رحلة تجارية عادية. وكان الخان في ميناب وعلى الفور طلب من القائد الإنجليزي الاشتراك في الهجوم على كل من قشم وهرمز، بعد أن وعد الإنجليز بإغراءات كثيرة وألمح في الوقت نفسه إلى أنه إذا ما رفض الإنجليز مساعدته في تلك الحرب والتي جاءت نتيجة لموقف الشاه الودي من الإنجليز فإن الامتيازات الممنوحة لهم سوف تسحب كما ستصادر بالات الحرير التي كان يتوقع وصولها من أصفهان لحسابهم.

وهكذا وجد الإنجليز أنفسهم في مأزق، ويبدو أن مجلس إدارة الشركة في سوراث قد كلف القائد الإنجليزي بعد انتشار أعمال التهديد والسلب والنهب من جانب البرتغاليين بمحاولة الاستيلاء على السفن البرتغالية بل بمهاجمتها في الموانئ إذا وافق مجلس ضباط الأسطول على مثل تلك الإجراءات. غير أن شن هجوم على ممتلكات أحد الأمراء الأوربيين الذي كانت تربطه بالإنجليز علاقات طيبة، أو توجيه السفن

البريطانية ضد حاميتين قويتين (ناهيك عن سفن أسطول القائد البرتغالي روي فرير) فقد كان أمرا يختلف.

كذلك فإن المركز الرئيسي في لندن وقف موقفا سلبيا من تلك الإجراءات وكان من المحتمل ان يعارض القيام بعمليات عسكرية دون أن يكون هناك تهديد مباشر لأعضائها.

ومن ناحية أخرى فقد كان رفض التعاون مع الفرس يعني خسارة الشركة لحمولتها من الحرير وضياع تلك التجارة التي كلف بناؤها كثيرا من الجهد، ولما تكتمل بعد. وعلى أية حال وبعد نقاش طويل ونزولا على رأى سنوكس إلى حد كبير تقرر إشراك كبير ممثلي الشركة في فارس في تلك الإجراءات ووضع حد نهائي لتهديدات البرتغاليين في الخليج.

إن الأوضاع الغريبة والاتفاق المعقود بين الفرس والإنجليز بشأن العمليات المقترحة كانت تتلخص في رأي هربرت فيما يلي:

«أن تكون حامية هرمز (إذا أمكن احتلالها) مع ما فيها من ذخيرة ومدفعية من نصيب الإنجليز: على أن يقوم الفرس ببناء حامية أخرى لهم في الجزيرة على نفقتهم إذا شاءوا ذلك. وأن تقتسم الغنائم بالتساوي، وأن يتم التصرف في الأسرى المسيحيين من جانب البريطانيين، والعرب من جانب الفرس، وأن يدفع الفرس على الأقل نصف تكاليف العمليات والأجور والذخيرة وعلى أن يتمتع الإنجليز في بندر جمبرون بالإعفاءات الجمركية من الرسوم».

بعد توقيع ذلك الاتفاق أصبح كل طرف مستعد للقتال، ولقد ظهرت بعض المصاعب في إقناع البحارة الإنجليز في الاشتراك في العملية فقد قالوا بأنها ليست عملية تجارية وأنهم لم يعينوا للقيام بعمليات كهذه، غير أنه عن طريق تهديدهم مرة وإقناعهم مرة أخرى (بما في ذلك مكافأة براتب شهري) سحبوا اعتراضهم.

وفي يوم 19 يناير سنة 1622 انطلقت السفن من جاشك. وفي يوم 22 منه رست بالقرب من هرمز حيث كان الأسطول البرتغالي يرسو بالقرب من الحامية هو الآخر، وكان يتألف من خمس سفن مسلحة وسفينتين صغيرتين وعدد من الفرقاطات.

توقع الإنجليز بأن تخرج سفن البرتغاليين لمواجهتهم مباشرة، وعلى كل فأن ذلك لم يحدث، ولهذا انتقل الأسطول الإنجليزي إلى قشم ورسا بالقرب من القلعة البرتغالية التي كانت تحت قيادة روي فرير. وبسبب الضغط الذي وقع على البرتغاليين من الفرس من جهة البر وهجوم الأسطول الإنجليزي عليهم في البحر بعد إنزال وحدة مدفعية وإقامة بطارية على الساحل أضطر البرتغاليون إلى الاستسلام، وأخذ روي فرير وكبار مساعديه أسرى. كانت الإصابات على الجانب الإنجليزي في تلك العملية طفيفة عبارة عن ثلاثة قتلى وجريحين، غير أنه لسوء الحظ كان من بين القتلى الإنجليز وليم بافن قبطان السفينة (لندن) الملاح البارع والشهير في تاريخ ارتياد القطب ومكتشف خليج بافن.

تم إقامة حامية فارسية في قلعة قشم يشاركهم أربعة إنجليز، وبعدها انتقل الأسطول إلى جمبرون للتمهيد للعملية الكبرى بمهاجمة هرمز نفسها. أما روي فرير وغيره من الأسرى فقد أرسلوا إلى سورث.

وفي فبراير أبحرت السفن الإنجليزية يصحبها نحو مائتي مركب فارسي من جمبرون ورست بالقرب من هرمز. وفي اليوم التالي أنزلت إلى البر قوة عسكرية فارسية كبيرة بقيادة أمام قولي واستولت على الجزيرة وطردت البرتغاليين من القلعة التي كانت تتمركز في مكان حصين على بروز أرضي يمتد إلى داخل البحر.

وفي 24 فبراير أحرقت أكبر سفينة برتغالية وهي سان بيدرو وغرقت، أما القوات الفارسية فقد استطاعت بتاريخ 17 مارس تدمير

خطوط دفاع البرتغاليين بعد هجوم قامت به عليها، غير أنها صدت من جانب البرتغاليين الذين قاتلوا ببسالة. وبناء على أوامر من القائد الفارسي أمام قولي أشعلت النار في المدينة عندما تبين أن الجنود الفرس قد أخذوا يتسكعون في ملاهي البلدة وتعذر حشدهم للقيام بالهجوم.

وعلى أية حال فان الجيش الفارسي تعرض إلى مجاعة تقريبا، ثم الماء القليل الذي تم الحصول عليه قد نفذ، حتى انه لو تمكن الأسطول البرتغالي الذي كان ينتظر وصوله بين لحظة وأخرى من طرد السفن البريطانية لأصبح وضع القوات الفارسية التي كانت تحاصر المدينة دقيقا جداً لأنه كان عليهم أن يجلبوا المؤن والمياه من داخلية البلاد. كما كان تسليح الجيش الفارسي سيئا، ولم يكن لديهم قطع صغيرة من السلاح وبعض السهام والسيوف، وكان لدى بعض رؤسائهم دروع. ومن ناحية أخرى كان موقف الإنجليز حرجا من جراء تصرف القائد الفارسي الذي نقض اتفاقه معهم أكثر من مرة، وكان يعقد اجتماعات مع البرتغاليين دون إبلاغ الإنجليز بذلك. كما أنه ارتكب مخالفات عديدة.

في بداية شهر أبريل أخذت الحامية البرتغالية تعاني من الأمراض ونقص المواد التموينية، وقد قام المحاصرون بهجمات غير ناجحة حتى يوم 19 أبريل عندما نجحت القوات المتحالفة في اختراق الاستحكامات الخارجية للحامية وأرغمت البرتغاليين على التراجع إلى المعاقل الداخلية للقلعة.

وفي يوم 21 أبريل قام البرتغاليون بمبادرة للاتصال بالإنجليز عن طريق خطاب أرسله قائد الحامية يطلب فيه وساطة الإنجليز مع القائد الفارسي. جاء في الخطاب أنهم إذا ما اضطروا إلى الاستسلام بأسرع ما يمكن فانهم سوف يستسلمون للإنجليز لأنه كما ذكر ليس من اللائق لهم ان يتصلوا بالشرقيين مع وجود الإنجليز.

وقد أكد القائد البريطاني في رده على المحافظة على الأرواح، وتم الاتفاق على هدنة يومين لوضع صيغة للشروط. وفي يوم 23 سلم البرتغاليون أنفسهم للإنجليز واشترطوا أن يتم إرسالهم إلى مسقط أو الهند، وقد تم إنزال العلم البرتغالي من على قلعة البكويرك بعد أن ظل يرفرف عليها أكثر من مائة عام.

على الجانب الإنجليزي، خسر الإنجليز نحو 20 رجلا، غير أن خسائر الفرس ربما بلغت ألف قتيل. أما طاقم الحامية الذي كان يتألف من نحو 3000 شخص بما فيهم الرجال والأطفال فقد أرسلوا إلى مسقط وصحار، وقد أصيب عدد كبير منهم بالمرض، غير أن الأكثرية كانوا يعانون من المجاعة وعلى العموم فقد كانت حالتهم سيئة نتيجة جروحهم وأمراضهم، وصراخهم يهز حتى أشد القلوب تحجرا وقسوة.

بعد استسلام الحامية البرتغالية بدأت عمليات سلب ونهب لمحتوياتها، رغم أنه على حد قول هربرت قد تم ختم مخزن الذخيرة والأسلحة والأموال بالشمع الأحمر بختم البلدين.

ويبدو أن عملية السلب والنهب لم تقتصر على طرف واحد، فعلى عكس الاتفاقية قد استغلت الهدنة من جانب الفرس لذبح أكثر من 100 رجل كانوا شبه موتى، كما اعتدى الفرس على الكنائس والمباني. وفي تلك الأثناء قام أحد الإنجليز (خلافا للأوامر) بالدخول قسرا إلى أحد الأديرة وعند عودته افتضح أمره.

وقد تشجع الفرس (اعتقادا منهم بأن الاتفاقية قد فسخت) وأخذوا يستولون على كل ما هو ثمين وغال. كذلك يذكر مونوكس بأن كلا من الإنجليز والفرس أخذا ينهبون لدرجة أنه شعر بالخجل والاشمئزاز من تلك الأعمال، غير أنه لم يكن في استطاعته أن يفعل شيئا لوقف تلك التصرفات.

والواقع أن غنائم هرمز لم يتم تقسيمها تقسيما عادلا كما تنص الاتفاقية الفارسية البريطانية، فكانت النتيجة هي أن الفرس فازوا بحصة الأسد. وأما الذي حصل عليه الإنجليز كنصيب للشركة فانهم لم يستطيعوا حتى تصريفه نظرا لقلة المشترين.

كما لم تسلم البنود الأخرى من الاتفاقية فقد رفض الفرس اقتسام المعدات الحربية مع الإنجليز بحجة وجوب الاحتفاظ بها في القلعة للدفاع المشترك، كما عارضوا في بقاء أي إنجليزي في القلعة ما لم يتعهد القائد الإنجليزي بتخصيص سفينة للحماية، وفوق ذلك كله فقد قدمت فاتورة عن المياه والمواد التموينية التي استهلكها الإنجليز. وعلى العموم فقد كان الإحساس العام في أوساط رجال الأسطول بأن الإنجليز عوملوا بطريقة مخجلة. وعندما طلب قائد الفرس من القواد الإنجليز استكمال مهمتهم في شأن هجوم على مسقط كان رد الإنجليز مهذبا ولكنه حاسما.

ولقد فعلت الأمراض فعلها في الجانب الإنجليزي أيضا ويقول مونوكس: (انه بعد أن أنجزنا مهمتنا بدأت متاعبنا التي كان يزيدها سوءا شدة الحرارة التي لا تحتمل، ثم بسبب تصرف رجالنا وإدمانهم على الخمر وغيرها من المخالفات لدرجة أن ثلاثة أرباع رجالنا مرضوا ومات عدد كبير منهم حتى أننا خشينا أن يكون مرض الطاعون قد انتشر. لكل تلك الأسباب غادر أسطولنا هرمز عائدا إلى سوراث في يوم أول سبتمبر سنة 1622).

وإذا نظرنا إلى المسألة من كافة جوانبها فانه يكون من الصعب أن نكشف عن الفوائد التي جناها الإنجليز من تلك العملية، فقد أعادوا هرمز إلى أصحابها الذين اعترضوا حتى على مشاركة الإنجليز لهم في احتلال هرمز، بينما لم تعط حصيلة بيع الغنائم التي تم الاستيلاء عليها

حتى النفقات الفعلية للعملية. ومن ناحية أخرى فان الإنجليز قد نجحوا وبشكل منقطع النظير في خلق أعداء ألداء لهم هم البرتغاليون. وقد تحدث ريتشارد بوثبي وهو أحد التجار الإنجليز عن تلك العملية والقي باللوم على الذين سمحوا للفرس باحتلال ذلك الموقع الهام دون عرض الموضوع أولا على الحكومة البريطانية، ويضيف بوثبي بأن الحركة التجارية في هرمز في تلك الأيام كانت أعظم من الحركة التجارية في لندن وامستردام حتى في عز ذروتها. وقد تحدث عن المرارة والكراهية التي كان يشعر بها البرتغاليون تجاه الإنجليز بسبب اشتراكهم مع الفرس في انتزاع هرمز من أيديهم.

غير أن مؤرخي القرن العشرين لا يوافقون بوثبي على رأيه، صحيح أن اشتراك الإنجليز في الهجوم على هرمز لم يكن له مبررات دبلوماسية واضحة لأن إنجلترا وأسبانيا كانتا على علاقات طيبة عندما عقدت الاتفاقية مع الفرس. وقد احتج العرش الأسباني على العملية وكان من المحتمل ألا توافق الحكومة على إجراءات الشركة، وقد تعتبر الشركة قراصنة لا تجاراً، وعلى أية حال فان الشركة كانت مصممة على الدفاع عن سلامة موقفها، كما أن مونوكس الوكيل الرسمي للشركة (الذي كان في تلك الأثناء قد عاد إلى إنجلترا) قد قدم أسبابا عديدة لتبرير الأجراء وعلى الأخص التفويض الذي حصلت عليه الشركة من صاحب الجلالة ملك إنجلترا بوجوب الدفاع عن مصالح الشركة ضد الاعتداءات البرتغالية في الخليج، كما أنه أوضح أيضا التزامات الشاه تجاه الشركة الذي كان قد هدد بحظر التجارة على الإنجليز في فارس إذا ما رفضوا الاشتراك في العملية.

وفي النهاية فقد تقرر عدم تقديم اعتذار لملك الأسبان، غير أن الشركة قد اضطرت إلى إرضاء الملك جيمس بتقديم هدية له تبلغ عشرة آلاف جنيه إسترليني، ودفع مبلغ مماثل إلى ديوك باكنجهام القائد العام،

كما أعطيت منحة رسمية في شكل سلع ومواد كان موظفو الشركة قد استولوا عليها في الهند الشرقية مع إصدار عفو عام عن جميع الذين اشتركوا في تلك العمليات.

ان السيطرة البرتغالية على الخليج وإن كانت لم تتحطم كلية، إلا أنها قد ضعفت بسقوط هرمز. كما أن الإنجليز من ناحية أخرى قد وجدوا في هرمز ميناء حرا أفضل من جاشك. وعلى الرغم من أن شاه عباس قد تجاهل الكثير من بنود الاتفاق الخاص بمساعدة الإنجليز في احتلال هرمز، إلا أنه بصورة عامة ظل متمسكا بالمرسوم الذي منحه لكونوك في عام 1617 والذي يخول للإنجليز شراء أي كمية من الحرير الفارسي قد يحتاجونها وفي أي منطقة من فارس ونقل تلك السلع إلى أصفهان دون دفع أي رسوم جمركية.

كان الفرس مهتمين بأن يتبعوا بنجاحهم في احتلال هرمز بنجاح آخر وهو احتلال مسقط التي كانت تعتبر آخر المعاقل البرتغالية القوية. غير أن الإنجليز امتنعوا عن تقديم المساعدة لهم، نظرا لأن موقف حكومتهم من الأجراء السابق قد حد من حماسهم.

وعلى أية حال فقد استطاع الفرس احتلال صحار وخور فكان على الساحل العماني، غير أن القائد البرتغالي روي فرير تمكن من الهرب من الاعتقال، بالإضافة إلى امتناع الإنجليز عن مساعدة الفرس سمح للبرتغاليين من استئناف عملياتهم ضد الفرس وتمكنوا من طردهم من صحار وخورفكان وقاموا بتدمير بعض المناطق على الساحل الفارسي فيما بين جاشك وجمبرون، كما أخذوا في اعتراض السفن الفارسية في مياه الخليج، وأخيرا حاولوا قطع المؤن عن هرمز، إلا أنه على أية حال كانت القوات التي تحت تصرف روي فرير أضعف من أن تتمكن من فرض حصار طويل على هرمز أو شن هجوم مباشر عليها.

أن مدينة هرمز التي ذاع صيتها في يوم من الأيام قد جردها البرتغاليون من كل مميزاتها وأمجادها وكمدينتي طيره وبابل تحولت في سنوات معدودة إلى خرائب وأنقاض. أجل ان تلك الجزيرة الصغيرة كان ازدهارها وثراؤها مضرب الأمثال والتي كانت تتفاخر بكثافة سكانها الذين بلغوا 40 ألف نسمة وكانت أكبر سوق لتجارة الشرق الجميل قد غدت الآن مكانا مقفرا لا يزيد سكانه على 200 نسمة يعيشون بالكاد على بيع محصول الملح الذي يشكل المادة الرئيسية للتجارة ومن استخراج الأوكسيد الأحمر الذي يصدر إلى أوربا.

واصل البرتغاليون احتلالهم لهرمز بحامية صغيرة إلى أن تم طردهم منها بأسطول مشترك من الإنجليز والهولنديين سنة 1625. منذ ذلك الوقت ازدادت سرعة تدهور المدينة. وفي وثيقة لشركة الهند الشرقية نجد ما يلي:

«بالنسبة لهرمز فانه يبدو أن الفرس لا يميلون إلى استيطانها من جديد ولكن الملك ينوي أن يجعل من جمبرون الميناء الرئيسي بعد أن أمر بهدم كل المنازل وأصدر أوامر بعدم البقاء على حجر واحد وهو لايزال يسيطر على قلعة هرمز بنحو 300 جندي، وكان البرتغاليون يحاصرونها بعشرين فرقاطة كما أحرقوا كل السفن التي كانت راسية في الميناء تقريبا بحيث لم يعد المكان صالحا لممارسة الأعمال التجارية».

أما السير توماس هربرت الذي زار هرمز في نحو عام 1627 أي بعد خمس سنوات من احتلالها ويعتبر شاهد عيان على تدهورها فيقول:

«على طرف الجزيرة تلوح أنقاض تلك المدينة الزاهرة التي شيدها البرتغاليون وهي تخضع لملك مستبد، وكانت من قبل توازي مدينة اكستر في مساحتها وحجمها، ومبانيها واسعة وجميلة وتضم بعض الأديرة وسوقا كبيرة، ان هذه المدينة الفقيرة قد جردت الآن من كل جمالها

وازدهارها، فالفرس في كل شهر يقتلعون الأحجار وينقلونها إلى جمبرون التي أخذت هي الأخرى تبرز من بين الأنقاض وهي لاتبعد عن هرمز بأكثر من ثلاثة فراسخ. وخلاصة القول ان هذا المكان المتواضع لم يعد يستحق أن يمتلكه أحد، وكان قبل عشر سنوات الدولة الوحيدة في الشرق، إذا كان يتعين علينا أن نصدق ذلك».

ان شاه عباس الذي كان سعيد جدا بالنصر الذي حققه في هرمز وضع خططا بارعة لإنشاء ميناء بحري عظيم داخل بلده، وقد اختار لذلك القرية السابقة المهجورة جمبرون لإنشاء ذلك الميناء وأطلق اسمه عليه بحيث سمي بندر عباس وهو المكان الذي كان مقدرا له بأن يلعب دورا بارزا في تاريخ الخليج، وقد تم تحويل تجارة وسكان الميناء القديم إلى هذا الميناء الجديد، وقد سمح لشركة الهند الشرقية باحتلال مبنيين في جمبرون، ولكن لم يسمح لها ببناء مساكن خاصة لهم خوفا من أن يحولوها إلى قلعة.

على أن الإنجليز قد وجدوا في جمبرون ميناءاً يتيح لهم نقل منتجاتهم إلى فارس بطريقة أسهل من ميناء جاشك، وإن لم يكن أقرب المناطق التي ترتبط بالعاصمة. وعلى امتداد قرن ونصف ظلت بندر عباس مركز الثقل الرئيسي لشركة الهند الشرقية على سواحل الخليج.

الفصل السابع

الهولنديون في الخليج

الهولنديون في الخليج

«ذلكم هو النجاح الذي حققوا عن طريقه كل شيء، كان يبدو كما لو أن الدنيا قد اختارتهم ليكونوا سادة هذا العالم كما لم يكن يبدو أنهم قد ذهبوا كرجال حرب، وإنما كمشرعين للنظم والقوانين، فمن كان يظن أن أركان الكرة الأرضية سوف تهتز كلها لعدد قليل من الرجال الأبطال، كما لو كانت تقودهم أقدار سعيدة لا مجرد قواد بواسل: انهم لم ينزلوا قط من عليائهم، ثم ألم يكن قصر نظرهم وخلافاتهم هي السبب في سقوطهم حتى أن العناية الإلهية التي رفعت من شأنهم، لم تعد تصغي إليهم. ان هذا يضطرني إلى ان أروي بعض أشياء كانت في نظري أهم من كل شيء يمس شرف بلادي، كان يجب أن يظل في طي الكتمان». فاربا سوزا في (آسيا البرتغالية)

إن ما بقى من تاريخ البرتغاليين في الخليج فسوف نأتي على ذكره. فبعد إخراجهم من هرمز بطريقة غير شرعية قام بها نفر من الرجال الشجعان لأحد الأساطيل التجارية البريطانية تصادف وجودها في المنطقة وتمخضت عن تدمير كامل لنفوذ البرتغاليين في الخليج، كما قد تعتبر أول خطوة في طريق القضاء على إمبراطوريتهم الواسعة في الهند الشرقية. ويقول البكويرك ان ثمة ثلاث مناطق في الهند تشكل سوقا هامة للسلع في هذا الجزء من العالم، كما أنها المفاتيح الكبرى لتلك الأسواق .. وهي المنطقة الواقعة عند منفذ مضيق سنغافورة .. أما الثانية فهي عدن مدخل ومخرج مضيق البحر الأحمر، أما الثالثة فهي هرمز وهذه الأخيرة في نظري أهمها جميعا. فلو استطاع ملك البرتغال السيطرة على عدن وبناء حامية فيها كتلك التي توجد في هرمز وملقا وتتحكم تماما في هذه المضايق الثلاثة كما أوضحت، فانه سوف يلقب بسيد العالم كله تماما كالاسكندر بعد أن عبر الجانجز، إذ بهذه المفاتيح الثلاثة يمكنه أن يغلق الأبواب كلها أمام كل القادمين، وغير أن الفرصة للسيطرة على هذه المضايق أو التحكم في إحداها على الأقل قد فقدت في الحقيقة بشكل نهائي.

لكي يعوض البرتغاليون خسارتهم اتخذوا من مسقط على الجانب الآخر مسرحا لعملياتهم حيث شيدوا حاميات بالغة المناعة ولتكون مركزا لنشاطاتهم في الخليج سواء من حيث التجارة أو التعبئة البشرية. وبما أن حاميات مسقط لم تكن حاميات ملاحية كهرمز، فقد كانت معرضة للضرب من الخلف، أي من شعب عمان الثائر، وقد أثبتت تلك الحاميات بأنها مصدر كبير للخطر، كما احتفظ البرتغاليون بسيطرتهم على البصرة وان كان بطريقة سلمية.

ويحدثنا فاريا سوزا «انه بعد أن فقد البرتغاليون هرمز، ركزوا نشاطاتهم التجارية في هذه المدينة وأنشئوا مركز للتعليم والثقافة، وحتى

عام 1610 على الأقل كانوا ينافسون الإنجليز بشكل خطير، كما قام البرتغاليون بمحاولة فاشلة لاسترداد هرمز في سنة 1625، وفي نفس العام أقاموا مركزا تجاريا وقلعة في كنج على ساحل فارس، وبقوا هناك على امتداد الفترة التي استطاعوا فيها إرغام السفن بالرسو فيها، وحققوا قدرا كبيرا من الازدهار التجاري وفي سنة 1630 قام نائب الملك البرتغالي في جوا بعد تلقيه تعزيزات من تسع سفن وألفي مقاتل بمحاولة جديدة لإعادة احتلال هرمز، غير أن المحاولة باءت بفشل ذريع.

وبمضي الوقت أخذ البرتغاليون يشعرون بوطأة فقدانهم نقطة ارتكازهم الرئيسية في الخليج. وفي سنة 1631 أرسل ملك أسبانيا تعليمات إلى نائبه بأنه لا بد له من أن يصل إلى تفاهم مع حاكم هرمز حتى لو أدى الأمر إلى تقديم الرشوة إليه، وذلك بهدف إعادة احتلال ذلك المركز لصالح ملك البرتغال.

وفي هذا الإطار تم إيفاد فالديز للاجتماع بروي فرير قائد حامية مسقط، غير أن المبعوث فشل في مهمته واضطر البرتغاليون إلى الاكتفاء بإقامة قلعة في جلفار (رأس الخيمة) على الساحل العربي وتبعد نحو 50 فرسخا عن مسقط.

وقرابة عام 1640 بدأت المتاعب تنهال على البرتغاليين في الخليج، فقد أبلغ بعض موظفي الجمرك في مسقط إمام عمان بأن القلعة البرتغالية في مسقط خالية من وسائل الدفاع لغياب أفراد عنها في مهمة بحرية. ونتيجة لذلك قام الأمام بشن هجوم على القلعة إلا أنه رد على أعقابه متكبدا خسائر فادحة، على أن ذلك الوضع كان فاتحة لسلسلة من الهجمات الخطيرة.

وفي عام 1643 استولى الأمام على صحار التي كانت في يد البرتغاليين لفترة امتدت عشرين عاما. غير أن الضربة النهائية لهيبة البرتغاليين قد جاءت على أية حال في سنة 1648 ـ 1649 عندما تحركت قوة كبيرة من العمانيين بقيادة الحاكم اليعربي وضربت حصار

على مسقط استمر شهرين وانتهى باستسلامها، وقد تحقق الاستسلام للبرتغاليين بشروط صعبة هي كما يلي:

«يقوم البرتغاليون بهدم القلاع في قريات وصور ومطرح وبالمثل يقوم الأمام بهدم القلعة العمانية في مطرح على أن تبقى مطرح حرة لا تخضع لأي من الجانبين، وأن يكون الطرفان حرين في نقل معداتهم وأدواتهم، وأن تتمتع السفن العربية بحرية الملاحة في رحلاتها إلى الخارج، أما في رحلاتها إلى الداخل فيتعين عليها أن تحمل تصاريح برتغالية، وبأن لا يدفع رعايا الأمام أية رسوم سواء عن أشخاصهم أو عما يشترون من سلع عند مغادرتهم مسقط. وأن تكون التجارة حرة حرية كاملة وبغير قيود على الإطلاق ،وبأن يرفع العمانيون العوائق التي أقاموها خلال حصارهم لمسقط، كما لا يسمح للبرتغاليين بإقامة أية مبان في المواقع التي أرسلت فيها حامياتهم».

ان هذه الشروط التي فرضت على دوم جوليودي نورونها القائد العام لحامية مسقط تؤكد بوضوح على عوامل الدمار للمستوطنات البرتغالية في عمان وانهيار سيطرتهم فيها.

غير أنه لم يكن أمام البرتغاليين من معنى لقبول الشروط. أما عن النهاية التامة للبرتغاليين فلم تأت بعد. ففي أواخر عام 1649 تعرضت مسقط للحصار من جديد، ونظرا لانعدام الرقابة على الجانب البرتغالي فقد تمكن العمانيون من التسلل ليلا إلى الداخل واستولوا على أحد المراكز البرتغالية وعلى أحد الحصون. وتحت الضغط الشديد اضطر القائد البرتغالي إلى التراجع إلى الحامية وبما أن ذلك قد فصله عن بقية القوات وعن مخازن الذخيرة والسلاح فقد استسلم في يوم 23 يناير سنة 1650.

أما النجدة البحرية التي أرسلها نائب الملك في جوا فقد وصلت

بعد فوات الأوان. وهكذا جلا البرتغاليون عن عمان وفقدوا سيطرتهم كلها على السواحل العربية. ومن منطلق ذلك الانتصار الذي حققه الأمام سلطان بن سيف، بدأت حركة جهاد شاملة ونقل المعركة إلى داخل معسكرات الخصم وقواعده، فهاجم ديو وغيرها من المواقع البرتغالية واستولى على كميات خرافية من الغنائم.

ان ضياع مسقط من يد البرتغاليين قد حرمهم من آخر معقل لهم في الخليج. لقد أرسل نائب الملك أسطولا من السفن إلى الخليج في عمان 1652 وعند اقترابه من مسقط التقى بأسطول عربي كان يتحصن تحت مدافع قلعة مسقط. ويعتقد البعض انه كان في وسع البرتغاليين تدمير السفن العربية بسهولة، بل واستعادة المدينة، غير أن قائد الأسطول تردد، على ما يبدو، في المغامرة بأسطوله، وهكذا ضيع فرصة نادرة لإعادة النفوذ البرتغالي إلى مسقط وأصبح المعقل الوحيد الذي بقي للبرتغاليين في الخليج كما أشرت آنفا هو ميناء كنج لكن حتى هذا الميناء قد ضاع من أيديهم في النهاية، كما أن نفوذهم على ممتلكاتهم في الهند وفي الشرق عموما بدا يضعف هو الآخر في وجه المنافسة الشديدة من الإنجليز والهولنديين لأن وسائل هؤلاء كانت تختلف عن وسائل البرتغاليين من جهة وبسبب تصاعد العداء والمقاومة من جانب السكان العرب وشعوب الهند من جهة أخرى.

ان تدهور النفوذ البرتغالي في الشرق يمكن أن يعزي إلى أسباب كثيرة ولكنه يعود أساسا إلى عجز منهم وسوء فهمهم في التعامل مع الشعوب الشرقية التي احتكوا بها، وإلى خلافاتهم الداخلية. أما عن نشاطاتهم التجارية التي لم يكونوا يحسنون ممارستها فإنها لم تصمد أمام منافسة التجار الإنجليز والهولنديين الذين كانوا يعملون في إطار شركات تجارية منتظمة .. فقد اعتمد نفوذ البرتغاليين على القوة العسكرية وحدها، وقد تحطمت هذه القوة في نهاية الأمر بحكم افتقارها إلى

النظام والزعامة الحقيقية. ومن ناحية أخرى فقد كان صعود نجم الشركات الهولندية والإنجليزية يمثل انتصارا لنظام فردي على نظام احتكاري تمارسه دولة.

أما عن مستوى النظام في الأسطول البرتغالي وأساليب البرتغاليين التعسفية في البحر، فقد القي عليها الضوء دلافالى الرحالة الإيطالي الذي بالرغم من ميوله الكاثوليكية الواضحة لم يسعه إلا أن يقارن ما رآه على السفن البرتغالية بالأوضاع التي كانت تسود السفن الإنجليزية وله هذه الملاحظة:

«في 31 يناير سنة 1627 بينما كنا نبحر (من مسقط) شعرنا بريح خفيفة، وشاهدنا سفينة من على بعد، وبعد أن رأتنا أطلقت مدفعا كإشارة لنا لكي نتوقف حتى تقترب منا، فعرفنا عندئذ أنها إحدى سفن روي فرير، ومن عادة السفن البرتغالية أن تفعل هذا، وبموجب ذلك فانه يتعين على السفن التجارية تقوم بإغراقها، وعليه فقد توقفنا حتى اقتربت منا. عندئذ لاحظت عدم الانضباط العسكري في السفينة البرتغالية وافتقار البرتغاليين إلى النظام في إدارتهم. وقد طلبت منا تلك السفينة ماء وبحارة فقد كان من عادة السفن الحربية البرتغالية ان تأخذ من السفن التجارية التي تلتقي بها كل ما تريده سواء طوعا أو كرها رغم أن هذا تصرف سيئ ويؤدي إلى عواقب وخيمة. وقد أعطيناهم برميلين من الماء ولكن لم نعطهم بحارة لقلة البحارة لدينا».

وقد تحدث مؤرخوهم كثيرا عن الدمار الذي أوقعوه بالهند في معرض تعليقهم على انهيار النفوذ البرتغالي، ولم يتردد هؤلاء الكتاب من تأنيب البرتغاليين على الأساليب التي استخدموها ويذكر فاريا سوزا في معرض حديثه عن مشروعات البرتغاليين فيقول:

«البرتغاليون يسعون إلى جمع الثروة دون أن يؤمنوا الوسائل الكفيلة

بحمايتها. ان تدهور أحوالنا ينبعث من الاستهتار بالأشياء الهامة طمعا في الأمور التافهة وان تشبث البرتغاليين بالأمور التافهة جعلهم ينسون بلادهم وكرامتهم .. ان البرتغاليين يستطيعون استرداد ما فقدوه لو عرفوا الاحتفاظ بما حققوه والذي يشكل جانبا مجيدا في تاريخهم».

بهذه الأحكام القاطعة التي لا يسع القارئ إلا أن يقارنها بالعصر الذي يعيش فيه يمكننا أن نخرج باستنتاجاتنا عن المغامرات البرتغالية الفاجعة، والآن لنتلفت إلى ما حدث من تطورات فيما بعد.

قدوم الهولنديين:

ان اختفاء البرتغاليين من ميدان الصراع لم يعف الإنجليز من النزاع السياسي والتجاري في الخليج. فقد كان عليهم أن يواجهوا العداء الخطير، تجاريا وسياسيا من الهولنديين.

ويعود الفضل في اشتراك الهولنديين في تجارة الهند الشرقية إلى المعلومات التي أدلى بها في أواخر القرن السادس عشر جان هوجين فان لنشوتن نجل أحد المواطنين من هارلم لأن للهولنديين تجارة غير مباشرة مع الهند والشرق لفترة من الزمن تسبق عام 1595 عندما كان الهولنديون خاضعين لملك أسبانيا، وقد قام فيليب الثاني بمحاولة للقضاء على التجارة الهولندية باتخاذ إجراءات صارمة لوقف كافة أنواع التبادل التجاري بين البلدين وعن طريق الاستيلاء عنوة على السفن الهولندية في المياه الأسبانية.

وكان من السياسة الأسبانية الواضحة أن تمنع حركة التبادل التجاري بين الهولنديين والمستعمرات البرتغالية في الشرق. ولكن بدلا من أن يؤثر ذلك الخطر على روح المغامرة في الهولنديين الذين كانوا على علم بالأرباح التي حققها البرتغاليون من تجارة التوابل فعقدوا تلك الرغبة في القيام باتصالات مباشرة مع الشرق.

توجه لنشوتن إلى الهند سنة 1583 ضمن حاشية بطريرك جوا وأقام فيها نحو 13 سنة. واستطاع أن يجمع معلومات واسعة عن تلك المحاصيل التي كانت تشكل مصدرا عظيما لتجارة ووسائل النقل. وبعد عودته سنة 1592 نشر نتائج أبحاثه ووضع لوحة عملية للملاحين كما رسم خطوط الملاحة من لشبونه إلى الشرق، وحدد التيارات البحرية والرياح التجارية والموانئ والجزر والشعب للمحيط الهندي كما أضاف خرائط لتلك المواقع.

بعد عودة لنشوتن مباشرة أوفد تجار أمستردام كورينليس هوتمان الذي سبق له أن قام بعدة رحلات إلى الهند في السفن البرتغالية إلى لشبونه لإجراء المزيد من التحريات عن تجارة الهند الشرقية.

وبعد عودته إلى هولندا سنة 1594 عرض بأن يسير أسطولا عن طريق الرأس لتعريف أبناء بلده على تجارة الهند. وقد قام التجار بتوفير المال اللازم للرحلة وأرسلوا في عام 1598 أسطولا من أربع سفن إلى البلاد الواقعة على الجانب الآخر من رأس الرجاء الصالح بقيادة هوتمان.

وقد عاد هوتمان سنة 1597 بعد أن فقد ثلثي تجارته وإحدى سفنه التي اضطر إلى حرقها دون أن يحقق شيئا يذكر في ميدان التجارة. غير أنه عاد باتفاق عقده مع ملك بنتام وافق بمقتضاه على فتح الهند الشرقية للملاحة مع هولندا. كما جهز الهولنديون أساطيل أخرى كبيرة. وفيما بين 1598 و 1601 عبر طريق الرجاء ما لا يقل عن 15 أسطولا من تلك الأساطيل. وبتلك الجهود لم يحقق الهولنديون نصيبا في التجارة فحسب وإنما استولوا في النهاية على عدد من المستعمرات البرتغالية في الهند (وهكذا فخلال الوحدة مع البرتغال سنة 1560 ـ 1580 أصبح الهولنديون منافسين أقوياء للبرتغاليين والإنجليز ثم أخير تمكنوا من

القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند).

لقد أدى نجاح هوتمان إلى إنشاء العديد من المؤسسات التجارية في هولندا والتي أدمجت في سنة 1598 في (الجمعية التجارية للأقطار البعيدگ). ومنذ ذلك التاريخ تقريبا ساد نشاط الشركة الهولندية جنبا إلى جنب مع نشاط التجار الإنجليز. وفي عام 1602 رأت الدولة الهولندية أن تدمج مؤسساتها التجارية العديدة المتنافسة في شركة واحدة كبرى وذلك بموجب مرسوم ملكي صادر لتأسيس (شركة الهند الشرقية الهولندية) ومنحها امتيازات خاصة لمدة 20 عاما. وتحولت تلك الشركة إلى ركيزة قومية، وقبل مرور سنوات كثيرة ترسخت مقومات التجارة بين هولندا والشرق على الرغم من أنه لم تظهر حتى ذلك الوقت أية سفينة هولندية في مياه الخليج.

في سنة 1599 بعد أن نجح الهولنديون في توطيد أقدامهم في تجارة الشرق الأقصى رفعوا أسعار الفلفل من ثلاث شلنات للرطل إلى ستة شلنات، ثم فيما بعد إلى ثمان شلنات للرطل وذلك نكاية في الإنجليز. وقد جاءت هذه العملية في أعقاب الحوافز التجارية التي برزت نتيجة لنشر أبحاث كل من رالف فتش ولنشوتن في إنجلترا والتي رغم ضآلتها كانت أبحاثا هامة نظرا لأن صدورها هو الذي شجع تجار لندن إلى اتخاذ إجراءات الحماية وأدى إلى تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

وقبل مضي وقت طويل ظهر تناقض في المصالح بين الشركتين الإنجليزية والهولندية. فقد نشأ صراع بينهما حول تجارة التوابل والفلفل، فقد كان الهولنديون في بداية أيامهم يسعون ـ قدر استطاعتهم ـ إلى احتكار التجارة كلها بما في ذلك السلع الهامة، وإذا كان يمكننا أن نعول على إحصائيات الأرباح الناتجة عن استيراد تلك السلع إلى أوربا

فأنها كانت تشكل بالفعل أهم شحنات التجارة الشرقية، وكان البرتغاليون سابقا هم خصوم الهولنديين ومنافسوهم في هذه التجارة، والآن جاء الدور على الإنجليز.

ان تتبع تفاصيل تطور الفتوحات الهولندية في الهند والهند الشرقية لا يدخل ضمن هذا البحث الذي سيقتصر على تناول نشاطاتهم السياسية والاقتصادية في الخليج باعتبارها انعكاسا للنشاطات الأخرى ،الأمر الذي ألقى بالهولنديين في معمعة الصراع مع البرتغاليين أولا ثم مع الإنجليز ثانيا واللذين كانا بدورهما خصمين أحدهما للآخر.

وعلى أية حال فانه من المهم للذين يدرسون القضايا العالمية في سنة 1927 أن يتعرفوا على عملية التزاوج والاندماج اللذين شهدتهما الفترة الواقعة قبل ثلاثة قرون من هذا التاريخ بين الشركات التجارية الصغيرة وتحولها إلى مجموعات تجارية كبيرة ثم تحولت أخيرا وبمساندة دولها إلى مؤسسات احتكارية شاملة أدت إلى تعقيدات دولية وحروب سافرة.

نعود الآن إلى الشئون ذات الطابع المحلي الأكثر. وهكذا فإن مركز المصالح قد انتقل من هرمز (بعد أن فقدها البرتغاليون ودمرها الفرس) إلى بندر عباس. وسنتذكر بأن أصحاب شركة الهند الشرقية قد أنشئوا مركزا لهم في بندر عباس في سنة 1629، وفي بندر عباس أيضا ظهر الهولنديون مباشرة بعد ذلك مما سبب قلقا لوكلاء الشركة. غير أن مجيء الهولنديين إلى الخليج لا بد وأن يرتبط بتلك المساعدة التي قدموها للإنجليز في دحر الأسطول البرتغالي في عدة معارك جرت على مرأى من ساحل بندر عباس. ثم بعد ذلك كرسوا جهودهم لانتزاع امتياز من الشاه بمنحهم حصة في تجارة الحرير. وكان في ذلك الوقت الشاه مشغولا في حربه للدفاع عن بغداد التي كان الأتراك يحاصرونها.

غير أن الامتيازات التي حصلوا عليها سببت قلقا حقيقيا للشركة الإنجليزية التي كانت تدرك خطورة الصراع الهولندي في الشرق وأساليب الهولنديين الخبيثة والتي أدت إلى مذبحة أمبونيا سنة 1623. ويقول الرئيس فرسلاند في رسالة إلى شركة الهند الشرقية «بأن الهولنديين يرمون إلى إغلاق كافة المناطق والأقطار التي كان يتعامل معها الإنجليز ويحاولون أن يجعلونا مكروهين في نظر العالم مثلهم».

لقد تحول الهولنديون إلى قساة ودمويين واقترفوا أخيرا أعمالا وحشية بقتل كل من يصادفونه من الناس صديقا كان أو عدوا الأمر الذي لا يرضي عنه الله ولا الناس وإني أرجو من سيادتكم أن تقطعوا كل علاقة لكم بهؤلاء المتوحشين. كما ذكر السير توماس روي في رسالة إلى شركة الهند الشرقية في سنة 1617 عن الهولنديين أنهم مجرمون ويتصرفون بصلف وعجرفة، وفي رسالة أخرى في سنة 1624 قال روي «بأنه قد جربهم شرقا وغربا ويعرف حق المعرفة همجيتهم وغرورهم».

وعلى أية حال فقد تعاون الهولنديون مع الإنجليز في سنة 1625 عندما اشتبكوا مع الأسطول البرتغالي بقيادة الفيرو بوتيلكو في معركة بحرية والتي كانت آخر محاولة للبرتغال لاسترداد هرمز، وقد أصيبت السفن البرتغالية بأضرار فادحة، غير أن الإنجليز والهولنديين لم يتمكنوا من ملاحقتهم عند انسحابهم، وبالرغم من أن الهولنديين قد تعاونوا مع الإنجليز في تلك العملية إلا أن نواياهم على أية حال كانت موضع شك من جانب موظفي الشركة فكانوا يتهمونهم بالتآمر مع الفرس للاستيلاء على هرمز التي أصبحت مدينة مهجورة، وكانت شكوكهم في محلها كما برهنت الأحداث فيما بعد.

وفي سنة 1625 كانت التجارة الإنجليزية مع فارس في أدنى مستواها حتى أن توماس كاوندج الوكيل الأول في أصفهان قرر إغلاق

المركز هناك، إلا أنه بعد أن تشاور مع الوكلاء الآخرين في بندر عباس قرر استئناف النشاط التجاري حتى يحدث ما يقضي بخلاف ذلك، ولم يكن ذلك مرتبطا بالامتيازات التي تم الحصول عليها ولكن لأن «الهولنديين قد تطفلوا علينا وحاولوا تشويه موقفنا من التزامات الشركة». ومن ثم فان زوال البرتغاليين من الساحة لم يعف البريطانيين بأية حال من المتاعب التجارية والسياسية، وإنما على العكس، إذ أنه مع استمرار تدهور النفوذ البرتغالي تصاعد النفوذ الهولندي، وبمضي الوقت أصبح ذلك النفوذ يشكل خطرا أكبر على الإنجليز.

بعد استقرار الهولنديين في بندر عباس رفضوا دفع الرسوم الجمركية. وقد ترك ذلك الأجراء تأثيرا مباشرا على الإنجليز لأنهم قد حصلوا على تفويض من الشاه بجمع الرسوم الجمركية من ذلك الميناء، وقد تمسك الهولنديون بموقفهم، الأمر الذي أصبح مصدر شقاق مستمر بين الطرفين طوال الفترة التي يتناولها هذا الكتاب.

بحلول عام 1627 كان موقف الشركة البريطانية في فارس دقيقا فلقد كان الشاه يخوض حربا للدفاع عن بغداد ضد هجوم الأتراك بحيث أصبحت شئون فارس في حالة من الاضطراب والفوضى ولقد استغل الهولنديون تلك الأوضاع للحصول على امتياز يسمح لهم بحصة في تجارة الحرير بشروط أفضل بكثير من الشروط التي منحت للإنجليز. وفي الوقت نفسه كان الهولنديون في أقصى الشرق مستمرين في اتخاذ الإجراءات لتدمير تجارة شركة الهند الشرقية في جاوا وسومطرة وحرمانهم من تجارة الصين وسيام.

وفي سنة 1629 توفي شاه عباس وبموته فقد الإنجليز صديقا ونصيرا قويا .. وفي فارس تصبح جميع الاتفاقات والمعاهدات ملغاة عند موت الحاكم ما لم يثبتها خلفه، وبما أن ذلك قد استغرق بعض الوقت

فقد عانت التجارة الإنجليزية كثيرا من ذلك الوضع. أما الهولنديون فقد عمدوا إلى تقديم الرشاوي وعرض أسعار عالية من السلع الفارسية، وخلاصة القول انهم بذلوا جهودا مستميتة لتجريد الإنجليز من المركز الذي حققوه بكثير من الجهد والمعاناة في الخليج.

وقد كان وكلاء الشركة البريطانية مترددين في إثارة موضوع عقد اتفاق جديد مع الشاه الجديد خوفا من منافسة الهولنديين لهم. وعلى الرغم من أنه أمكن أخيرا الحصول على مرسوم من الشاه الجديد إلا أن الامتيازات الخاصة بالشركة لم يتم تجديدها أو تثبيتها قبل عام 1632، كما أن ذلك لم يتحقق إلا بالتعهد بتقديم هدايا سنوية من المنسوجات الفاخرة وأدوات المائدة وغيرها للشاه ومعاونيه الكبار بما قيمته تزيد على ألف جنيه إسترليني.

في هذه الأثناء تمكن الهولنديون من تثبيت أقدامهم فانشئوا لهم مركزا تجاريا في بندر عباس وأصبحت تجارة التوابل كلها في أيديهم، كما حصلوا على إعفاء من دفع رسوم الاستيراد. وفي سنة 1638 كتب منديسلو يقول بأن الهولنديين انفردوا بالاستقرار، وهم يزودون فارس بكل احتياجاتها من الفلفل والصمغ والقرنفل وغيرها من المنتجات. أما الإنجليز فانهم يبيعون أو يقايضون سلعهم من الأقمشة والحرائر والقطن والحديد التي يجلبونها من الهند الشرقية.

وهكذا يبدو أن الهولنديين قد حققوا بحلول سنة 1639 ـ 1640 تفوقا واضحا في الخليج. فالسفن والبضائع الهولندية كانت السائدة في بندر عباس، وفي سنة 1641 من خلال جهودهم لاحتكار تجارة الصادرات الفارسية كانوا يبيعون المنتجات الأوربية بأسعار تقل عن تكاليفها، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان البرتغاليون يبذلون جهودا مضنية لإحياء تجارتهم ونفوذهم في الخليج.

في عام 1639 ـ 1640 أرسلت شركة الهند الشرقية إحدى سفنها في رحلة اختباريه للبحث عن ميناء غير خاضع لفارس إذا أمكن لمحاولة الرد على نشاط الهولنديين التجاري. وقد حصل الوكلاء على تصريح من باشا الأتراك لتفريغ سلعهم في البصرة بشروط ملائمة تقريبا، غير أن نتائج تلك العملية التجارية لم تكن مشجعة، واتضح بأنه لكي تنتج فلا بد من إقامة مركز تجاري في ذلك الميناء.

وقد تم فتح ذلك المركز في سنة 1643. وكان الهولنديون مصممين على إحراز تفوق في النفوذ على غيرهم بأية وسيلة ممكنة. وحتى ذلك الوقت فانهم قد حصلوا على نصيبهم في تجارة فارس عن طريق تقديم الرشاوى والهدايا للمسؤولين كما قلنا سابقا ولكنهم في سنة 1645 ـ 1646 عمدوا إلى استخدام القوة، وهو نفس الأسلوب الذي اقترحته الشركة الإنجليزية لحمل المسؤولين على منحهم حقوقا استثنائية في تجارة البلاد.

فبالإضافة إلى الأسطول الكبير الذي أحضره الهولنديون إلى الخليج في خريف سنة 1645 فقد أرسلوا قوة عسكرية للهجوم على قلعة قشم ـ قد أدى ذلك الأجراء ـ إلى بث الخوف في قلب الشاه وأرغمه على طلب هدنة من الكومودور بلوك القائد الهولندي وعرض اتفاقا للسلام عن طريق منح الهولنديين امتيازات تجارية أفضل.

وقد سمح للكومودور بلوك بالتوجه إلى أصفهان حيث استقبله الشاه وتم التصديق على شروط السلام وتوقفت العمليات العسكرية بين الفرس والهولنديين الذين حصلوا على تصريح بشراء الحرير من أية منطقة في فارس، وتصديرها معفاة من الرسوم الجمركية. وهذا التغيير لم يؤثر عكسيا على التجارة الإنجليزية في فارس فحسب وإنما أثر على التجارة الأخرى التي كانت إنجلترا تعتبرها من شئونها بين ساحل كورا ماندل وفارس والتي استولى عليها الفرس.

وقد تدهورت أوضاع المركز التجاري البريطاني في بندر عباس بسبب تلك الأحداث رغم أن الوكلاء فيها ظلوا متمسكين بمناصفة دخل الجمارك مع الفرس. ولكي يتفادى الوكلاء انعكاس النزاع بين الفرس والهولنديين عليهم فقد وجدوا أنه من الضروري شحن ممتلكات الشركة في بندر عباس وإرسالها إلى البصرة حيث يتوفر لها أمن أكثر، وقد وصلت تلك الممتلكات في شهر يونيو سنة 1645.

وقد تشجع الهولنديون بفضل نجاح السياسة التي انتهجوها ضد الفرس في قشم وأخذوا يستغلون تفوقهم بشكل فعال بحيث أرسلوا فوراً ثمانية من سفنهم إلى خليج البصرة، وكادوا أن يدمروا المركز التجاري البريطاني فيها. وحتى سنة 1649 كان النفوذ الهولندي في الخليج لا يزال في تصاعد، وبدأ يلوح أنهم سوف يحصلون على المزيد من الامتيازات من الحكومة الفارسية التي كانت تشعر بالخوف منهم أكثر مما كانت تحترمهم. وقد ازداد نفوذ الهولنديين في الخليج بعد طرد البرتغاليين من مسقط. وكان الأسطول الذي وصل إلى بندر عباس في ذلك العام يتألف من إحدى عشرة سفينة وكمية كبيرة من السلع. ويعطي تافرنيير الذي كان موجودا في بندر عباس في سنة 1652 فكرة عن كمية البضائع التي جلبها الهولنديون فيقول:

«لقد باع الهولنديون كميات من الفلفل تقدر بخمسة عشر أو ستة عشر ألف جنيه ودفعوا أثمان كل الحرير الذي اشتروه».

وفي العامين التاليين أنزل الهولنديون شحنة بضائع تبلغ قيمتها 100,000 و 120,000 جنيه إسترليني، لدرجة أنهم اكتسحوا التجارة الإنجليزية. وحتى ذلك الوقت كان الشاه عباس الثاني الذي خلف شاه صافي يرفض طلب الهولنديين مساواتهم بالإنجليز في المعاملة. غير أن النشاط التجاري الإنجليزي رغم أنه كان محدودا إلا أنه لم يقض عليه نهائيا.

«يستقبل هذا الميناء معظم السفن الذاهبة إلى البصرة أو القادمة منها لأن أسواقها تلبي جميع طلباتهم. وتأتي تجارة التوابل في المرتبة الثانية بعد الأقمشة الهندية. والتي يشتريها الهولنديون بجانب السكر والنحاس، وبالمقابل يأخذون حريرا وسجادا بما قيمته خمسون ألف ثومان بالإضافة إلى عدد من أطنان الذهب والفضة كل عام. كما أن تجارة الهولنديين من ملقا والبحر الجنوبي كبيرة لدرجة أنه قيل أنهم أحضروا في إحدى المرات ست سفن محملة بالتوابل، كي يستفيد منها تجارهم الماكرون. وقد قام الهولنديون بتكديس تلك السلع على الساحل وعندما لم يجدوا مشترين لها أشعلوا النار فيها».

ويقارن الكاتب هذا التصرف لموقف البريطانيين في بندر عباس فيقول:

«ان تجارة الشركة الإنجليزية هنا تجارة محدودة، وهي تقتصر على بعض العقاقير والأصواف والبلح والخيول، وهذا على الرغم من أن الإنجليز يحرصون على تعيين وكلائهم في الموانئ».

لقد استشهدنا بما يكفي من أقوال المعاصرين لتلك الفترة لكي نبين بأن وضع الهولنديين في الخليج في أواخر القرن السابع عشر كان متفوقا بصورة شاملة على الإنجليز. أما الآن فلنعد قليلا إلى الأحداث التي كانت تمر بها أوربا. فأطماع لويس الرابع عشر دفعت به إلى الاصطدام بكل من هولندا وأسبانيا وتبعا لذلك أعلنت الحرب. وفي عام 1676 دمر الأسطولان الهولندي والأسباني من جانب الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط.

في البداية اتفقت إنجلترا مع فرنسا، وفي عام 1676 وقعت معركة غير حاسمة بين السفن الهولندية والإنجليزية في سولبى، غير أن الرأي العام في إنجلترا كان معاديا لفرنسا، بحيث اضطر الإنجليز إلى عقد

اتفاقية سلام مع هولندا في عام 1674، وفي نهاية الصراع تقريبا، كانت إنجلترا تقف مع الدول الأوربية إلى جانب هولندا.

وفي عام 1678 استقرت هولندا بموجب اتفاق السلام المعقود في نيمجين. وشهد عام 1688 تحالفا إنجليزيا هولنديا في أوربا للوقوف في وجه الهيمنة الفرنسية. ومنذ ذلك الوقت خضعت المصالح الهولندية للمصالح الإنجليزية واستمرت كذلك حتى عام 1697 عندما توقف القتال بموجب معاهدة السلام المعقودة في رسويك بعد أن استنزفت فرنسا قواها، وبدأت مسألة الخلافة الأسبانية تشغل بال لويس الرابع عشر.

في تلك الفترة بدأ الهولنديون يفقدون مركزهم في فارس، وربما بسبب الأساليب المتغطرسة التي كانوا يستخدمونها في معاملاتهم التجارية ومن ثم فان نهاية القرن السابع تشكل مؤشرا لتطور الأحداث لصالح الإنجليز.

ويلخص بروس الأسباب التي أدت إلى نجاح السياسة الهولندية في الهند الشرقية والخليج على امتداد الفترة الطويلة على النحو التالي: بعد نجاح المشروعات التجارية والفتوحات الهولندية في الهند الشرقية والخليج أدى ذلك إلى افتقار المؤسسات البرتغالية والإنجليزية إلى وسائل الدفاع، بينما اشتد نشاط الأسطول الهولندي وزادت الاعتماد الضخمة التي كانت تمول الشركة الهولندية، والتي كان أعضاء مجلس أدارتها مرتبطين بمجلس الوزراء، عكس سياسة الحكومة البريطانية والتي كانت تحد من الامتيازات الاستثنائية لشركة الهند الشرقية في لندن، وإلى الأحداث التي أثرت على تجهيزات الشركة وحالت بينها وبين توسع تجارتها ضمن المراكز التجارية القليلة التي احتفظت بها في المنطقة، وأخير إلى التكاليف الباهظة لإدارة تلك المراكز والخسائر المتعاقبة التي تكبدتها الشركة في عمليات التخزين والشحن وغيرها من الالتزامات.

ويعلق كاتب آخر على هذا الموضوع فيقول: «ان التفوق الهولندي في الشرق هو حصيلة حرية التعبير الواسعة التي تحققت لهم داخل بلدهم. ان لب المشكلة هو ليس حجم الدولة الأوربية المعنية، وإنما التضحيات التي تبذلها لدعم مركزها في الشرق ..».

ففي الربع الأول من القرن السابع عشر، لم تكن قوة إنجلترا تقل عن قوة هولندا، غير أن شعب إنجلترا لم يكن على استعداد للبذل في سبيل التجارة الهندية، كما أن الملوك الإنجليز لم يكونوا مستعدين للمغامرة بشيء، أما الهولنديون وحكومة هولندا فقد كانوا على أتم الاستعداد للبذل والتضحية.

لقد دخلت هولندا الصراع ومعها الخبرة التي كونتها من تجارة الشرق بالإضافة إلى الدعم الكبير الذي يأتيها من الولايات الهولندية، وأخيرا تصميم الهولنديين وحكومتهم على احتكار تجارة التوابل لهم وحدهم. أما إنجلترا فأنها لم تساهم إلا برأسمال صغير كان موزعا على رحلات بحرية وشركات مساهمة عديدة. أما من حيث الدعم الحكومي فإنها لم تكن تحصل إلا على دبلوماسية متقلبة من جيمس الأول وشارلز الأول. وكانت شركة لندن مؤسسة خاصة، كما أن الأفراد البريطانيين في آسيا لم يحققوا شيئا في وجه الإمكانيات التي عبأتها هولندا.

تطور سياسة شركة الهند الشرقية:

لعدة سنوات بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية عام 1600 كان طابعها في معظمه تجاريا، إلا أنه خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر، بدأت تظهر علامات تغيير في سياسة الشركة. وذلك بسبب ضغط الأحداث من جهة وبحكم التجارب التي مرت بها من جهة أخرى حيث بدأت الشركة تدريجيا وبإصرار تأخذ الطابع السياسي الذي في النهاية يلقي بظلاله على طابعها التجاري.

ولفترة من الوقت فيما بين 1654 و 1657 كانت نشاطات الشركة متأثرة بتلك المجموعة من المؤسسين الذين يسمونهم (التجار المغامرون) وكان هؤلاء يطالبون بحرية الاتجار والاستقلال ورؤس أموال خاصة. غير أنه عندما قرر مجلس الدولة خطر المشروعات الفردية انضم أغلبية التجار المغامرين إلى شركة الهند الشرقية والتي تدعم مركزها تبعا لذلك إلى حد كبير.

وفي نحو 1665 اقترح وكلاء الشركة في سورات تقديم طلب إلى الملك للسماح لهم بتأسيس مركز تجاري في بومباي وهو المركز الذي تخلى عنه البرتغاليون تحت ضغط الظروف، ولكن الإجراءات امتدت ال أبعد من ذلك الاقتراح، إذ أنه في عام 1688 سلمت جزيرة بومباي من قبل الملك إلى الشركة مقابل إيجار سنوي محدود، وخولت الشركة صلاحيات للاحتفاظ بجيش وإدارة مدينة. وبالفعل فقد نقل في عام 1687 المقر العام للشركة من سورات إلى بومباي.

بعد عام من ذلك طرأ تغيير على موقف الشركة. فقد أرسلت محكمة الشركة في لندن تعليمات إلى رئيس الشركة في بومباي نسخت فيها قرار تغيير سياسة الشركة في الهند إلى أساسها النهائي وهو السيادة الإقليمية مستفيدة من تلك العبارة المشهورة:

«ان زيادة دخلنا هو موضوع يشغل اهتمامنا تماما كما تشغله تجارتنا، فلابد لنا من الاحتفاظ بقوة خوفا من حدوث مضاعفات أو أحداث تهدد تجارتنا، وبدون ذلك فنحن لنا أكثر من عدد كبير من المتطفلين توجههم الوثيقة الملكية لصاحب الجلالة ولا يمكن لهم إلا أن يمارسوا التجارة حيث لا تستطيع أية قوة أن تمنعهم من ذلك».

الفترة من عام 1644 تقريبا حتى نهاية القرن تميزت باضطرابات أثارها المهاراتا مما أدى إلى فقدان الأمن في مستوطنات الشركة في

الهند، وتركت آثارا سيئة على حركة التجارة. كما كانت تنشأ خلافات من حين لآخر بين الإنجليز والمغول. كل تلك العوامل كانت لها آثارها الضارة على النشاطات التجارية في فارس.

أما في إنجلترا فقد انفجرت الغيرة بين الشركات البريطانية من الامتيازات الاستثنائية التي منحت لشركة الهند الشرقية في ممارسة النشاط التجاري في الشرق، حتى انه في عام 1698 استطاعت مجموعة من رجال الأعمال استصدار مرسوم برلماني لتأسيس شركة لهم تحت اسم «الجمعية العامة للتجارة مع الهند الشرقية» وهكذا ظهرت هذه المؤسسة إلى حيز الوجود لتدخل في صراع مع شركة لندن. وبدأ صراع مؤلم بين هاتين الشركتين كان سيؤدي إلى فقدان الإنجليز لمصالحهم في الشرق بل في الخليج أيضا.

وكان هناك ادراك في لندن بأن استمرار ذلك الصراع سوف يؤدي إلى إفلاس مالي وسياسي للجميع. وبعد مفاوضات مضنية اتحدت الشركة القديمة والحديثة في عام 1708 وأطلق على المؤسسة الجديدة اسم «اتحاد تجار إنجلترا للتجارة مع الهند الشرقية» ولقد كان ذلك الأجراء نقطة تحول في شؤون الهند، كما ظهر أثرها سريعا في الخليج. ومنذ ذلك الوقت اكتسبت الشركة طابعا قوميا وعاما أكثر، وحصلت من الملك على مرسوم بتعيين سفير بريطاني لدى إمبراطور المغول، كما خول رئيس مجلس إدارة الشركة صلاحيات قنصلية ومنح رتبة مدنية.

الفصل الثامن

القرن الثامن عشر ـ نمو النفوذ البريطاني في الخليج

القرن الثامن عشر ـ نمو النفوذ البريطاني في الخليج

«من بين الدول الخمس التي كانت تتنافس على العالم الجديد، كان الفوز من نصيب الدولة التي كانت أقل ارتباطا بالعالم القديم».. سيلي في (توسع إنجلترا)

قبل أن نشرع في وصف الأحداث في الخليج أبان القرن الثامن عشر، فانه من المستحسن أن نلخص في إيجاز تاريخ المناطق الهامة المحيطة به خلال تلك الفترة، ونعني بها فارس وعمان والعراق التركية. ففي فارس كان القرن الثامن عشر محور اضطرابات وتغييرات مستمرة بالأحرى كان القرن الثامن عشر قرن التوترات التي وردت تفاصيلها في العديد من المؤلفات، ولن نتناول إلا أهم تلك الأحداث.

ففي مطلع القرن كان يتربع على عرش فارس الشاه حسين، والسنوات العشرون من حكمه على حد قول مالكولم مرت في ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة والتي انفجرت في عام 1720 عندما قام الأفغان تحت حكم محمود بغزو فارس، وإذا كان الأفغان قد هزموا

فارس في البداية على يد لطف الله، فانهم في كرمان حققوا انتصارهم في النهاية. وهذا ما أدى إلى أن يتنازل الشاه حسين عن العرش، وبذلك انتهت أسرة صفوي، وأصبح الأفغان حكام فارس، فقد احتلوا أصفهان ثم أخيرا احتلوا شيراز.

استمرت فارس خاضعة للأفغان حتى عام 1730. وخلال هذه الفترة من القلاقل الداخلية تعرضت فارس إلى غزو من الروس تحت حكم بيتر الكبير. وفوق ذلك أسرع الأتراك في عام 1725 واستولوا على عدد من الأقاليم الشمالية الغربية في فارس. وبموجب معاهدة عقدت بين روسيا وتركيا تم تقسيم بعض أهم الأقاليم الفارسية، غير أن تلك المعاهدة لم يكتب لها التنفيذ، ثم في عام 1726 تمكن أشرف الحاكم الأفغاني في دحر الأتراك الذين سبق أن وقع معهم معاهدة سلام. وشهد عام 1726 أيضا بروز حاكم إقليم خراسان تاهماسب قولى الذي اشترك بقواته مع نادر شاه ضد الأفغان.

وقد أبيد الأفغان، أما الذين تمكنوا من الفرار فقد أخرجوا من فارس في عام 1730، وتمكن تاهماسب من انتزاع الحكم. غير أن نادر شاه عاد فاستولى على السلطة بعد وقت قصير، وأعلن نفسه عام 1736 شاهاً على فارس. وقد اتخذ من مدينة مشهد عاصمة لحكمه الذي استمر إلى أن اغتيل في عام 1747. وقد خلفه عادل شاه، ولكن هذا خلع في عام 1748 من جانب أخيه إبراهيم خان. وبعد ذلك جاء دور شاه رح الذي دام حكمه فترة قصيرة وحل محله كرم خان زند، وكان زعيما لإحدى القبائل البدوية من عرب فارس. وقد لقب نفسه بالوكيل واستطاع بالتدريج توسيع رقعة سلطانه حتى شمل الجزء الأكبر من فارس ثم أخضع إقليم فارس في عام 1751 وجعل شيراز عاصمة ملكه. وخلال الجزء الأكبر من حكمه استمتعت البلاد بهدوء نسبي.

في عام 1775 أرسل كريم جيشا بقيادة أخيه صادق خان لمحاربة الأتراك فحاصر البصرة التي استسلمت له في عام 1776 وبقيت تحت الحكم الفارسي حتى وفاة كريم في عام 1779، وبعد وفاة كريم خان أدت الصراعات الداخلية إلى تمزيق وحدة فارس وتدهور أوضاعها لعدد من السنين، بل لنهاية القرن، وتبع ذلك دورات قصيرة من الحكم لعدد من الحكام، وأبرزها حكم لطف علي خان الذي وضعت وفاته في عام 1798 نهاية لحكم أسرة الزند، وتولت الحكم بعد ذلك دولة القاجار في شخص أغا محمد خان وخلفه فتح علي شاه الذي نصب في عام 1799 ثم اغتيل في خيمته في العام التالي.

في نحو عام 1717 وخلال حكم شاه حسين الضعيف استطاع الإمام سلطان بن سيف انتزاع البحرين من الفرس، وفي عام 1720 استولى عرب مسقط على بعض الجزر الواقعة غير بعيد من الساحل الفارسي بما في ذلك جزيرة قشم. غير أنه في عهد نادر شاه انعكست الآية واستطاعت قوة فارسية أرسلت من بندر عباس عام 1737 الاستيلاء على عمان وظلت تحت سيطرتهم حتى عام 1744. أما البحرين فقد ظلت تحت الهيمنة الفارسية اعتبارا من عام 1735 حتى 1783 عندما استولى عليها العتوب. وفي نحو ذلك الوقت قام الوهابيون بغزو بغداد والكويت والأحساء. وهكذا تطورت قوة الوهابيين كما سنرى ذلك في الفصول القادمة من الكتاب إلى حد خطير في عام 1798 وتمكنوا في عام 1800 من احتلال الأحساء والقطيف.

أما في عمان فقد اتسمت سنة 1793 بانشقاقات داخلية. فقد انفصلت سلطنة عمان وقاعدتها وأصبحت دولة بذاتها. وبذلك انغمست في تيارات الصراع السياسي في الخليج. ثم استولى حاكمها السيد سلطان والذي سنتحدث عنه حديثا مستفيضا فيما بعد على بندر عباس، كما أضاف إلى ممتلكاته جواذر وشهبار على ساحل مكران. وفي عام

1797 بدأ النفوذ الفرنسي يظهر في عمان.

بعد هذا الاستعراض العام، نعود إلى ما كان يشهده الخليج من أحداث. اختتم الفصل السابق من الكتاب بانحسار النفوذ الهولندي في الخليج. وفي عام 1699 أظهر الشاه حسين بادرة طيبة تجاه الشركة الإنجليزية بزيارته لمركزها في أصفهان وبمعييته سيدات البيت المالك. وقد أقيمت استعدادات ضخمة لاستقباله والاحتفاء به تكلفت ما لا يقل عن 000.12 جنيه إسترليني، غير أن النتائج كانت مجزية وعلى المستوى المنشود، إذ أن الشاه لم يعرب عن تقديره للشركة فحسب بل أنعم بروب الشرف، وسيف ثمين، وجواد لوكيل الشركة، غير أنه قد تم دفع الرسوم الجمركية المتأخرة في بندر عباس، بالإضافة إلى منافع مادية أخرى.

وعلى الرغم من أن الهولنديين طالبوا بزيارة تكريمية مماثلة لمركزهم، إلا أن طلبهم لم يستجب له وبذلك خسروا جولة أخرى في الصراع على الهيمنة. وعندما طلبوا الأذن لهم بإقامة مركز في بندر عباس لحماية مصالحهم رفض طلبهم، كما أن الإنجليز خسروا مركزهم مؤقتا ربما لموقفهم السلبي من القرصنة والتي تفشت بشكل خطير خلال عامي 1705 ـ 1707 بينما الهولنديون في محاولة منهم لاسترضاء الشاه ادعوا بأنهم مهتمون لمواجهة هذا الخطر المتزايد.

وفي عام 1704 ـ 1705 أعلنت شركة الهند الشرقية القديمة عن رغبتها في تسليح سفنها بمجرد انتهاء الحرب مع فرنسا، «لتطهير البحار واجتثاث وكر القراصنة» غير أن الحرب استمرت ولم يتحقق شيء. وقد تفاقم الأمر كذلك نتيجة تضارب المصالح بين مختلف الشركات التجارية إلى أن تحسنت الأمور بعملية الاندماج التي تمت في عام 1708، وبذلك استرد الإنجليز مركزهم.

خلال عام 1718 على وجه التقريب كان عرب المنطقة بصورة غير

عادية. فقد هاجموا البحرين واستولوا عليها غير أن سكانها هجروها، وبذلك انتهى احتلالها. وبعد عام أو عامين قام عرب مسقط بالاستيلاء على بعض جزر الساحل الفارسي بما فيها قشم مستغلين الغزو الأفغاني لفارس. وقد أرسل جيش فارس بقيادة لطف على خان إلى منطقة قريبة من بندر عباس، إلا أن ذلك الجيش قد اضطر إلى الاتجاه نحو الشمال لمواجهة الخطر الأفغاني دون أن ينجز شيئا هناك، ولذلك فقد ظل العمانيون سادة الموقف على الساحل الفارسي.

في عام 1721 نشبت اضطرابات ضد البريطانيين في بندر عباس، فقد اقتحمت قوة من 4000 من البلوش الفرسان البلدة وتمكنت من احتلال إقليم كرمان وبلدة لار.

وخلال الاحتلال الأفغاني لفارس (1722 ـ 1729) كانت الأوضاع في المناطق المجاورة لبندر عباس مرة أخرى غير مستقرة. فقد استولى شيخ رأس الخيمة القاسمي على منطقة باسيدو والواقعة في جزيرة قشم، وخلق وضعا يحمل علامات الخطر لتجارة بندر عباس إلى أن تحركت قوة بحرية بريطانية صغيرة في عام 1727 للتصدي لذلك الوضع.

وفي عام 1728 بعد أن اجتاح الأفغان إقليم فارس واستولوا على شيراز، سير قائدهم زير راست خان فصيلة من قواته للهجوم على بندر عباس. وقد فر الفرس عند اقتراب الجيش منهم، غير أن الأوربيين أظهروا موقفا عنيداً لدرجة أن القائد الأفغاني خشى من مهاجمتهم. وقد انتهت العملية بقبول كمية صغيرة من المؤن، وانسحب الأفغان بعد أن مات بعضهم بسبب رداءة الطقس. من ذلك الوقت بالذات يبدو أن الهولنديين قد انتهزوا الفرصة واستولوا على هرمز مؤقتا، غير أن الوكيل التجاري البريطاني هناك أقنعهم بالجلاء عنها.

إن شؤون الخليج بعد تلك الأحداث لم تعد تحتل مكانا بارزا لعدد من السنين. فقد طرد الأفغان من فارس من جانب نادر شاه الذي تمكن في عام 1736 من إلحاق الهزيمة بالأتراك وبذلك أصبح سيد البلاد بلا منازع بما في ذلك الساحل بطوله من البصرة إلى مكران. ولم يكن موقف نادر شاه من الإنجليز في البداية وديا، بسبب رفضهم تزويده بالسفن لشن حملاته العسكرية من جهة، وبسبب ما قيل من ميل الإنجليز إلى مساعدة الأتراك في الدفاع عن البصرة ضد الفرس من جهة أخرى. إلا أنه بعد توليه الحكم اتجه موقفه نحو الإنجليز إلى اللين، رغم أنهم لم يمنحوه امتيازات من أي نوع خلال حكمه، إذا استثنينا تجديد الامتيازات السابقة في فارس، بما في ذلك حقهم في تحصيل ألف ثومان كل عام من جمرك بندر عباس. ومن الرسوم الأخيرة، حول حصولهم في النهاية على ثلث عائد الجمارك عن السلع التي يتم استيرادها إلى فارس على السفن الإنجليزية، كما وعد أيضا بمعاملة التجارة معاملة عادلة ومهذبة.

كانت تراود نادر شاه فكرة واحدة وتسيطر على تفكيره كثيرا، كان يسعى إلى أن يجعل من فارس دولة بحرية في كل من بحر قزوين والخليج، بحيث يجعل من شواطئها الداخلية بحر موصدا على غرار وضع البحر الأسود بالنسبة لتركيا في ذلك الوقت. ويضيف اللورد كيرزن في إعجاب بالخطوات التي اتخذها نادر شاه في هذا السبيل، ويمكن للقارئ أن يعود إلى ما كتبه اللورد في هذا الصدد. وكانت بوشهر هي القاعدة الرئيسية لنواة ذلك الأسطول، غير أن خطته لبناء أسطول كامل بأخشاب يتم تحضيرها عن طريق عمال السخرة عبر مناطق فارس كانت فاشلة.

في عام 1747 انتهى حكم نادر شاه فجأة باغتياله، وغرقت فارس في بحر من الفوضى استمرت إلى أن نجح كريم خان زند من تدعيم

سلطته وأصبح سيدا على الجزء الأكبر من فارس، ونقل عاصمته من شيراز إلى مشهد. وفي تلك الأثناء من عام 1750 أغلق المركز التجاري الإنجليزي في أصفهان ولم يفتح مطلقا وأصبح ضروريا نقل الوكالة التجارية من بندر عباس بسبب استمرار الاضطرابات والأخطار.

وقد ازداد موقف الإنجليز سوءا في الخليج من نشوب حرب السنوات السبع في أوربا عام 1756 والتي ظهرت تأثيراتها بسرعة في الشرق. ففي 15 أكتوبر عام 1759 ظهر سرب من السفن الفرنسية ترفع أعلاما هولندية بقيادة الكونت ديستان، كانت إحداها هي السفينة كوندي أمام بندر عباس وقامت بقصف المركز البريطاني، غير أن رجال المركز تحت إشراف المستر دوجلاس كبير الوكلاء دافعوا ببسالة عن مركزهم، كما أحرق الفرنسيون الطراد سيسيدول، وقد قاموا بتصويب مدافع سفينتهم الأربعة والعشرين من على بعد 400 ياردة من المركز. ثم أنزلوا قواتهم ومعداتهم الثقيلة وقصفوا المبنى مما اضطر أصحابه إلى الاستسلام.

وقد اعتبرهم الفرنسيون أسرى حرب إلا أنهم سمحوا لهم بحمل أمتعتهم الشخصية. وبموجب أحد البنود الثمانية من المعاهدة، تم الاتفاق على أن يتم تبادل الستة والعشرين مدنيا الذين كانوا في المبنى، وكان المفروض أن القائد الفرنسي ديستان متوجهاً إلى أوربا عن طريق البصرة، إلا أنه في الحقيقة هو الذي كان يقود العمليات. وبعد أن قام الفرنسيون بإحراق المركز أبحروا يوم 30 أكتوبر بعد أن حققوا لأنفسهم مكاسب مادية، ولم يحققوا مجدا من تلك العملية.

كان الأوان قد حان لإغلاق المركز التجاري البريطاني في بندر عباس باعتبارها الميناء الرئيسي في الخليج، ولقد قام وكلاء الشركة باختيار الموقع الجديد بسرعة. وكانت الفكرة في البداية هي إقامة

مستوطنة في هرمز. وبعد أن قام رجال الشركة بتفقد عدد من الموانئ الفارسية، اقترح المستر دوجلاس كبير وكلاء الشركة في عام 1762 اختيار بوشهر التي كانت في ذلك الوقت تعج بالتجار القادمين من داخل فارس، والذين كانوا يتمتعون بمطلق الحرية في شراء وبيع وتصدير البضائع كما يشاءون .. «وقال بأن الحاكم الفارسي الحالي في بوشهر يتمتع بأخلاق عالية ويبدو أنه راغب أن نستقر هناك ..».

«ولأن هناك لا يحتاج الإنسان إلى علاقات يقيمها أو يتودد إلى أحد فيما عدا الشيخ نفسه أي الحاكم. كما كان البحر يحيط بالبلدة من ثلاثة جوانب، وبوجود الحائط وضع مدفع عليه فان العملية لن تكلف كثيرا».

وهكذا قامت الشركة في شهر مارس عام 1763 بإخلاء مركزها في بندر عباس، وأرسلت محتوياته إلى البصرة كما أرسلت أرصدتها إلى بومباي، وقد واجهت مقاومة خطيرة من حاكم البصرة الفارسي الذي ارتاب في ذلك الأجراء. وكان الهولنديون سابقا قد نقلوا مركزهم التجاري من بندر عباس إلى البصرة في عام 1759 وسوف نتطرق إلى نشاطاتهم لاحقا.

وهكذا أصبحت البصرة مؤقتا المركز البريطاني الرئيسي في الخليج، وضمت إلى سلطتها دار الإقامة البريطانية التي كانت تابعة لبندر عباس سابقا، وفي عام 1764 اعترف الباب العالي بصراحة بمركز البصرة كقنصلية بريطانية بموجب الامتيازات الأجنبية. لقد كانت عملية نقل الوكالة البريطانية من أرض فارسية إلى أرض تركية حادثا ذا دلالة سياسية كبرى.

في عام 1763 عقدت اتفاقية محددة مع الشيخ سعدون حاكم بوشهر لإنشاء مركز ولممارسة أعمال تجارية استثنائية في ذلك الميناء،

وفي نفس العام تم التصديق على الاتفاقية بمقتضى مرسوم ملكي من شاه فارس كريم خان. وكان لهذا الحادث أهمية كبيرة في تاريخ الخليج فالمرسوم الذي أسس المركز البريطاني بموجبه أعطى الإنجليز وضعا شاذا وامتيازات كنتيجة لنمو نفوذهم كدولة تجارية في الهند. وبسبب نجاحهم في التغلب على خصوماتهم القديمة مع البرتغاليين والهولنديين.

وقد تم تسليم المرسوم إلى المستر براس «الحاكم العام لإنجلترا في الخليج» وذلك بناء على طلب الإنجليز باسترداد الامتيازات القديمة في تلك الممالك. وقد جاء ذلك المرسوم انطلاقا من تقدير الشاه وصداقته للامة الإنجليزية، ولم يمنح المرسوم حرية غير محددة للإنجليز فحسب، وإنما حرية استثنائية لهم لممارسة الأعمال التجارية، فقد أعفوا من دفع الرسوم الجمركية على صادراتهم وواردا تهم، كما منحوا حق احتكار الأقمشة الصوفية ونص المرسوم: «بأنه إذا قام شخص باستيراد مثل تلك السلع بطريقة غير مشروعة فانه يحق للإنجليز مصادرتها»، كما «أنه لا يسمح لأية دولة أوربية أخرى أن تمارس نفس الأعمال في بوشهر، طالما كان للإنجليز مركزا فيها».

وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون هذا الانحراف عن مبدأ حرية التجارة الذي طالما دعونا إليه ونادينا به، والذي تم فرضه على الفرس قد دخل إلى حيز التنفيذ. غير أن المرسوم يقرر بوضوح لا لبس فيه طبيعة الوضع والامتيازات التي تقرر منحها للتجارة الإنجليزية والتجار الإنجليز. وقد منح حاكم بوشهر الإنجليز قطعة أرض لإقامة المركز عليها، كما منحهم قطعة أرض أخرى لإنشاء حديقة ومقبرة خاصين بهم. كما أعفى خدم وموظفي الإنجليز من تبعيتهم للسيادة الفارسية كما سمح للإنجليز باستخدام أعلامهم الخاصة، كما كان الوضع في بندر عباس سابقا.

وسمح لهم أيضا بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفع في المناسبات

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن هذه الامتيازات قد منحت أثناء حكم ملك ضعيف في فارس، وفي فترة سادتها الاضطرابات وسوء إدارة الحكم. إلا أنه على ضوء المرسوم الذي صدر في عام 1781 من جانب ابن أخ كريم خان والذي أعرب عن رغبته في أن يتمتع الإنجليز بالأمن والثقة، فانه يتضح أن إنجلترا في أواخر القرن الثامن عشر قد حققت لنفسها في الخليج مركزا لم يصل إليه أي من الدول التي كانت تنافسها على ذلك، ولا حتى الهولنديين الذي كان نجمهم في ذلك الوقت في الأفول.

الهولنديون في جزيرة خرج:

قبل خروج الهولنديين من بندر عباس عام 1759 بوقت طويل كانوا يديرون مركزا تجاريا في البصرة، وكانوا يحققون منه أرباحا طائلة في الأصواف التي كانوا يستوردونها عن طريق حلب، وفي عام 1747 أقاموا لهم مستوطنة جديدة في بوشهر كانوا قد أغلقوها من قبل، ثم عادوا فانسحبوا منها نهائيا في عام 1752. وحتى قبل انسحابهم من بندر عباس بعد الاضطرابات التي سادتها، وأصبحت البصرة المركز الرئيسي لمصالحهم التجارية في الخليج. وفي عام 1573 تغيرت فجأة سياستهم في الخليج كنتيجة للعمل الذي قام به البارون نيفوزين الذي يومئذ رئيس البعثة الهولندية في البصرة، والذي أدى نشاطه إلى ظهور دور جزيرة خرج الواقعة على بعد 30 ميلا شمال غرب بوشهر.

وقد تم إبلاغ السلطات الهولندية المسئولة في بتافيا بشأن تصرفات نيفوزين وتم إبعاده عن المنطقة. ولكن المذكور قام بعد ذلك بزيارة خرج وتفقد مناطق الجزيرة لاختبار صلاحيتها لإنشاء مستوطنة تجارية، ثم أقنع مير ناصر حاكم بندر رج وحاكم الجزيرة بالتنازل عنها لشركة الهند الشرقية الهولندية. وقد أبرز رسالة بهذا الشأن ثم توجه من خرج إلى بتافيا عام 1752 ودافع عن نفسه بشأن التهم التي وجهت إليه، وبذلك

نجح في إقناع السلطات الهولندية بالاستيلاء على خرج وعدم تفويت تلك الفرص.

ويحدثنا فيس عن هذا الرجل فيقول: «أنه أبحر من بتافيا بسفينتين وخمسين رجلا فقط واستولى على خرج. وكان سكانها في ذلك الوقت لا يزيدون على المائة نسمة من الصيادين الفقراء. وبما أن نيفوزين لم يحضر معه إلا معدات قليلة، وكانت الحكومة في بتافيا بطيئة في تزويده بالتعزيزات التي وعدته بها، فقد واجه صعوبات جمة في إقامة المستوطنة، ثم فكر في إحضار عمال من فارس وشبه الجزيرة وبمساعدة هؤلاء أنشأ قلعة صغيرة يمكنها أن تدافع بنفسها ضد أية قوة من الداخل وضد أية سفينة من الهند باستثناء سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

بعد وقت قصير من استقرار نيفوزين في خرج نشب نزاع بينه وبين مير مهنا رئيس بندر رج بعد أن طالب الهولنديين بدفع إيجار نظير احتلالهم للجزيرة، وقد أعقب ذلك نشوب قتال دام بضع سنوات وفي النهاية عاد نيفوزين إلى بتافيا وخلفه على إدارة الجزيرة فان درهلست الذي كان يعمل مساعدا له في البصرة سابقا. وقد نجح هذا باللباقة والإدارة الجيدة في خلق علاقات مرضية مع مير مهنا.

وعلى أية حال فان قصة النفوذ التجاري للهولنديين في الخليج يقترب هنا من نهايته ففي عام 1753 أو نحو ذلك انسحبوا من البصرة نهائيا، وبعد ذلك بوقت قصير انسحبوا من بوشهر أيضا وكذلك من بندر عباس في عام 1759. والمستوطنة الوحيدة التي بقيت في حوزتهم هي خرج، ولكن إقامتهم في هذه البقعة كانت قصيرة، ففي 1765 عاد الخلاف بينهم وبين مير مهنا. وفي بداية العام التالي استولى مير مهنا على القلعة، ويذكر بارسونز: «أن مير مهنا احتل القلعة وجرد الهولنديين من كل ما يملكون وأرغمهم على الرحيل في سفينة هولندية، ولم يسمح

لهم تقريبا باصطحاب كمية تكفيهم من المؤن للرحلة، كما أنه جرد السفينة من جميع أسلحتها، وهكذا فبالإضافة إلى حصوله على الجزيرة استولى على كمية كبيرة من الغنائم والأموال التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية، بل اخذ حتى الممتلكات الشخصية لموظفيها».

ونظرا لعدم صلاحية خرج لكونها جزيرة مكشوفة، فان الهولنديين لم يحاولوا استرجاعها من الفرس. وبضياع تلك الجزيرة الفارسية من أيدي الهولنديين انتهى نفوذهم في الخليج من الناحية العملية، أما القلعة الهولندية في الجزيرة فلم يبق لها أي أثر وقد تم نقل الأحجار التي بنيت بها إلى مناطق أخرى من فارس.

بعد رحيل الهولنديين عن خرج قام الإنجليز بالاتفاق مع كريم خان بهجوم مشترك على الجزيرة التي اتخذ منها مير مهنا مقرا له لممارسة القرصنة التي أخذت تهدد أمن المنطقة بشكل خطير. غير أن الهجوم لم ينجح. وقد أعقب انتصار مير مهنا موجة خطيرة من أعمال العنف والقرصنة من جانب اتباع مير مهنا وعصابته ولم ينج منها حتى السفن الإنجليزية لدرجة أنه استولى على إحدى سفنهم وهي السفينة «سبيدويل».

وعندما يئس كريم خان من احتلال الجزيرة عن طريق القصف بسبب المدافع الثقيلة التي يضعها مير مهنا على أسوار القلعة قرر أن يحاصر الجزيرة وتجويع حاميتها، فقام بإنزال قوة كبيرة من الجيش والمدفعية في عام 1769 وتمكن من احتلالها، وبعد أن تأكد مهنا من عدم جدوى المقاومة، فخرج تحت جنح الظلام بما كان معه من ثروة وتوجه إلى الكويت ومنها إلى البصرة حيث لقي حتفه هناك فيما بعد بأمر باشا بغداد. وبهذه الصورة انتهت حياة أشهر قرصان وقاتل روع منطقة الخليج وبذلك عادت خرج إلى فارس.

احتل البريطانيون الجزيرة فيما بين عام 1837 أو 1842 بهدف

الضغط على فارس، ثم مرة أخرى خلال الحرب الفارسية عام 1856 وعام 1887. ثم قدمت اقتراحات فيما بعد لاتخاذها المقر العام للبريطانيين في الخليج، وكان اللفتنانت جنرال السير جيمس اوترام يحبذ تلك الفكرة وقد ذكر: «بأن احتلال الجزيرة لا يستدعي الاستيلاء عليها كأرض بريطانية» غير أن الاقتراح باء بالفشل. وإذا استثنينا تلك الجزيرة باعتبارها مصدرا لملاحي السفن المتجهة إلى شط العرب، وللأحجار في بناء الطرق، فانها لا تدخل ضمن نطاق موضوعنا.

انتقل مركز النشاط التجاري والسياسي في الخليج الآن من مدخل الخليج إلى قمته أي شط العرب، فقد أقام الإنجليز مراكز لهم في البصرة بموافقة السلطات التركية، وفي بوشهر بالاتفاق مع كريم خان.

وعلى أية حال ففي عام 1769 وبسبب المصاعب مع كريم خان انسحب البريطانيون من بوشهر إلى البصرة. وقد نتج عن ذلك الاجراء انتقال النشاط التجاري البريطاني إلى البصرة، وعلى حساب فارس. وفي ربيع عام 1773 تعرضت البصرة وبغداد إلى موجة من وباء الطاعون لم يعرف لها مثيل في التاريخ، مما استوجب إعادة نقل الوكالة البريطانية إلى بوشهر مؤقتا.

وبعد أن قام وكلاء مركز البصرة بنقل الوكالة إلى بومباي في سفينتين إنجليزيتين هما تايجر ودريك، وبما أن كريم خان كان مستاء من انسحاب الإنجليز من بوشهر فقد أمر بخروج بعض سفنه لاعتراض السفينتين البريطانيتين والاستيلاء عليهما. وقد سحبت السفينة تايجر إلى بندر رج واعتقل موظفي الشركة الذين كانوا على السفينة وتم نقلهم إلى شيراز ولم يفرج عنهم إلا بعد عام. وعند زوال وباء الطاعون عاد الإنجليز إلى البصرة مرة أخرى.

في عام 1775 نشأت خلافات بين كريم خان وباشا بغداد حول

المعاملة التي لقيها التجار والحجاج الفرس في بغداد والبصرة وغيرهما من المناطق الخاضعة للأتراك. وبهذا الشأن تقدم الشاه باحتجاج لحكومة القسطنطينية، ولكن تلك الحكومة لم تعبأ باحتجاجات الفرس، وردت عليها بوعود لم تنفذ. ورأى الفرس إهانة لهم في ذلك الأمر الذي أغضب كريم خان ودفعه إلى تجهيز حملة عسكرية كبيرة في عام 1755 بقيادة أخيه صادق خان، كما صرح في بيان أعلنه بتلك المناسبة لكي يوقظ الأتراك من سباتهم. وقد استسلمت المدينة للفرس في شهر أبريل عام 1776 واعتقل والي البصرة وأرسل إلى شيراز حيث بقى في الحجز إلى أن توفى كريم خان.

بعد استسلام البصرة للقوات الفارسية اضطر ممثلو شركة الهند الشرقية أثناء الحصار إلى إخلاء المركز التجاري مؤقتا، غير أنهم سمح لهم بإعادة فتحه بعد ذلك، غير أن احتلال الفرس للمدينة قد أثر على النشاط التجاري، وكان المستقبل أمام المركز يبدو مظلما بحيث اضطرت الشركة إلى تخفيض مستوى المركز ونقل نشاطها مرة أخرى إلى بوشهر حيث أبدت الإدارة المحلية ترحيبا أكثر بالشركة. وبقيت البصرة تحت حكم كريم خان إلى أن توفى في عام 1779 عندما قام صادق خان الذي كانت تراوده الأطماع في العرش بإخلاء البصرة التي عادت بموجب ذلك إلى السيادة التركية.

أثناء حصار البصرة كانت مجموعة من سفن بحرية بومباي ترسو في مياه شط العرب قريبا من خور المدينة. كما كان موقف التجار الإنجليز في أول الأمر موقفا محايدا في الصراع غير أن الظروف أملت عليهم الانضمام إلى القوى المتصارعة، فقد تسللت من مراكب قبيلة كفت بالتعاون مع الفرس إلى النهر. مما اضطر الإنجليز إلى إرسال بعض السفن لمواجهتهم.

وفي اليوم التالي غادر وكلاء الشركة مركزهم في البصرة، وتوجهوا إلى السفينة الإنجليزية سكيس بأموالهم وأمتعتهم تاركين القسم الأكبر من البضائع دون رقابة أو حماية.

ومنذ ذلك الحادث على ما يبدو بدأ استخدام الأسطول الملكي في الخليج في مثل تلك العمليات رغم أن ذلك الأسطول كان مستقلا عن الأسطول الهندي.

في عام 1771 طلب وكيل الشركة ومستشارها في فارس اعداد حملة عسكرية قوية لمعاقبة كريم خان على العقبات التي كان يضعها في طريق ممثلي الشركة ولقمع القرصنة، وقد رد رؤساء مجلس الإدارة في لندن على طلب الشركة بالتعليمات الهامة التالية:

«إذا فشلت كل الجهود لوضع حد لأعمال القرصنة التي تقوم بها فارس أو أية دولة أخرى في الخليج، والحصول على تعويضات عن الأضرار والخسائر دون اللجوء إلى القوة فيمكنكم عرض الموضوع على المقيم الذي عليه بدوره أن يعرضها على القائد العام لسفن صاحب الجلالة في الهند الشرقية، ومحاولة الحصول على الحماية والمساعدة المطلوبة بما يتطلبه الموقف».

لقد كان هو الحادث الأول الوحيد الذي استخدمت فيه سفن الأسطول الملكي، وقامت به السفن س هورس، بقيادة الكابتن جورج فارمر، وكانت قد وصلت من بومباي إلى بوشهر في شهر مايو سنة 1775 بسبب الأحداث التي أشرنا اليها. ويبدو أن الكابتن فارمر قد تلقى تعليمات من رئيسه الكومودور لتقديم مساعداته إلى شركة الهند الشرقية في أي مكان يوجد فيه مستوطنات أو مركز للشركة وتصادف أن كان أسطوله موجودا هناك شريطة أن يتلقى طلبا من الشركة بذلك.

وبناء على تلك التعليمات عرض الكابتن خدماته لمرافقة السفن

البريطانية المتجهة إلى البصرة لحمايتها رغم الحصار الذي كانت تستهدف له البلدة يومئذ، وعلى كل فان وكيل الشركة لم يقبل ذلك العرض، وبعد ذلك بوقت قصير أبحرت السفينة س هورس مع سفن عديدة أخرى تحت حمايتها من بوشهر إلى بومباي ومرت في طريقها بمسقط.

قبائل بني كعب:

لقد لعبت هذه القبيلة دورا بارزا في شؤون فارس من خلال الأحداث التي أشرنا إليها آنفا والتي شهدتها المنطقة، وقد تحدث عن دور تلك القبيلة كثير من الكتاب غير أنه لا بد من إعطاء لمحة قصيرة عن تاريخها في هذا الفصل.

يقال بأن الموطن الأصلي لهذه القبيلة هو نجد وقد نزحت منه في القرن السابع عشر إلى عربستان وأقامت بها مستوطنات، وقد ثبتوا أقدامهم سريعا، وانتزعوا الوراق والفلاحية من الانكشاريين. ويعود نجاحهم إلى نشاط ومقدرة زعيمهم الشيخ سلمان الذي ظل يحكمهم حتى سنة 1766. وقد احتفظ الشيخ سلمان بسلطته عن طريق تحريض الأتراك على الفرس، والفرس على الأتراك، نظرا لوقوع مناطق القبيلة في ما بين الدولتين، وفي نفس الوقت كان يمتنع عن دفع الجزية لأي منهما.

وفي سنة 1757 عندما لم تكن سلطة كريم خان قد توطدت بعد، قام بهجوم على منطقة كعب في محاولة لإخضاعهم لسلطته، غير أن متاعبه في كثير من أنحاء مملكته حالت بينه وبين النجاح، واكتفى بانتزاع الجزية منهم، غير أن هجوم كريم خان على قبيلة الشيخ سلمان قد أدى إلى ازدياد الاتجاه إلى العنف للشيخ سلمان، لأنه قرر على الفور إنشاء أسطول خاص به ونزلت أول سفينة منه إلى البحر في سنة 1758.

في سنة 1765 سير كريم خان حملة أخرى ضد قبائل كعب بعد أن وافق الأتراك على التعاون معه، غير أن الأتراك لم يفوا بوعدهم للقيام بتلك العملية. وهكذا تحرك الشيخ الذي أصبح لديه أسطول من اثنتي عشرة مركبا بالإضافة إلى بعض السفن التجارية، واتجه إلى الضفة الأخرى من شط العرب ولجأ إلى الأراضي التركية. بعد ذلك حول أفراد هذه القبيلة نشاطهم ضد الأتراك بعد تدمير كريم خان لعاصمتهم الوراق. ومن هنا اضطر الأتراك إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة ضدهم. وبحكم التحالف الذي كان قائما بين الإنجليز والأتراك فقد وجد الإنجليز أنفسهم متورطين في ذلك الصراع. ومع ذلك فقد فشلت كل المحاولات الكثيرة التي اشتركت فيها الدولتان لإخضاع تلك القبائل.

بعد الهجوم الذي شنه الفرس بالاشتراك مع الإنجليز ضد جزيرة خرج كما أشرنا سلفا دخل الوضع السياسي في الخليج منعطفا مفاجئا وجديدا من أثر استيلاء قبائل كعب على ثلاث سفن بريطانية في شط العرب.

وعلى الفور قامت حكومة بومباي بإعداد حملة ضخمة لم يسبق أن تم اعداد مثلها منذ سنوات كثيرة، وكانت تتألف من أربع سفن وفصيلة صغيرة من الجنود الأوربيين والمدفعية. وقد نشط الأتراك والإنجليز على وجهتين البر والبحر، كما بذلت محاولات لاسترداد السفن المخطوفة، غير أن السفن أحرقت وهي في مراسيها، كما أن محاولة البريطانيين اجتياح بعض معاقل القبيلة في خور موسى منيت بكارثة.

في هذه الأثناء تدخل كريم خان بحجة أن قبائل بني كعب من رعايا فارس، وطلب بإصرار بانسحاب كل من الإنجليز والأتراك من الأراضي الفارسية. وقد انسحب الأتراك، وهكذا انتهت الحملة، وقد فاجأ ذلك الموقف الإنجليز الذين كانوا في انتظار تعزيزات كانت في

طريقها إليهم من بومباي. وعلى أية حال فقد وعد كريم خان بدفع تعويضات عن الخسائر التي لحقت بالإنجليز. وعلى أية حال فقد كان ذلك الاجراء بالنسبة للإنجليز يعني عقد اتفاق يتعهد الإنجليز بمقتضاه القيام بمطاردة مير مهنا، وبالنسبة للتعويضات فقد عهد إلى وكيل الشركة في جزيرة خرج باستلامها.

وكنتيجة لتلك الانتكاسات المتكررة التي مني بها الإنجليز فقد قرروا فرض حصار على موارد المياه التابعة لكعب وهو الحصار الذي استمر عامين، غير أنه بنهاية الحصار أصبحت سفن الأسطول الإنجليزي المحاصر في حالة مهلهلة سواء فيما يختص بالعاملين أو بالمؤن، مما اضطرهم إلى رفع الحصار. وقد ظلت قبائل كعب متمسكة باستقلالها لفترة طويلة من الوقت بمثابة شوكة في جنب الأتراك والإنجليز معا.

نلتفت الآن إلى المسائل الأكثر أهمية في تاريخ الخليج خلال الفترة التي تلت استقرار البريطانيين في بوشهر سنة 1778 مباشرة، فعند وفاة كريم خان في العام التالي لم تعد فارس من الدول الهامة في الخليج، بل غدت بعد مرور بضع سنوات من أضعف الدول وأكثرها فوضى واضطرابا.

فقد كان هناك الصراع الذي استشرى فيما بين أفراد أسرة زند واستمر عقدا كاملا من الزمان، في نفس الوقت فان أغان محمد خان زعيم قبيلة القاجار كان يقوم بجمع أنصاره الأمر الذي كشف عن وجود صراع آخر فيما بين أسرتي زند والقاجار على الحكم.

وكان لطف علي خان يمثل أسرة زند ولكنه كان أميراً أرعن وإن كان شجاعا. وكان يؤيده ويسانده حاجي إبراهيم، غير أن هذا الأخير بعد أن اشمأز من شراسة لطف علي خان وغروره، نقل تأييده إلى أغا محمد وهو التأييد الذي شكل دورا حاسما في مسار ذلك الصراع والتي

كانت الحلقة فيه محاصرة مدينة كرمان من قوات أغا محمد، والذ أسفر عن اجتياح لتلك القوات للمدينة وهروب لطف علي إلى بام، غير أنه اعتقل هناك وتم تسليمه إلى خصمه الذي أمر بفقأ عينه وإعدامه خنقا.

خلال تلك المرحلة المليئة بالفوضى والمشاكل، وقع حدثان على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الخليج. ففي سنة 1783 سقطت البحرين في أيدي العتوب العرب الذين جاءوا من عمق شبه الجزيرة العربية، ولا يزال رجال هذه القبيلة يعتبرون من أقوى الفئات في محيط شعبهم إلى يومنا هذا، وتربطهم صلة قرابة بالأسرة الحاكمة.

أما الحادث الثاني والذي يعتبر أكثر أهمية فهو بروز سلطنة عمان. ففي عام 1793 على وجه التقريب تمكن السيد سلطان وكان شخصية تتمتع بقدر كبير من الخلق ومن أسرة الحكام الأئمة من احتلال مسقط وغيرها من موانئ الساحل العماني، وأصبح الحاكم الفعلي للمنطقة الساحلية، بينما احتفظ الإمام بالسلطة في المنطقة الداخلية وعاصمتها الرستاق.

بعد تقلد الحاكم الجديد للسلطة كان أول اجراء اتخذه هو احتلال جواذر على ساحل مكران، ثم استولى على شهبار وضمها إلى ممتلكاته، ثم بعد ذلك احتل قشم وهرمز من بني معين. وقد أدى ذلك النجاح المتواصل إلى انتقال ميناء بندر عباس وتوابعها بما في ذلك ميناب إلى حوزة سلطنة عمان.

قبل وقت طويل جدا من ظهور سلطنة عمان حاولت شركة الهند الشرقية إقامة علاقات تجارية مع حكامها الأئمة، وعلى عهد السيد أحمد سلف السيد سلطان تقدمت الشركة بطلبات عديدة للسماح لها بإقامة مركز لها في مدينة مسقط، غير أن طلبها رفض.

وحتى سنة 1785 لم يكن للشركة ممثل في مسقط فيما عدا أحد

السماسرة المحليين. ولم يتحقق النجاح في هذا المضمار إلا بعد تطور حكم السيد سلطان حيث سمح للشركة بالدخول في علاقات تجارية وسياسية مع السلطنة.

والمعاهدة الأولى التي عقدت مع السيد سلطان في شهر أكتوبر سنة 1798 كان هدفها الحصول على تأييده في مجابهة المخططات الفرنسية والرد على المنافسة التجارية الهولندية في المنطقة، والحصول على موافقة السلطان على إعادة فتح المركز التجاري والحامية الإنجليزية في بندر عباس. وقد مثلت تلك المعاهدة بداية العلاقات السياسية الوثيقة مع عمان والتي تطورت مع مرور الوقت.

ان التحركات الفرنسية في الخليج ابان القرن الثامن عشر تعتبر مسألة هامة لأنها مهدت لفترة من النشاط الواسع من جانبهم في المنطقة.

ففي مستهل القرن تم إغلاق المركز التجاري الفرنسي في بندر عباس كما ذكرنا آنفا. وفي سنة 1755 أنشئ تمثيل ما للفرنسيين في البصرة، وفي سنة 1765 أنشئت قنصلية هناك، وباستثناء ذلك بدءاً من حرب السنوات السبع في 1763 إلى بداية الثورة الفرنسية 1789 لم يكن لفرنسا أي تمثيل رسمي في الخليج، إلا أنها احتفظت بعلاقات ودية مع عمان عن طريق مرشيوس وبغداد.

وفي عام 1785 طلبت فرنسا من سلطنة عمان السماح لها بافتتاح مركز لها في مسقط، إلا أن السلطنة رفضت الطلب على غرار ما فعلت مع الإنجليز سابقا.

وبعد نشوب الحرب بين فرنسا وإنجلترا في سنة 1793 بدأت فترة من المؤامرات والاضطرابات تسود المنطقة المتاخمة للخليج. فقد أوفدت فرنسا العديد من البعثات إلى الشرق الأوسط لعل أهمها بعثة عالمي الطبيعة بروجري وأوليفر ن بموجب مرسوم صدر خلال السنوات الأولى من الجمهورية.

وقد زار المبعوثان تركيا (1793) ومصر (1794 ـ 1795) وفي سنة 1795 غادرا القسطنطينية إلى فارس عن طريق حلب وبغداد ووصلا طهران في سنة 1796. وفي طهران أجريا سلسلة من المقابلات مع رئيس وزرائها أغا محمد خان.

وكان الهدف الأول للبعثة (إذا ما اعتبرنا أن الهدف كان هدفا سياسيا) على ما يبدو هو البحث عن إمكانية القيام بنشاطات فرنسية مفيدة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

وفي هذا السياق اقترحت البعثة ضرورة احتلال فرنسا لمصر. أما سفر البعثة إلى طهران فقد طرأت فكرتها فيما بعد. ومن الملاحظات التي وردت في مؤلف السيد أوليفر أحد أفراد البعثة يمكن الاستنتاج بأن الهدف من تلك الزيارة هو التمهيد لعقد حلف بين الفرس والأتراك للوقوف ضد روسيا، ولاسترداد النفوذ الفرنسي في فارس.

وعلى أية حال فلم يتم شيء بالنسبة لإقامة أو إعادة إقامة مستوطنات فرنسية في أصفهان وفي شيراز وفي الخليج ولا بالنسبة للحصول على جزيرة خرج من الفرس، وهي أمور كانت كلها تدور في ذهن المسيور أوليفر.

تلقى الممثل البريطاني في البصرة معلومات مبكرة عن تحركات بروجري وأوليفر، فبعث بتقرير إلى حكومة بومباي يقول فيه بأن هدف المبعوثين هو التسلل في ثياب عالمي الطبيعة إلى الهند عن طريق بغداد.

وبناء على ذلك أرسلت تعليمات إلى الممثل البريطاني في بوشهر لكي يتعاون مع ممثلي شركة الهند الشرقية في البصرة لتتبع تحركاتهما، أو إذا أمكن إلقاء القبض عليهما وإرسالهما إلى بومباي ومعهما أوراقهما. غير أن شيئا لم يتبلور من ذلك، وعاد أوليفر بمفرده إلى فرنسا في سنة 1798.

في نفس الفترة كان عدد آخر من العملاء الفرنسيين يجوبون أقطار الشرق الأوسط لنفس الأهداف، كما حامت الشكوك حول وجود بعض أشخاص يحملون الجنسية الفرنسية، أو في خدمة الفرنسيين.

ويبدو أن تحركات السفن الإنجليزية فيما بين الهند والخليج كانت أحد الموضوعات الرئيسية لاهتمامهم وكانت نشاطتهم في الواقع مقدمة لنشاطات أكثر خطورة سوف نتطرق إليها في الفصل التالي:

في عام 1798 بدأت بما يطلق عليه بالمرحلة النابوليونية في الشرق والتي امتدت منذ غزو نابليون بونابرت لمصر إلى طرد الفرنسيين من جزر مورشيوس في نهاية 1810. وخلال هذه الفترة كان على إنجلترا أن تواجه أمورا خطيرة تتمثل في الانتهاكات التي كانت تقوم بها السفن الحربية الفرنسية والقراصنة الفرنسيون، كما كان الإنجليز قلقين من نشاط الفرنسين داخل فارس.

على أن الخليج لم يشكل إلا مجالا محدودا داخل تلك الساحة الواسعة التي كان الصراع الفرنسي البريطاني يدور فيها. وكانت قاعدة الانطلاق للفرنسيين هما جزر مورشيوس (أو كما يسمونها الآن جزر القمر) والتي كانت تتفرع منها كافة الطرق والمواصلات البحرية.

في عام 1791 استولى الفرنسيون على السفينة البريطانية فلاج ونقلوها إلى مسقط. وقد كانت هذه الحادثة هي مجرد واحدة من الغارات الفرنسية على السفن التي كانت تمر من وقت إلى آخر، إلى أن استسلمت جزيرة مورشيوس في شهر ديسمبر 1810 بقوة بحرية بريطانية قادها الجنرال أبو كرومبي، وبذلك وضعت نهاية للانتهاكات الفرنسية في البحار الشرقية.

الفصل التاسع

نشوء الدويلات العربية

نشوء الدويلات العربية

«لقد أوضحت فيما أوضحت كيف أن الحكومة الفارسية باتت تمارس على شواطئها الشمالية سيطرة أقوى وغير منازعة أكثر من أي وقت مضى منذ حكم شاه عباس، فعلى سواحلها الجنوبية يحاول الأتراك أن يحققوا نفوذا متقلقلا في شبه جزيرة العرب، بينما الدويلات العربية الصغيرة تحاول الاحتفاظ باستقلالها كاملا أو جزئيا. وفيما بين كل هذه الأطراف تتدخل بريطانيا لتقبض على الميزان بذراع ثابتة وعادلة. وليس في القول أية مبالغة. أن حياة وممتلكات مئات الألوف من الناس تلقى الحماية بفضل الوجود البريطاني في الخليج - ولو ضاعت هذه الحماية لا قدر الله أو سحبت فان المنطقة سوف تغرق في فوضى مدمرة قد يصبح إنقاذهم منها عملا مضنيا»..
اللورد كيرزن في (فارس والمسألة الفارسية)

نصل الآن إلى مرحلة من التاريخ خلال القرن السابع عشر، اكتسبت فيها عدد من الدويلات والإمارات العربية شكلا محدودا من الوجود السياسي المستقل، لا بد من إدخاله في الاعتبار عند تناولنا الشئون الخليجية.

مسقط:

كانت عمان بما فيها مسقط تشكل وحدة سياسية واحدة حتى ذلك الوقت. وفي سنة 1793 قام سلطان بن أحمد بثورة ضد عمه السيد حمد الإمام الأسمى، وبالنجاح الذي حققه من خلال تلك الثورة تمكن من السيطرة على مسقط وساحل الباطنة ثم أعلن نفسه حاكما مستقلا ولقب نفسه بالسيد سلطان.

وهذا الحادث يشكل بداية التعامل المستقل لحكومة بومباي مع سلطان عمان، وهي العلاقة التي أخذت تتطور مع مرور الوقت. وكانت المصالح التجارية البريطانية حتى ذلك الوقت يمثلها أحد السماسرة المحليين بعد أن أخفقت المحاولات لإنشاء مركز تجاري فيها كما أسلفنا.

في سنة 1798 وقع اختيار حكومة بومباي على أحد الفرس من ذوي النفوذ يدعى مهدي على خان لتولى منصب الممثل البريطاني في بوشهر. ومن خلال ذلك المنصب عهد إليه فيما عهد بالتأكد من موقف السيد سلطان من الفرنسيين، ومحاولة إقناعه بعدم تقديم المساعدة إليهم. كما طلب إليه بأن يعطي رأيه في نزاهة وكيل الشركة المحلي في مسقط الذي أخذت الشكوك تحوم حول تصرفاته. كذلك طلب إليه الحصول إذا أمكن على امتياز لفتح مركز تجاري بريطاني في مسقط مقابل إعطاء تعهد للسلطان في حالة موافقته على استبعاد الفرنسيين من عمان بتزويده بطبيب خاص من الهند لخدمته.

وفي الوقت المناسب تم التوقيع على اتفاق في سنة 1798 تعهد السيد سلطان بموجبه بتأييد الحكومة البريطانية في القضايا الدولية وبالامتناع عن إعطاء أية امتيازات تجارية في ممتلكاته إلى الفرنسيين أو الهولنديين طالما استمرت حالة الحرب، وبإقصاء أي موظف تابع لفرنسا من خدمته، وباستبعاد السفن الفرنسية التي كانت قد اتخذت من مسقط قاعدة لأعمال القرصنة.

وفي حالة نشوب معركة بين السفن البريطانية والفرنسيين يتعهد السلطان بتقديم المساعدة الفعالة للإنجليز، وأخيرا يتعهد السلطان بأن يسمح للبريطانيين بإقامة مركز وحامية مسلحة في بندر عباس إذا ما طلبوا ذلك، وكان هذا الميناء يستأجره السلطان من حكومة فارس. غير أن السلطان رفض رفضا قاطعا السماح بإقامة مركز بريطاني في مسقط بحجة أن ذلك سوف يورطه في حرب مع الفرنسيين والهولنديين، ورغم أنه وافق في البداية على تعيين معتمد سياسي في مسقط إلا أنه عاد فسحب تللت الموافقة.

في نهاية عام 1799 أوفدت حكومة الهند الكابتن (السير فيما بعد) جون مالكولم في أول مهمة سياسية إلى حكومة فارس وزودته بتعليمات حول النقاط التي تتعلق بالمصالح البريطانية في مسقط، وقد رافقه طبيب في الرحلة.

عند وصول مالكولم إلى مسقط كان السلطان في جولة بحرية على يخته الخاص، ولكن في شهر يناير سنة 1800 تمكن مالكولم من مقابلة السلطان على ظهر سفينته التي كانت راسية في منطقة تقع بين قشم وهنجام.

وبعد محادثات قصيرة ومحددة وقع السلطان على اتفاقية جديدة مع البريطانيين تعزز اتفاقية سنة 1798 القديمة وقد وافق فيها على تعيين

معتمد سياسي بريطاني في مسقط، وبعد هذا النجاح غادر مالكولم مسقط إلى بوشهر وطهران، وعهد إلى الطبيب الذي كان قد حاز على ثقة السلطان بتولي منصب المعتمد السياسي البريطاني في مسقط.

في شهر سبتمبر 1803 وصلت بعثة فرنسية برئاسة المسيو دي كافينياك، وهناك علمت البعثة لأول مرة عن وجود اتفاقيتي 1798 و 1800 بين البريطانيين وسلطنة عمان. وقد ذكر السلطان بأنه في الوقت الذي كان فيه على استعداد لمناقشة أية أمور تجارية، إلا أنه فيما يختص بالاتفاقيتين مع البريطانيين لا يمكنه الموافقة على تعيين ممثل فرنسي في مسقط أو حتى مناقشة مثل هذه الموضوعات.

وهكذا انسحبت البعثة الفرنسية. وكان تمسك السلطان بموقفه من التزاماته يرجع ولا شك إلى أهمية مسقط بالنسبة لتجارتها مع الهند وليس إلى تفضيل الإنجليز على الفرنسيين. وربما قد أوعز إليه بأنه في حالة تعاونه مع الفرنسيين. فان الحكومة البريطانية قد تعمد إلى فرض حصار تجاري على عمان.

كان اتفاق مالكولم يتعرض أحيانا للاختبار نتيجة لبعض التصرفات التي كانت تقوم بها السفن العمانية في البحر حتى ضد السفن الإنجليزية نفسها، ولم يكن السلطان يتخذ إجراءات فورية لردعها.

توفى السلطان في سنة 1804 بعد اشتباكه في معركة بحرية مع بعض زعماء المنطقة وكان وقتها عائدا من جولة لفرض الأمن والنظام في مياهه الإقليمية، وقد خلفه ابن أخيه بدر بعد نشوب بعض الاضطرابات، غير أن بدراً اغتيل في سنة 1807 وانتقلت السلطة إلى السيد سعيد، وكان رجلا يتميز بالمقدرة والكفاءة، واستطاع أن يدير أمور البلاد بحنكة وإدراك لفترة تقترب من نصف قرن توسعت فيها رقعة مملكته سواء على الساحل أو في الداخل.

المرحلة الأولى من حكم السيد سعيد استنفذت في تصديه لبعض الاعتداءات الخارجية بالتعاون مع البريطانيين، ثم بعد ذلك تصدى لمحاولات المصريين التسلل إلى المنطقة. أما السنوات الأخيرة من حكمه فقد أمضاها في ممتلكاته الأفريقية في زنجبار مما أثر على الأوضاع في عمان. وقد اضطر الإنجليز إلى التدخل إلى جانب السيد سعيد في مواجهة حركات تمرد نشبت في عمان سنة 1829.

في بداية حكمه مال السيد سعيد نحو الفرنسيين، غير أنه بعد استيلاء البريطانيين على جزر مورشيوس في سنة 1810، هدته حصافته السياسية إلى السعي إلى التفاهم مع البريطانيين. كما أن التهديدات الخارجية التي يتعرض لها ويؤيده فيها البريطانيون من وقت إلى آخر قد اضطرته إلى توقيع معاهدات جديدة ذات أهمية بالغة مع البريطانيين، وهكذا ففي عام 1822 وعام 1845 وقع السيد سعيد على معاهدتين لقمع تجارة الرقيق، وفي سنة 1830 على معاهدة تجارية والتي عززت أيضا بنود الاتفاق الذي عقد في سنة 1822 حول تجارة الرقيق. وفي عام 1846 عقدت اتفاقية جمركية حددت بموجبها الرسوم بنسبة 5 % بينما أعفيت جميع الواردات البريطانية من الرسوم الجمركية.

سنة 1854 تعتبر بادرة السيد سعيد بإهداء جزر كوريا موريا إلى التاج البريطاني عن ميوله الودية تجاه الإنجليز. لقد سبق أن بذل الفرنسيون جهودا كثيرة للحصول على تلك الجزر، والتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية بسبب وجود السماد الطبيعي فيها.

وفي سنة 1861 قضى السيد سعيد نحبه، وخلفه نجلاه السيد ماجد والسيد ثويني اللذان اقتسما السلطة فحكم السيد ثويني عمان وحكم السيد ماجد زنجبار. وقد تم التوصل إلى اتفاقية بهذا المعنى بين الأخوين في سنة 1861 بواسطة الحكومة البريطانية بناء على مقترحات اللورد

كانتج، وبموجبها استقلت زنجبار عن عمان. وفي سنة 1861 تم تعيين ممثل سياسي بريطاني في مسقط مرة أخرى.

ان أهم اتفاقية عقدت في عهد السلطان السيد ثويني، هي الاتفاقية التي لم يشترك هو في التوقيع عليها. ففي شهر مارس سنة 1862 اشتركت بريطانيا وفرنسا في إصدار بيان تعهدا فيه باحترام استقلال كل من سلطنة عمان وسلطنة زنجبار، وجاء في البيان المذكور: «ان الأطراف المتعاقدة وقد وضعت في اعتبارها أهمية استقلال صاحب السمو سلطان عمان وصاحب السمو سلطان زنجبار، وقد رأت من المناسب أن تعلن بالتبادل احترامها لاستقلال هاتين الدولتين» غير أن هذا البيان كان يحمل في طياته عواقب وخيمة اتضحت أبعادها في نهاية القرن التاسع عشر.

تميز حكم السلطان السيد ثويني بعقد اتفاقية هامة أخرى في سنة 1864 وجاء في الاتفاقية «إنني أسمح لحليفتنا الحكومة البريطانية بإنشاء خط أو أكثر من خطوط المواصلات السلكية في أية منطقة من الأراضي التابعة لدولة عمان أو في أية منطقة يتفق شاه فارس على استئجارها». ولقد عززت هذه الاتفاقية ببروتوكول لمد الخط التلغرافي عبر الأراضي الخاضعة لصاحب السمو في شبه الجزيرة ومكران.

اغتيل السيد ثويني في صحار سنة 1866 وتلت وفاته دورتان للحكم مفيدتان لم تشهد أحداثا هامة في الشئون العامة للخليج. ولكن كان هناك دائما كالعادة انشقاقات وثورات داخلية انتهت في سنة 1871 عندما استولى السيد تركي نجل السيد سعيد على السلطة وقد اعترفت به الحكومة البريطانية في نفس العام.

وقد اقترنت السنوات الأولى من حكم السيد تركي بخلافات وتنافس بين الطوائف الدينية في عمان، وبهجوم قام به سكان داخلية عمان على مدينتي مسقط ومطرح وغيرهما من المدن الساحلية، وقد

اقتضت تلك الاضطرابات السياسية التدخل البريطاني بسبب الأضرار والخسائر التي تعرض لها الرعايا البريطانيون. غير أن الإنجليز لم يعودوا يتدخلون في شئون عمان فيما عدا تعهد بريطاني بتأييد السلطان ضد أي عدوان يقع على بلاده.

في عام 1873 وقع السيد تركي مع السير بارتل فرير معاهدة هامة جدا حول قمع تجارة الرقيق في المنطقة، الأمر الذي وقع من شأنه في أوساط المسئولين البريطانيين، بينما رفض سلطان زنجبار في البداية الموافقة على عقد اتفاق مع البريطانيين حول هذا الموضوع. ولقد بذل السيد تركي جهود مخلصة لتنفيذ تلك المعاهدة غير أن ذلك الموقف أثار عليه بعض قطاعات من رعاياه. ولقد كان إخلاصه في هذا الشأن بالذات سبباً رئيسيا في التقدير الذي أولاه المسئولون البريطانيون لشخصه واحترامهم له.

وفي عام 1873 تمت تسوية موضوع هام بموافقة السلطان بشأن معاملة رعايا الهند البريطانيين على قدم المساواة مع الرعايا البريطانيين الأصليين أمام القضاء القنصلي. وقد زودت الوكالة السياسية البريطانية في مسقط بحرس عسكري للمرة الأولى سنة 1880، وكان السلطان يؤيد التنقلات غير المقيدة للوكلاء البريطانيين في مناطق عمان الداخلية، مما هيأ للمعتمد السياسي أن يقوم بزيارات متكررة للمناطق التي كانت غير معروفة كالبريمي والجبل الأخضر ووادي الطايين. وبتلك التسهيلات أمكن جمع معلومات جديدة عن الأوضاع السياسية في المناطق الداخلية من عمان.

في سنة 1880 عينت حكومة الولايات المتحدة قنصلا لها في مسقط في شخص أحد التجار البريطانيين الذي أصبح في العام التالي الوكيل القنصلي للحكومة الفرنسية في عمان.

توفي السلطان السيد تركي سنة 1888 وخلفه نجله السيد فيصل الذي كان يتولى خلال حياة والده منصب الوالي لإحدى مقاطعات عمان، واكتسب خبرة واسعة في الشئون السياسية، وقد اعترفت به الحكومة البريطانية سلطاناً في سنة 1890، غير أنها لم تتعهد له بأي شكل من أشكال التأييد في البداية. ولكن السيد فيصل قد أعرب في النهاية عن رغبته في الاعتماد على المشورة البريطانية في القضايا السياسية الهامة وأن يدير شئون الحكم بأسلوب يحافظ على علاقات الصداقة مع بريطانيا.

أول حادث هام بعد الاعتراف الرسمي بالسلطان السيد فيصل، هو عقد معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة سنة 1891 لتحل محل معاهدة التجارة القديمة المعقودة مع والده السيد تركي. وتسري مدة تلك المعاهدة أثنى عشر عاما، غير أن المعاهدة الجديدة لم تنحرف في بنودها عن المعاهدة القديمة إلا أنها تضمنت بندا جديدا يحرر السلطان من التزامه بمنع تصدير أو استيراد بعض المنتجات والسلع التجارية.

غير أن ضريبة الصادرات قد أخضعت للموافقة المشروطة من جانب الحكومة البريطانية. وقبل توقيع المعاهدة الأخيرة وضع اقتراح كنتيجة للنشاط الفرنسي في المنطقة بمعاونة الإنجليز في الدفاع عن سلطنة عمان، ولكن بما أن النص بذلك كان سيتعارض مع التصريح الانجلو الفرنسي لسنة 1862، ولم يكن محتملا أن ترضى عنه الحكومة الفرنسية، فقد عقدت معاهدة في شهر مارس 1891 «تعهد السلطان بموجبها بالأصالة عن نفسه ونيابة عن ورثته بألا يتخلى أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أي جزء من أراضي مملكته لأي حكومة أخرى».

في عام 1895 نشب تمرد بين بعض القبائل في عمان، أغلبها من الهنادية وقيل ان لسلطان زنجبار ضلعا فيها. ولقد استطاع المتمردون

بالمفاجأة والمكر احتلال مدينة مسقط. ولقد اتخذ المعتمد السياسي البريطاني في مسقط الإجراءات اللازمة لحماية أرواح وممتلكات الرعايا البريطانيين غير أن الأوضاع اتخذت منعطفا خطيرا، مما دفع بالمقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى الحضور وتحذير المتمردين من أنهم إذا لم يحترموا ممتلكات الرعايا البريطانيين، فإن إجراءات هامة سوف تتخذ بهذا الشأن.

في شهر مارس وضع حد للتمرد وعاد السلام بعد أن دفع السلطان مبلغا كبيرا من المال للمتمردين ووعد بالعفو عن القائمين بالتمرد. بعد جهود مضنية تم تعويض الرعايا البريطانيين الذين تضرروا من العملية، وقد قرر السلطان بعد تلك الأحداث بأن يوجه اهتمامه إلى تدعيم جبهته الداخلية. وعن طريق استيلائه على اثنين من المعاقل الداخلية وهما نزوى وأزكى نجح في تدعيم قبضته على عمان الداخلية.

نأتي الآن مرحلة هامة من تاريخ الخليج، فلفترة طويلة من الوقت سبقت الأحداث التي ألمحنا إليها، وكما أشرنا في فصل سابق عقدت فرنسا وروسيا اتفاقاً للحد من النفوذ البريطاني في الخليج وتطوير سياسة مشتركة لهما هناك.

وقد وقع عبئ مقاومة النفوذ البريطاني في عمان على عاتق فرنسا. وفي أوائل عام 1891 شكا السفير الفرنسي في لندن، وان لم يكن لشكواه أي أساس من أن النفوذ البريطاني يتدخل في نظام خلافة الحكم في عمان. وكان هذا مؤشرا لمحاولة للاهتمام بشئون عمان من جانب فرنسا بعد فترة تربو على ثمانين عاما.

وفي مجلس النواب الفرنسي وردت إشارة في سنة 1893 إلى أن الإنجليز قد نصبوا من أنفسهم دون أدنى شك حماة للخليج وحكما في شئون دوله، واقترح العمل على القيام لمبادرات للحد من النفوذ

البريطاني عن طريق تعيين قنصل فرنسي في مسقط لوضع سجل للأشخاص الذين يتمتعون بالحماية الفرنسية كما ظهرت هناك دلائل أخرى على اهتمام فرنسي روسي مشترك بشئون المنطقة. فقد وصل إلى مدينة صور أحد الرعايا الفرنسيين، وكان هذا الشخص قد سبق أن لفت الأنظار بتحركاته على ساحل الإمارات المتصالحة عند وصوله إليها سنة 1893 على سفينة ترفع العلم الفرنسي، وحاول دون جدوى الحصول على الموافقة على إقامة مستودع للفحم في مسقط للفرنسيين.

بعد عام تم اعتماد نائب قنصل فرنسي في مسقط. وبتعيينه تم افتتاح السجل الذي أوصى به المسيو ديلونكل، وقد شجع ذلك بعض العرب الذين كانوا يتعاملون في الرقيق إلى تسجيل أنفسهم كرعايا يتمتعون بالحماية الفرنسية وذلك لكي يفلتوا من عمليات تفتيش وحجز سفنهم من جانب السفن البريطانية. وسرعان ما ظهرت آثار تلك الإجراءات في تردد السلطان السيد فيصل في الاستجابة للمطالب البريطانية.

في أعقاب التمرد ضد السلطان في سنة 1895 رأت الحكومة البريطانية أنه لا بد من تحديد موقفها وذلك بإصدار بيان حول تلك الأحداث، وبعد مناقشة العديد من خطط العمل تم إبلاغ شيوخ القبائل الداخلية أنه مهما كانت خلافاتهم مع السلطان فان الحكومة البريطانية لن تسمح بشن أي عدوان على مسقط ومطرح حفاظا على المصالح البريطانية في المدينتين. كما تم توضيح الأمر للسلطان بأن ذلك الموقف البريطاني لا يعفيه بأي حال من الأحوال من اتخاذ التدابير المناسبة والضرورية للدفاع عن مصالحه. ولكن السلطان الذي أعرب في أكثر من مناسبة من أن الحكومة لم تكن تفي بالتزاماتها نحوه لم يأخذ ذلك التحذير مأخذ الجد.

وعلى أية حال ففي عام 1896 أهدت حكومة الهند للسلطان

مدفعين وكمية من الذخيرة، كإضافة لوسائل دفاعه، كما وعدته بمساعدة بحرية من أجل استعادة إقليم ظفار الذي تمرد عليه. وفضلا عن ذلك فقد ساعده البريطانيون في تنظيم ميزانيته على أسس سليمة. ورغم أنه في أول الأمر رفض العرض الخاص بظفار، إلا أنه (في 1897) طلب المساعدة البريطانية ورغم أن الحملة انتهت لصالحه إلا أن موقفه من بريطانيا لم يتبدل. وعلى كل حال فقد أمكن في بداية عام 1898 عقد أول اتفاقية مع السيد فيصل بشأن تجارة السلاح وهو موضوع كان قد استفحل أمره.

في أعقاب هذه الأحداث تحسنت علاقات السلطان السيد فيصل بالإنجليز كثيرا. وتلقى دعوة رسمية من الحكومة البريطانية لحضور حفلة التتويج في مدينة دلهي بالهند في عام 1903 ولكنه أرسل أكبر أنجاله لحضور المناسبة. وفي سنة 1900 وكنتيجة لظهور وباء الطاعون وضعت الشئون الصحية في موانئ مسقط ومطرح تحت إشراف الإنجليز وفي العام التالي تم ربط عمان بخط تلغرافي عن طريق جاشك وهو حدث هام بالغ الأهمية.

ونظر لاستقرار الأحوال في الحكم والبلاد، والموقف الودي للسلطان تجاه إنجلترا انفتحت المناطق الداخلية من عمان لعمليات البحث والاستكشاف. وفي هذا الإطار تمكن ولأول مرة الماجور كوبس (الآن السير كوبس) من قطع المسافة برا من أبو ظبي في عمان المتصالحة إلى مسقط وهي أول رحلة يقوم بها مسئول بريطاني إلى عمان والمناطق المجاورة لها. وقد استمر السيد فيصل في الحكم حتى سنة 1913 عندما خلفه نجله السلطان السيد تيمور بن فيصل.

الفصل العاشر

الخليج في خضم السياسات الدولية

الخليج في خضم السياسات الدولية

«إنني لا أتصور أن أحدا ما قد اقترح أن يكون هناك أي تراخ أو ضعف في موقف الحكومة الخاسرة أو أية حكومة أخرى بالنسبة لمركزنا ووجودنا في الخليج .. ان وضعنا في الخليج في الوقت الراهن وضع ثابت ولا يمكن النيل منه أو إضعافه» وزير الخارجية في مجلس اللوردات 14 مايو 1924

قد لا يكون خطأ أن نصف العقود الأولى من القرن التاسع عشر بأنها كانت مرحلة الوفود والبعثات السياسية إلى ملوك فارس، الأمر الذي لا يتطلب منا اهتماما كبيرا حتى نكون في قلب صورة الأحداث في الخليج.

ثم أعقب تلك الرحلة المحاولات التي ربما لم تكن مجردة من الغرض ولم تكن تقتصر على بريطانيا وحدها لتأمين أوضاع الدويلات والمشيخات الواقعة على جانبي الخليج، والتي أفضت ولو بشكل بطئ

إلى وقوع تلك الدويلات تحت وصاية ـ إذا لم نستخدم لفظة أخرى ـ عدد من الدول الأوربية لكل منها أهدافها والتي أدت في النهاية إلى نشوب صراع وتنافس فيما بينها على تلك الدويلات.

فمن جانب بريطانيا كانت هناك بعثة مالكولم إلى فارس في عام 1799 التي توجهت بإيعاز من الماركيز ويلسلي حاكم الهند في ذلك الوقت بهدف إنشاء علاقات ومعاهدات مع فارس. وقد نجحت البعثة جزئيا، وأبرمت معاهدة مع بريطانيا وفتح علي شاه، نصت على استبعاد فرنسا التي كانت هي الأخرى تحاول الحصول على نصيب في السيطرة على الخليج وليس على فارس وحدها وإنما على بعض الدول الأخرى في الخليج.

في عام 1802 تقدمت فرنسا بمبادرة إلى فارس قوبلت بفتور في البداية، ولكن في سنة 1803 كما سبق أن لاحظنا فشلت محاولة فرنسية لإقامة مركز تجاري لها في مسقط. أما في عام 1807 فقد تغير الحال لأن الشاه الذي كان قلقا من التهديد الروسي لبلاده وأصيب بخيبة أمل من الحصول على المساعدات البريطانية ضد الاعتداء الروسي على الأقاليم الشمالية الغربية من فارس، قام بمبادرة نحو فرنسا أسفرت عن توقيع معاهدة فنكشتاين، والتي اعتبرت روسيا بمقتضاها «عدوا لملكي فارس وفرنسا».

بعد بضعة أشهر ظهرت بعثة جاردين في فارس لتدريب الجيش الفارسي على ما يبدو على الأساليب العسكرية الأوربية، ولكنها كانت في الحقيقة لتطبيق نصوص معاهدة فنكستاين بين نابليون والشاه فتح علي شاه.

وقد انزعجت حكومتا بريطانيا والهند من تغلغل النفوذ الفرنسي في فارس. وعلى هذا الأساس أوفدت الحكومة البريطانية السير هارفارد

جونز برديمز الذي سبق أن تقلد منصب المقيم في البصرة إلى فارس بصلاحيات كاملة للتفاوض مع الشاه على عقد اتفاقية مع الحكومة الفارسية، وفي نفس الفترة تقريبا أوفد مالكولم من الهند لنفس الغرض ولكن الأخير لم يصل إلى طهران وعاد إلى الهند.

وقد تمكن السير هارفورد جونز من عقد اتفاق مبدئي. ففي الوقت الذي انسحبت فيه البعثة الفرنسية بعد أن فشلت في مهمتها. وبضياع جزيرة مورشيوس من فرنسا سنة 1811 انتهى النفوذ الفرنسي في فارس تقريبا.

وفي نفس عام 1810 أوفد مالكولم في مهمة ثالثة وتم التصديق على المعاهدة التي عقدها هارفورد جونز، وعند استقالة مالكولم عام 1811 انتقل الإشراف على العلاقات الدبلوماسية إلى السير وليم أوسلي الذي قام بإبرام المعاهدة الفعلية مع فارس. وكان الغرض النهائي من تلك الاتفاقيات هو بعث التبادل التجاري البريطاني مع فارس بعد أن أصيب بالركود وإقامة علاقات دبلوماسية أوسع وأقوى.

في الوقت الذي كانت تلك التطورات تأخذ مجراها كانت فارس تواجه كارثة في حروبها مع روسيا، والتي انتهت أولها بهزيمة فارس عام 1812، ومعاهدة جولستان 1813. أما الحرب الأخرى التي فقدت فيها فارس المزيد من الأراضي في مقاطعتها الشمالية القريبة، كانت بمثابة الطامة الكبرى، وانتهت سنة 1828 بموجب معاهدتي تركمنشاي سنة 1828 وانكيار سكيليس (1833). وقد اتسمت تلك المرحلة بعداء متبادل بين إنجلترا وروسيا.

ولقد فتح انتصار روسيا ضد فارس وتركيا شهية أطماعها إلى المزيد من الفتوحات في الأقاليم الشرقية. وكان المخطط العام النهائي المرسوم لها ـ حقا أو باطلا ـ هو تحطيم كل من مملكتي أفغانستان

وفارس اللتين كانتا تشكلان حاجزا في طريقها إلى الهند البريطانية ولقد كانت أطماع روسيا التقليدية هي الوصول إلى المياه الدافئة وكانت المملكتان الطريق المؤدي إلى منطقة الخليج. وعلى أية حال فليس هذا مجال الاستفاضة في موضوع التوسع الروسي، فقد تناوله العديد من الكتاب ويمكن للقراء الرجوع إلى ما كتبوه حول هذه المسألة.

عند وفاة فتح علي شاه (1834) وخلافته من قبل محمد شاه تغير موقف حكام فارس تجاه بريطانيا تغيرا كليا. وبتشجيع من روسيا شن محمد شاه غزوا للحيرة رغم احتجاجات الوزير البريطاني المفوض في طهران باعتبار أن ذلك الأجراء الذي قام به صاحب الجلالة يشكل اجراء عدائيا ضد الهند البريطانية في نظر وزراء صاحبة الجلالة الملكة، وأنه يتعارض تماما مع روح وأهداف التحالف القائم بين بريطانيا العظمى وفارس.

على أن الهجوم على أفغانستان كانت له انعكاساته الفورية على شئون الخليج. وبما أن الاحتجاج قد فشل، فقد قامت قوة عسكرية بريطانية باحتلال جزيرة خرج سنة 1838، واستمر ذلك الاحتلال إلى أن رفع الشاه حصاره عن الحيرة سنة 1842، وقد تم نقل الممثلين البريطانيين من بوشهر إلى تلك الجزيرة مؤقتا. وبعد انسحاب بريطانيا من الجزيرة وضعت فارس قوات نظامية فيها وبالتالي فقد نزح السكان ولم يعودوا إلا بعد انسحاب الحامية من الجزيرة.

في عام 1856 احتل البريطانيون جزيرة خرج مرة أخرى خلال الحرب التي نشبت بين بريطانيا وفارس حول موضوع الحيرة أيضا. وفي الجولة الثانية كانت العمليات العسكرية تنطلق من بوشهر. غير أن الحرب انتهت مبكرا نظرا لانهيار المقاومة الفارسية.

أما الأحداث الهامة المرتبطة بالخليج فهي احتلال مدينة ريشاهر

يوم 9 ديسمبر سنة 1856 وبوشهر يوم 10 ديسمبر، وهزيمة الفرس في خشاب يوم 8 فبراير سنة 1857، ثم قصف واحتلال المحمرة بعملية بحرية يوم 26 مارس. وللاطلاع على معلومات وافية حول هذا الموضوع فإننا نحيل القارئ إلى مذكرات اللفتنانت جنرال السير اوترام عن الحملة الفارسية عام 1857 وهي تتضمن تقارير وتعليمات عن العمليات العسكرية في فارس ابتداء من نزول القوات حتى توقيع معاهدة السلام في باريس يوم 4 مارس 1857 والتي تعهدت فارس بموجبها بالامتناع عن التدخل في الشئون الداخلية لأفغانستان. وعندما وضعت تلك الحرب أوزارها استؤنفت العلاقات بين بريطانيا وفارس على أسس ودية مما مهد الطريق لإقامة نظام الاتصالات السلكية وغيرها من الإصلاحات.

في سنة 1846 اعتلى ناصر الدين شاه عرش فارس، وظل في الحكم حتى عام 1896. أما العلاقات السياسية بين فارس وروسيا خلال حكم هذا الشاه فانها تتميز بأحداث هامة. غير أنه في نهاية تلك الفترة اتضح أن هناك نفوذا وضغطا متزايدين للروس في شمال فارس، رغم أنه كان نفوذا تجاريا أكثر منه عسكريا.

وقد استمر التنافس البريطاني الروسي في الخليج، وكان يحتد أحيانا غير أن الصبغة التي اكتسبها ذلك الصراع كانت في مظهرها اقتصادية، وأن التفاهم البريطاني الروسي امتد لسنة 1834 لاحترام استقلال ووحدة أراضي والذي كان لا يزال ساري المفعول بل أكد الطرفان تعزيز ذلك الاتجاه في سنة 1888.

في أعقاب حرب القرم انتهجت روسيا سياسة التوسع في آسيا إلا أن تقدمها نحو الشرق ونحو الجنوب على ما يبدو لم يكن يثير اهتمام فارس لفترة من الوقت. وعلى أية حال ففي سنة 1869 أدت التحركات الروسية عبر السواحل الجنوبية لبحر قزوين إلى نشوب خلاف بين فارس

وروسيا حول الحدود في تلك المنطقة وأصبحت فارس منذ ذلك الوقت على حذر شديد في تعاملها مع الجارة الشمالية.

ويمكننا أن نشير إلى الاجراء الذي اتخذته روسيا من موضوع إنشاء خطوط حديدية في فارس خلال السنوات الأخيرة من حكم ناصر الدين كبرهان على موقف روسيا في المسائل التجارية والاقتصادية.

ففي عام 1887 أرغم الوزير الروسي المفوض في طهران الشاه على الموافقة بعدم السماح بإنشاء خطوط سكك حديدية أو قنوات مائية لأية شركة أجنبية دون استشارة مسبقة لروسيا. وقد انتزع هذا الاتفاق عن طريق التهديد بأنه في حالة منح امتياز من هذا النوع لأية جهة أجنبية فان حكومة القيصر قد تنسحب من موقفها كضامن لوحدة أراضي فارس، والواقع أن ذلك الاجراء كان موجها بشكل صريح ضد مشروع بريطاني بإنشاء خط حديدي بين الأهواز وطهران.

وكرد على افتتاح نهر قارون الأسفل للملاحة سنة 1888 والذي اعتبر انتصار سياسيا وتجاريا لبريطانيا، قام الوزير الروسي المفوض في طهران سنة 1889 بالحصول على تعهد كتابي من الشاه بمنح إحدى الشركات الروسية الحق في القيام بإنشاء خطوط سكك حديدية في فارس، ووفقا لما تم عليه الاتفاق فان على فارس أن تمتنع خلال تلك الفترة من منح أية شركة امتياز من ذلك النوع.

أما بشأن ما استجد من أحداث في منطقة الخليج. فقد ظهرت بوادر نشاط روسي في الثمانينات. ففي سنة 1877 زار بعض الضباط الروس العاملون مع الشاه أصفهان وشيراز وبوشهر، ومن الواضح أن الزيارة كانت رحلة لتفقد تلك المناطق. كدليل آخر على الأهمية الاستراتيجية التي كانت تعلقها روسيا حول المضيق المؤدي إلى داخل الخليج هو الزيارة التي قام بها أحد المهندسين الروس إلى هرمز عن

طريق بندر عباس. وقد قام بمسح للجزيرة، وبعد سفره بيومين صرح بأن الجزيرة سوف تسلم إلى روسيا لإقامة مستودع للفحم.

وفي سنة 1896 انتشر وباء الطاعون في الهند وقد رأت روسيا في ذلك ذريعة للتدخل في شئون فارس بتعيين وكلاء صحيين في سنة 1897 بحجة دراسة حالة الوباء في بوشهر في الظاهر بينما في الحقيقة لم يكن هناك أي وجود للوباء فيها. وفي سنة 1898 ـ 99 حل محل هؤلاء مسئولون روس آخرون. ومن المهم في هذا الصدد أن نشير إلى نوايا روسيا في مضيق هرمز، كما سبق أن ذكرنا أن ذكرنا أن جميع هؤلاء الأطباء كانوا يقومون بزيارات لبندر عباس والبصرة.

في عام 1898 اتخذ القنصل الروسي في بغداد اجراء فيما يخص مشروع بناء ميناء وقاعدة بحرية روسية في الخليج، كما قدم الكونت كبنست وكان من كبار المسئولين الروس طلبا إلى الباب العالي لإنشاء خط سكك حديد من طرابلس في سوريا إلى الكويت وكانت الأخير على ما يبدو هي الهدف من ذلك المشروع.

ويمكننا أن نسترسل في ضرب الأمثلة عن صراع المصالح بين روسيا وبريطانيا في الخليج، غير أننا تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذا الموضوع، وخلاصة القول أن العداء بين الدولتين كان عداء حقيقيا ومستحكما ولم يخف بمرور الزمن، ويمكن للمهتمين أن يعودوا إلى هذا الموضوع في عدد من المؤلفات التي تناولتها بالتفصيل. ونكتفي هنا إلى أن نشير إلى أنه تم التوصل في عام 1907 إلى تفاهم بين الدولتين غير أن بحث هذا الاتفاق خارج عن إطار هذا الكتاب.

وقد أعرب ناصر الدين شاه شأنه شأن سلفه نادر شاه عن رغبته في امتلاك قوة بحرية في الخليج، وفي عام 1865 فكر في شراء ثلاث أو أربع بواخر مسلحة على أن يقودها ضباط من الأسطول البريطاني،

ويديرها بعض العرب والهنود وذلك للقيام بأعمال الحراسة في مياه الخليج، غير أن المشروع لم يتحقق.

وبعد خمسة عشر عاما من ذلك التاريخ اقترح البعض على الشاه بأنه إذا أمكن تنظيم رقابة على الساحل الفارسي وممارسة السيطرة على موانئها فإن دخل الجمارك سوف يتضاعف، وقد تقرر تبعا لذلك أن تشتري الحكومة الفارسية سفينة في كل عام وأن تبني أسطولا لاستخدامه في مياه الخليج، وبالتالي فقد أوصت حكومة فارس أحد المصانع الألمانية ببناء سفينتين لها، وقد وصلت السفينة الأكبر التي سميت بريسبوليس حمولة 600 طن وقوة 450 حصانا ومسلحة بأربعة مدافع ماركة كروب إلى بوشهر عام 1885.

ووصلت الثانية سوسه بعد ذلك مباشرة، غير أنها أرسلت على شكل أجزاء تم تركيبها في ميناء المحمره. أما السفينة الأولى فقد استخدمت للأغراض الإدارية في الخليج بينما عملت السفينة سوسه في نهر قارون كسفينة بريد وذلك بناء على طلب حاكم عربستان. وفيما عدا ذلك فإن مشروع الأسطول الفارسي لم يتبلور على الإطلاق.

كرسنا في هذا الكتاب حيز كبيرا لنشاط شركة الهند الشرقية، والواقع أن الجانب الأكبر من تاريخ الخليج كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتلك الشركة. وتجب الملاحظة أنه في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، مر وضع شركة الهند الشرقية في الشرق عامة بتغيرات كبيرة، فحتى ذلك الوقت كانت الشركة تحتكر التجارة وحدها.

وفي البداية كانت الشركة مؤسسة تجارية بحتة، كما أشرنا سلفا، ولكنها تطورت تدريجيا واكتسبت طابعا سياسيا بعيد المدى. وفي سنة 1784 صدر قانون في الهند تشكلت بمقتضاه هيئة إدارية للإشراف السياسي والعسكري والمالي على الممتلكات البريطانية في الهند نيابة عن الحكومة البريطانية.

ومنذ ذلك التاريخ انتقل توجه السياسة البريطانية بشكل قاطع من الشركة إلى الحاكم العام في الهند وإلى مجلس الوزراء في لندن. وبعد مراحل أخرى لا تدعو الإشارة إليها هنا. وبموجب مرسوم ايرل جرى سنة 1833 جردت الشركة من احتكارها لتجارة الشرق، ولم تعد مؤسسة تجارية وأصبحت تمارس وظيفة إدارية فقط. ومثل هذا الوضع لم يكن بطبيعة الأشياء من الممكن أن يستمر، ثم ان طوفان تمرد الهند المشهور قد أعقبه نقل الإدارة في الهند من الشركة إلى الدولة، كما صاحبه تقليص لنشاطات الشركة في الخليج نفسه، واعتباره منطقة مفتوحة لكل القادمين من أجل التجارة.

وكانت القيود التي فرضتها حكومة بومباي كطبقة في مسقط منذ سنة 1805 ثم جددت في سنة 1809 وعلى كل حال فان خطر الاشتغال بالأعمال التجارية على جميع المسئولين من مختلف الرتب والمواصفات لم يطبق بصورة قاطعة قبل عام 1784. وبعد ذلك التاريخ لم نسمع عن أي إشارة إلى نشاط شركة الهند الشرقية في الخليج في نطاقها التجاري فقد اتخذ النفوذ البريطاني في الخليج تدريجيا طابعه السياسي.

لابد هنا من لمحة قصيرة لدور الأسطول البريطاني في الخليج الذي لم يعد له وجود في عام 1863. ان هذه القوة هي من صنع شركة الهند الشرقية. ففي بداية ظهور الشركة، أي منذ الوقت الذي ركزت نفسها فيه في الهند وأقامت لها مراكز تجارية في سوراث وغيرها من مدن الهند، اضطرت في عام 1615 تقريبا إلى إنشاء وتجهيز أسطول صغير من السفن والمراكب لتوفير الحماية للشركة ممن اعتداءات البرتغاليين وسفنهم التجارية، ومن القراصنة الذين كانت تعج بهم البحار الشرقية. ومن هذا المنطلق تم تشكيل «البحرية المحلية في سوارث». وفي عام 1668 عندما استولت شركة الهند الشرقية رسميا على بومباي بقرار من التاج سمي أسطول الشركة الذي أصبح قويا من ذلك الوقت، «بحرية

بومباي» ثم بمضى الوقت تحول إلى الأسطول الهندي.

وقد عاش هذا الأسطول قرنين من الحياة المجيدة، وذلك أن طبيعة العمل الذي أوكل بها إليه، والدور العظيم الذي أداه والمصاعب التي عاناها لا يوجد وصف أصدق لها مما كتبه عنه لو.

«لقد كان مجال نشاط الأسطول الهندي متشعبا، كما أن العمليات التي كان يقوم بها لم تكن هامة دائما، وبالتالي فان نتائجها كانت محدودة بالنسبة لمصير العالم. وأنه لعمل مجيد وأقل عناء أن يساهم المرء في أحد الصراعات الأوربية العظيمة، وبكل تلك الحوافز على مرأى من العالم. ويتلقى الثناء والإعجاب من ملك وشعب مستعدين دائما لذكر المنتصرين بعبارات الإطراء والثناء والإعجاب».

«ان ذلك أجدى من الاشتراك في حروب صغيرة كالتي سنشير إليها ـ والتي أصبحت الآن في طي النسيان، حروب تدور رحاها في ممر أو خليج مجهول وفي ظل مناخ قاتل ضد عدو متعطش للدماء، ومع الاعتقاد بأن من يبقى على قيد الحياة لا يكرمون بل يحملون معهم جراثيم الأمراض التي تفتك بهم وهم في ريعان الشباب».

كما أشاد بدور هذا الأسطول اللورد كيرزن الذي قال:

«بأن الشجاعة النادرة لرجال الأسطول في عصر كان يتعين على رجال التجارة بأن يشهروا السيف كما يشهروا القلم والسلع التجارية واسم بريطانيا عاليا إلى مناطق كانت تتطلب منهم المجازفة مما أدى إلى وفاة الكثيرين منهم».

لقد هيأ الخليج ميدانا جديدا لأولئك الرجال الأشداء لإظهار الخصال والمزايا التي تعبر عن روح المغامرة والمهارة بنفس المستوى الذي أظهروه على السواحل الغربية للهند.

عند تسريح الأسطول الهندي انتقلت أعماله وواجباته إلى سفن الأسطول الملكي، غير أنه مضت سنوات عديدة قبل التوصل إلى طريقة مرضية للعمال عانت خلالها المصالح السياسية البريطانية من جراء ذلك. وأخيرا في عام 1871 تمت الترتيبات التي أمكن بمقتضاها إيجاد طريقة للتعاون بين الأسطول الملكي والسلطات المسئولة في الهند.

ان أي بحث في شئون الخليج لن يستوفي غرضه دون إعطاء نبذة عن أعمال المسح ـ البحرية والنهرية والبرية ـ والتي صممت ونفذت خلال القرن التاسع عشر بالجهد والعمال البريطانيين. فقبل تلك العمليات كانت الخرائط الموضوعة عن الخليج غير موثوقة. وقد قام اللفتنانت جون مكاوير بتصحيح تلك الخرائط، كما أنه أثناء قيامه بأعمال البحث وضع تصميمات للعديد من أجزاء الساحل لتسهيل الملاحة، كما كتب توجيهات مقيدة حول نفس الموضوع. وكانت النتيجة وضع خريطة كاملة للساحل الشمالي الغربي للخليج وشط العرب، غير أن الساحل الجنوبي العربي بقي في معظمه مجهولا تقريبا للملاحين الأوربيين.

أكدت القرصنة التي كانت نشطة في المنطقة الحاجة إلى معرفة الامتدادت الدقيقة للخط الساحلي معرفة كاملة. وقد بذلت محاولات للمسح ابتداء من 1811 فصاعدا غير أن الخطر من القراصنة حال دون تنفيذ ذلك. ولم تسمح الظروف قبل عام 1820 بمتابعة اعداد الحملة الناجحة الثالثة ضد القراصنة من القيام بمسح دقيق للسواحل الجنوبية والغربية للخليج ابتداء من رأس مسندم.

ان إنجاز ذلك العمل في وجه صعوبات بالغة مناخية وغير مناخية يرتبط بأسماء منوهان وجيني وبروكس الذين أنهوا عمليات المسح للساحل الغربي في سنة 1825، ثم بدأ هينز في عمليات مسح خليج عمان وساحل مكران امتدادا لكراتشي وانتهت في سنة 1829.

ان عمليات المسح المبكرة هذه كانت شاقة ومهمة نظرا لصغر حجم السفن المستخدمة وعدم صلاحيتها للظروف المناخية للمنطقة، بحيث أن عددا كبيرا من الضباط البريطانيين الذين اشتركوا فيها ماتوا أو انهارت صحتهم بسبب المناخ والإرهاق.

لقد بدأ مسح الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية من جانب هنز من سنة 1833 ولكنه توقف في عام 1837، وخلال الحرب في أفغانستان (1839 ـ 1844) لم تكن هناك أعمال مسح إطلاقا من جانب الأسطول الهندي، على الرغم من أنه أثناء احتلال جزيرة خرج تم اعداد تقرير عن مرفأ الكويت.

وفي سنة 1857 ترتب إعادة النظر في أعمال المسح العديدة (بين سنة 1820 وسنة 1828) وقد قام بذلك أحد الضباط، وكان يساعده ستيف وانتهى العمل منه في سنة 1860 وكانت النتيجة خريطة عامة للخليج في لغتين، وكانت تلك الخريطة على جانب من الدقة. وفي نفس الفترة تقريبا قام أوبش بمسح لمرفأ البحرين.

وبعد تسريح الأسطول الهندي لم تجر أعمال مسح جديدة حتى عام 1871. وفي ذلك الوقت وبالتشاور مع الكولونيل بيلي أوفد المقيم السياسي البريطاني في الخليج ضابطا من الأسطول الملكي بمسح شامل لمياه البحرين وقطر وخور الحجر وبهمشير. وتبين استحالة الملاحة في الميناء الأخير. وقد أقيمت محطات بريطانية لرصد حركة المد والجزر في بوشهر ومسقط في التسعينات كما تمت عمليات رصد تلغرافية في محطتي بوشهر وجاشك لتحديد خطوط الطول.

ولم يتم شيء حتى زيارة اللورد كيرزن للخليج سنة 1909 التي أعطت دفعة جديدة للموضوع، وفيما بين ذلك العام وعام 1914 تم اجراء أعمال مسح تفصيلية ذات طابع محلي ولكنها كانت ذات قيمة عظيمة. والفضل يعود إلى المبادرة البريطانية في رسم الخرائط التي

وضعت عن الخليج، والمتاحة لكل الدول والأقطار والتي بالرغم من أنها ليست خرائط كاملة إلا أنها لا تقل عن أية خرائط لمناطق غير خاضعة للسيطرة الأوربية.

المواصلات في الخليج:

المشروع الذي كان يحتل الصدارة في أذهان الكثيرين خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر هو إنشاء خطوط مواصلات مباشرة بين منطقة البحر المتوسط والخليج يربطها بخطوط سكك حديدية أو مواصلات نهرية أو بكليهما، وبعبارة أخرى هو تحسن الاتصالات بين إنجلترا والهند.

وقد وردت تفاصيل المقترحات والمشروعات العديدة للمشروع في عدد من المؤلفات، ونكتفي بالقدر اليسير من النقاط الرئيسية في هذا المجال. في عام 1835 غادرت بعثة على أعلى مستوى برئاسة الكولونيل اف. ار شيزني إنجلترا إلى العراق التركية للقيام باختبارات (بعد أن تم الحصول على الموافقة على سفرها من الباب العالي وخصص البرلمان البريطاني لها 20,000 جنيه وساهمت شركة الهند الشرقية بمبلغ 5000 لأجل الملاحة التجارية في مياه الفرات).

وفي سنة 1835 ـ 1836 أنزلت سفينتان من هذا النوع في المجرى العلوي للنهر ولكن إحدى السفينتين فقدت بسبب هبوط عاصفة أما الأخرى فقد عملت في مياه الفرات ودجلة وشط العرب وقارون.

وفي أواخر عام 1836 أسفرت التجربة لإدخال وسائل النقل السريعة بين إنجلترا والهند عن تجربة غير ناجحة، غير أن عمليات المسح التي قام الكولونيل شيزني لأنهار العراق الثلاثة كانت تشكل خطوة هامة في التطور الجغرافي للمنطقة، أما طريق البحر الأحمر فقد بقي طريقا مألوفا، باعتباره أصلح لنقل المسافرين وحمولات السلع الثقيلة إلى الشرق عن الطريق البري.

ولقد استمرت عمليات المسح النهري والبرية التي بدأتها بعثة شيزني بمزيد من الإمكانيات لفترة تربو على العشرين عاما، وكان يقوم بها ضباط الأسطول الهندي العاملون في أسطول العراق، بل قد امتدت تلك العمليات إلى عربستان وحدود فارس، ولعل أهم تلك العمليات عملية القائد فليكس جونز (1843 ـ 1854) التي قام بها على المشارف العلوية لنهر دجلة، وقد أمدنا هذا القبطان برواية ممتعة وكاملة عن تجاربه في هذا الشأن.

أما تاريخ ماتم إحرازه من تقدم من خلال ما ساهم به الرحلة من معلومات عن المناطق الواقعة على الجانب العربي للخليج حتى مستهل القرن العشرين، فقد وردت في تقارير الدكتور هوجارت ولا داعي إلى إعادة ذكرها هنا أما في فارس فقد ساهمت عمليات المسح التي أجريت لإنشاء خطوط تلغرافية للبلاد وفي وضع خرائط أكثر دقة لتلك المنطقة فالمسح الذي تم لمد تلك الخطوط وتجديد خطوط الطول التلغرافية في العديد من المناطق قد شمل مناطق جنوب ووسط فارس بشبكة من طرف المسح مرقمة بعلامات دقيقة جداً، وأسفرت في عام 1873 ـ 1874 عن صدور ونشر أهم الخرائط التي وضعت عن فارس من قبل الكابتن أو. بي. سي. سينت جون.

أما بالنسبة للملاحة التجارية المنتظمة في أنهار العراق فقد سارت الأمور ببطء شديد. وكانت السفينة سيتي أوف لندن هي أول سفينة تعمل في نهر دجلة ابتداء من عام 1861 وتتبع الشركة البريطانية لينش وشركاءه. وكان عمل تلك البعثة هو نتيجة لبعثة شيزني في سنة 1835 ـ 1836. وقد ظلت الملاحة التجارية لدجلة والفرات رغم معارضة الحكومة التركية سابقا لتلك الشركة.

أما نهر قارون فقد أخذ يستقطب اهتمام بريطانيا بشكل خاص في

الثمانينات من القرن عندما تبينت أهميته كقناة للمواصلات المؤدية إلى داخلية البلاد. وقبل ذلك بوقت مبكر جداً ظهرت أهمية الهند كطريق تجاري ومنفذ إلى مدن ومراكز زراعة الحبوب في غرب فارس وكمفتاح للتجارة البريطانية والتجارة البريطانية الهندية، وذلك من خلال كتابات لايارد واللفتنات سلبي الأول بحكم صلاته الوثيقة بمحمد تقي خان زعيم قبائل البختياري وبتجار سشتار، وبذلك ضمن موافقة الحكومة الفارسية على المشروع.

وقد رفع لايارد تقريرا إلى الحكومة البريطانية حثها فيه على سرعة الاستفادة من تلك الفرصة المتاحة. غير أن الاضطرابات السياسية في فارس حالت دون تنفيذ المشروع، ولم تسمح الظروف للبدء في مناقشة مشروع افتتاح نهر قارون للملاحة بين لندن وطهران قبل مضي 30 عاماً أعقبتها سبع عشرة سنة أخرى من الأخذ والرد الدبلوماسي بين الحكومتين قبل أن يصدر مرسوم بتسوية تلك المشكلة في عام 1888 والذي بموجبه تمت الموافقة على فتح الجانب الأسفل من نهر قارون إلى الأهواز لسفن العالم.

ان هذا الإنجاز بجوانبه الثلاثة الجغرافي والسياسي والتجاري قد تحدث عنه في إعجاب اللورد كيرزن الذي وضع فهرساً كاملاً بأسماء الكتاب والمؤلفين البريطانيين الذين أعطوا ـ من وجهات نظر مختلفة ـ آراءهم في موضوع نهر قارون والمقاطعة المحيطة به.

والشركة البريطانية الوحيدة التي استفادت من ذلك الامتياز هي الشركة البريطانية للملاحة في دجلة والفرات التي ظلت تمارس عملها بالفعل لفترة تزيد على ربع قرن في مياه دجلة. وقد قدمت الحكومة دعما للشركة لتمكينها من الاستمرار في عملها في وجه صعوبات بالغة. وقد تنوعت الصعوبات فشملت عراقيل رسمية من جانب الحكومة والتزاما

باسم الشاه بالاحتفاظ بمشروع ثبت أنه غير مريح في الجهة العليا من نهر قارون بالإضافة إلى التعصب الإقليمي والطائفية.

وعلى أية حال فان التجارة الخارجية لمنطقة نهر قارون قد تطورت ببطء وأمكن الاحتفاظ بالمرفق بصورة منتظمة. وفي عربستان أنشئت قنصلية بريطانية يرأسها نائب قنصل في المحمره في سنة 1890 وإدارة بريد بريطانية في سنة 1894.

وعلى الرغم من أن العديد من المقترحات والمشروعات الأولية لوضع إنجلترا في عملية اتصالات مباشرة بمستعمراتها الشرقية عن طريق السكك الحديدية والموصلات النهرية قد ثبت فشلها، إلا أن الحاجة إلى مواصلات تلغرافية لتحل محل (البريد الصحراوي) البطئ عن طريق العراق أصبح أمرا ملحا في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أتضح تماما خلال تمرد الهند كيف أن الحكم البريطاني فيها في حاجة إلى مثل تلك الاتصالات، وبالتالي فقد قررت الحكومة أخيرا أن تولى هذا الأمر أهمية عاجلة. وتقرر في البداية مد كابل إلى الشرق عن طريق البحر الأحمر، غير أنه بعد فشل عمل ذلك الكابل إلى الشرق عن طريق البحر الأحمر، غير أنه بعد فشل عمل ذلك الكابل سنة 1860 أصبح من الصعب تأسيس شركة أخرى لنفس الغرض لأن ثقة الجمهور في نجاح أي مشروع قد اهتزت.

ومن ثم فقد تولت الحكومة بنفسها الأمر وأثبتت التحقيقات وعمليات المسح المكثفة أن الخليج هو المنطقة البديلة لمد ذلك الخط. وبما أن الخط الأرضي التركي الممتد من القسطنطينية إلى البصرة والذي يعمل بالاشتراك مع النظام الأوربي للتلغراف، تم توصيله حتى بغداد، وتجديده إلى منطقة الفاو في رأس الخليج، وتمديد خط آخر من هناك إلى كراتشي فسوف يتم ربط الشرق باتصالات مباشرة مع الغرب.

ونظرا لأن الخط من بغداد إلى الفاو لا بد أن يمر بمنطقة تسكنها قبائل المنتفك العربية التي كانت في حرب مستمرة مع الحكومة التركية وعلى خلاف مع الحكومة المحلية ـ فقد تقرر مد خط من بغداد عبر كرمنشاه، وطهران، وأصفهان وشيراز إلى بوشهر بحيث يتم ربطه في المنطقة الأخيرة بالكابل البحري في الخليج. وقد تم الحصول على الامتيازات المطلوبة لهذا الخط من الحكومة الفارسية بعد مفاوضات طويلة.

لقد تحدث غيري بالتفصيل عن تاريخ المراحل المتعاقبة التي قطعها مشروع إنشاء مواصلات تلغرافية فعالة بين أوربا وآسيا عن طريق الخليج من كافة زواياه، ومن ثم قمت بتخليص ما تم إنجازه في هذا المجال. أما المعاهدات والاتفاقيات العديدة التي وقعت مع حكومة فارس اعتبار من سنة 1863 ومع سلطان عمان ابتداء من 1864 والتي حصلت بريطانيا بموجبها على الامتيازات اللازمة فيمكن الاطلاع عليها في (مجموعة اتيشيسون للمعاهدات».

أما فيما يختص بالكابلات والخطوط الأرضية التي كانت تديرها الهيئة الهندية ـ الأوربية للتلغراف في سنة 1927 فمدرجة أدناه.

1 ـ كابل تلغرافي من كراتشي إلى جاسك افتتح عام 1868 ومداه 828 ميلا ومزود بمحطتين إحداهما في كراتشي والأخرى في جاسك.

2 ـ خط أرضي بسلكيين من كراتشي إلى جاسك، وتم افتتاح جزئه الممتد من كراتشي إلى جواذر سنة 1864 ومن جواذر إلى جاسك ومداه 700 ميل وله محطات في كراتشي، واورمارا، ويسيني وجواذ وشهبار وجاسك.

3 ـ كابل من جاسك إلى هنجام وافتتح عام 1904 ومداه 136 ميلا ومزود بمحطتين إحداهما في جاسك والأخرى في هنجام. وقد تم

مد هذا الخط أساسا في عام 1869 كجزء من كابل بين جاسك وبوشهر.

4 ـ كابل من هنجام إلى بوشهر افتتح عام 1904 ومداه 380 ميل وله محطة في هنجام وأخرى في بوشهر، وهذا يشكل جزءا من كابل مباشر بين جاسك وبوشهر وتم تمديده عام 1869. ومن مكتب بوشهر تمتد خطوط أرضية قصيرة داخلية إلى الممثلية البريطانية ومكتب التلغرافات الفارسية في بلدة بوشهر وإلى منزل المقيم السياسي البريطاني في سبزباد.

5 ـ خط كابلي مباشر من جاسك إلى بوشهر وافتتح سنة 1885 ومداه 150 ميلا وله محطتان واحدة في بوشهر والثانية في الفاو.

6 ـ خط كابلي وأرضي من هنجام إلى بندر عباس، يخترق قشم وانتهى العمل فيه سنة 1905 ومداه 17 ميلا ومدى الخط الأرضي 31 ميلا.

7 ـ كابل من جاسك إلى مسقط وافتتح سنة 1901 مداه 220 ميلا وزود بمحطتين في كل من مسقط وجاسك.

لقد واجه العاملون في تمديد الخطوط وصيانتها صعوبات كبيرة كان لابد من التغلب عليها لتنفيذ المشروع. فعلى الجانب الشرقي من دجلة والخليج، كانت هناك سلاسل من الجبال على امتداد الشمال الغربي والجنوب الشرقي فقد كان لا بد من المرور عبرها كما كان يتعرض المسطح الأرضي عدد من المرتفعات والكتل الصخرية.

وإلى جانب كل ذلك كانت درجة الحرارة على السهل هي ما يمكن أن يتوقعه الإنسان في مناطق قريبة من خط الاستواء، أي حار وجاف في الصيف وبارد وثلجي في الشتاء.

كما يمر الخط بعدد من الممرات على ارتفاعات تصل إلى 8000

قدم فوق سطح البحر حيث البرد قارس جدا في الشتاء وحيث يمكن أن تشل الثلوج العربات المتحركة ! كما لم تكن هناك طرق معبدة والعربات المتحركة لم تكن معروفة على الإطلاق. وأغلب المناطق التي تمر منها الخطوط تسكنها قبائل هوجاء متنقلة ترى في عملية السطو واللصوصية عملا شرعيا لتأمين متطلباتها الضرورية.

وكانت أكبر مشكلة واجهها العاملون هي إنزال الكابل الأول في الفاو نظرا لطبيعة الساحل الشاذة في تلك المنطقة.

ولقد تم الآن إنشاء محطات لا سلكية في هنجام والبحرين وبوشهر ولنجه وأيضا في البصرة وعبادان، وأثبتت تلك المحطات قيمتها وأهميتها القصوى بالنسبة للسفن والتجار ورجال الأعمال.

تجارة الأسلحة:

بعد أن نجحت بريطانيا في الثمانينات من تصفية تجارة الرقيق بعد جهود مضنية وتضحيات كثيرة، وجدت نفسها أمام مشكلة أخرى أكثر خطورة ونعني بها انتشار وتوزيع الأسلحة بين سكان ساحل الخليج. ولقد بدأت تلك التجارة غير المشروعة ببداية متواضعة غير أنها مع مرور الوقت اكتسبت طابعا خطيرا جداً، وتخطت كل المشاكل الأخرى في المنطقة.

وخلال الحرب الأفغانية الثالثة 1879 ـ 1880، تبين أن شحنات كبيرة من الأسلحة التي تم تصديرها من الهند عن طريق فارس وصلت إلى القوات الأفغانية في الحيرة، كما اكتشفت حركة مبيعات سلاح صغيرة في نفس المنطقة.

ورغم القيود التي فرضتها حكومة بومباي، ورغم الحظر الذي أصدره الشاه على استيراد الأسلحة إلى فارس فان تدفق الأسلحة قد استمر دون رادع إلى المحمرة.

وفي سنة 1881 تم اكتشاف أحد المحلات التي تتعامل في السلاح في بوشهر، وكانت العمليات محدودة النطاق في البداية غير أن ذلك المحل قد حقق أرباحا شجعت محلات أخرى في الخليج على أن تحذو حذوه.

وقد أثبتت قوانين الحظر التي كانت تصدر في فارس عدم فاعليتها، كما أن تجارة السلاح في بوشهر كانت تلقى تشجيعا من المسئولين عن الجمارك الفارسية، الذين بالرغم من رفع الرسوم الجمركية عليها كانوا يعتبرونها تجارة مشروعة. وكنتيجة لذلك فقد أمكن تسليح قبائل فارس وعربستان بأسلحة أفضل من أسلحة الجنود الفرس أنفسهم. والواقع أن تلك التجارة في مجملها كانت تجارة بريطانية، فالسفن التي كانت تنقلها سفن بريطانية والمؤسسات التي كانت تتعامل فيها في فارس كانت مؤسسات بريطانية أيضا.

وكان مستحيلا وغير مرغوب فيه أن تقوم الحكومة البريطانية بالضغط على مواطنيها قبل أن يتضح موقف الحكومة الفارسية من المشكلة، لأن مثل ذلك التدخل سوف ينقل تجارة الأسلحة إلى الشركات الفرنسية أو الألمانية في القارة مما سوف يشكل إحراجا دبلوماسيا للحكومة الفارسية. ولهذا فقد أدركت حكومة بريطانيا انه لا جدوى من إصدار قانون سابق لأوانه مع العلم بأنه إذا ما أقدمت الحكومة الفارسية على حظر تجارة الأسلحة رسميا، فان الحكومة البريطانية تستطيع في تلك الحالة أن تمارس الضغط الفعال على شركاتها دون أن تطالب حكومة فارس بأي تعويض لتلك الشركات.

بحلول عام 1897 بلغت تجارة الأسلحة في بوشهر ابعاد خطيرة بحيث قدرت قيمة الأسلحة المستوردة إلى بوشهر 100,000 جنيه إسترليني. وبما أن ذلك الوضع قد أثار الفزع في أوساط حكومة فارس

مما اضطرها إلى اتخاذ خطوات فعالة لحظرها وعقدت اتفاقا مع حكومتي بريطانيا وعمان التي تصاعدت فيها حركة تجارة السلاح أيضا، بحيث وصل إليها ما لا يقل عن 11500 قطعة سلاح فيما بين عامي 1890 و 1892 لقمع تلك التجارة.

وبالرغم من أن تجارة السلاح في عمان بدأت متأخرة، إلا أنها فيما بعد تصاعدت إلى حد خطير، وأخيرا تركزت هناك. غير أن سلطان عمان لم يبذل جهدا كبيرا في تطبيق الاتفاق المعقود مع الحكومة البريطانية تطبيقا حرفيا، فقد أصدر منعا لتصدير الأسلحة من مسقط إلى أفريقيا الشرقية، إلا أنه رفض أن يوافق على تفتيش السفن والمراكب العمانية ـ وهو الاجراء الفعال الوحيد لقمع تلك التجارة، وظل القرار حبرا على ورق.

أما تجارة الأسلحة فقد واصلت تصاعدها واتساعها حتى عام 1897، حيث بلغ عدد البنادق التي استوردت 20,000 قطعة، وكان يتم تصريف بعضها بين قبائل عمان الداخلية، إلا أن القسم الأكبر كان يعاد تصديره إلى ساحل عمان والبحرين وقطر والكويت حيث يتم تهريبه إلى فارس والأراضي التركية حتى أصبحت المنطقة كلها مغطاة بأحدث أنواع الأسلحة الحربية.

وأخيرا اتخذت إجراءات ردع حاسمة، فقد اضطرت الحكومة الفارسية في سنة 1898 إلى اتخاذ خطوات صارمة وفعالة لقمع تجارة السلاح في المنطقة، كما اتخذ سلطان عمان إجراءات مماثلة.

وهكذا تصرفت الحكومة الفارسية بطريقة حاسمة، وقامت بمصادرات للأسلحة في بوشهر بصفة رئيسية، الأمر الذي أدى إلى وضع نهاية لتلك التجارة، باستثناء عمليات التهريب الصغيرة. كذلك عهد إلى الزوارق البريطانية المسلحة القيام بدوريات في مياه الخليج وتمت

مصادرة كميات كبيرة من الأسلحة في العديد من المناطق.

واعتبارا من سنة 1898 تركزت تجارة السلاح بشكل كلي في مسقط، إذ لم يعد ميناء مسقط مركزا لتجارة السلاح والذخيرة في عمان فحسب بل كانت شحنات الأسلحة تصدر منه إلى سواحل فارس وإلى أفغانستان. وكان معظمها في أيدي الفرنسيين بالاشتراك مع الألمان لأن تجار الأسلحة البريطانية منعوا من الاشتراك فيها بأمر من حكومتهم.

ولاستقصاء تجارة السلاح على امتداد الخطوات التي اتخذت في أواخر القرن التاسع عشر لوضع حد لتلك التجارة تجدر الإشارة إلى الإجراءات المشددة التي اتخذت في سنة 1912 عندما تم إنشاء مستودع للأسحلة في مسقط، غير أن صفقات البيع سواء فيما يتعلق بالاستيراد أو التصدير قد أخضعت لرقابة حكومية مباشرة، وبالرغم من ذلك الاجراء فإنه لم يؤد إلى وضع نهاية حاسمة لتلك التجارة، إلا أنه حد منها كثيرا، بحيث لم يعد لها وجود الآن.

ان الالتزامات المفروضة على مؤلف هذا الكتاب بحكم علاقته الرسمية بالخليج تقتضي في كافة الأحوال، أن نختتم هذا الموجز الطويل لتاريخ المنطقة. ولعلنا نتذكر ما قاله أرسطو من «أن العمل الدرامي له نهاية، أما الملحمة فهي بتاريخ المكان فقط».

وانني لا أخشى أن يتصور القارئ في نهاية هذا الكتاب أن مسار الوجود البريطاني في الخليج قد تضاءل في السنوات الأخيرة بدلا من أن يقوى.

لقد كان دورنا بهذا الشكل:

لقد حافظنا على الأمن والنظام، وبذلك ساهمنا في تنمية التجارة ورفعنا من مستوى معيشة السكان، وبالتالي فقد شجعنا التعليم والثقافة،

وبذلك ساهمنا في نمو الحرية الفردية والتطلع إلى النجاح في الحياة. هذا هو مفهومنا للحضارة، ولما نسميه بالتطور الكامن في تغيير البيئة الاجتماعية والذي تترتب عليه مثل هذه النتاج. الايمان بوجود وإمكانية التقدم هو عقيدتنا العلمانية والعمل على تنميتها وتطورها في جميع أنحاء العالم هو رسالتنا العلمانية.

وكما يقول السير جي. آر. سيلي «انه إذا كان التاريخ علمي في أسلوبه، إلا أن غايته عملية بمعنى أنه لا يقتصر على إشباع فضول القارئ عن الماضي فحسب، بل يدفع إلى تغيير عن الحاضر ونبوءته عن المستقبل. وإذا التزمنا بحكمة سيلي وافترضناها حكمة سليمة، فان تاريخ الوجود البريطاني في الخليج يمكن أن نسميه بالأسلوب الأخلاقي. ولا بد أن ينشأ عن هذا المفهوم استنتاج عظيم في غاية العظمة. بذلك يتعين على هذا التاريخ أن يعبر عن الاتجاه العام للقضايا بصورة تجعلنا نفكر من خلالها في المستقبل وعلى توزيع أدوار المصير المرسوم للشعوب.

من بين الأقطار الأوربية التي لعبت دورا بارزا في سياسات الخليج، انفردت إنجلترا على امتداد القرون الثلاثة بالمحافظة على وجودها وتطويره. كما أن بعض الدول التي لعبت في يوم من الأيام دورا بارزا في الخليج كالبرتغال وهولندا مثلا، عادت وأدارت ظهرها بطريقة أو أخرى إلى ماضيها وأخذت تنتهج أسلوبا مختلفا في تطورها.

أما الدول الأخرى كألمانيا وتركيا وروسيا، فقد اتجهت وجهات أخرى، ولم تعد تعتبر احتلالها لميناء أو مرفأ على الخليج كهدف قومي استراتيجي، وكانت السياسة الفرنسية حتى عام 1904 أيام أن كانت معادية لبريطانيا العظمى كانت سياسة سلبية وكانت تهدف إلى إحراجنا لكي تحصل في الوقت المناسب على مكاسب لها في مناطق أخرى. غير أن النفوذ البريطاني ظل ينمو باطراد. وفي مستهل القرن العشرين كان هذا

النفوذ أقوى من أي وقت مضى، كما خرج من الحرب العظمى قويا يتحدى.

أنها إحدى معجزات التاريخ أن يخرج من هذه الجزيرة رجال لا من أجل خلق شعوب حرة عظيمة وبناء إمبراطورية مستقلة فحسب بل من أجل ممارسة نفوذ معنوي في كثير من مناطق العالم (والخليج مجرد واحد منها) غالبا من دون دعم مادي الأمر الذي رسخ السلام في مناطق لم تعرف الأمن والأمان منذ آلاف السنين وبذلك ارتفع مستوى الحياة لكل الطبقات.

ولكي يتمثل الدرس الذي يقدمه لنا عيد الميلاد «فاننا قد ضاعفنا من سكان العالم، كما ساعدنا على إشاعة البهجة بين الناس. كما سبقنا غيرنا في تطبيق المبادئ التي قامت عليها عصبة الأمم في منطقة الخليج أكثر من أي مكان آخر.

إن عملنا هذا لا يكمن في ميزة انفردت بها طريقة الحكم في بريطانيا بقدر ما يكمن في الأجهزة التي يعمل بها نظامنا والتي شكلت لتتكيف مع المهمة المرسومة. وكما يقول اللورد روزبري «ان الإمبراطورية البريطانية قد قامت على سواعد الرجال» ولم تفتقر بريطانيا يوما من الأيام مثل أولئك الرجال الذين كانوا يملأون مختلف الوظائف والمهام السياسية في الخليج، وعما إذا كان هؤلاء الرجال سوف يستمرون في العطاء تحت الظروف المستجدة في الهند، فان ذلك موضوع يقتضي اهتماما شديدا من رجال وزارة الخارجية البريطانية الذين يقع على عاتقهم مسئولية ملئ هذه المناطق بتلك المسئوليات التي كانت قبل اليوم من اختصاص حكومة الهند. أما أن ذلك الفراغ فسوف يتم ملئوه باستمرار من الأكفاء من الرجال فانها حقيقة لا يرقى إليها الشك.

وايمانا بهذه العقيدة وباستذكار السجل الحافل لأولئك الذين أدوا عملهم في هذا المضمار قرابة ثلاثمائة عام فإننا نردد في صلاة صامتة كلمات رجل من أعظم الرجال الذين خدموا صاحب الجلالة في الخارج: «بالنسبة لي فان رسالة هؤلاء محفورة في صخرة من الجرانيت ومنسوجة في صميم القدر بأن ما قمنا به كان عملا حقا، وأنه سوف يبقى خالداً».

الفهرس

مقدمة ٥

تقديم ٧

الفصل الأول: نظرة تاريخية وجغرافية ١١

الفصل الثاني: الخليج في العصور التاريخية الأولى ٢٣

تجارة بابل في الخليج: ٣٦

الفرس والخليج: ٣٩

الفصل الثالث: الخليج في العصور الوسطى ٤١

البحرين ٥١

الفصل الرابع: وصول البرتغاليين إلى الخليج ٦٥

المرحلة الأولى: ٦٧

الفصل الخامس: الصراع بين الإنجليز والبرتغاليين ٩٣

بعثة شيرلي: ٩٦

تأسيس شركة الهند الشرقية: ١٠٠

الفصل السادس: طرد البرتغاليين من الخليج ١١١

الفصل السابع: الهولنديون في الخليج ١٢٥

قدوم الهولنديين: ١٣٣

تطور سياسة شركة الهند الشرقية: ١٤٦

الفصل الثامن: القرن الثامن عشر ـ نمو النفوذ البريطاني في الخليج ١٤٩
الهولنديون في جزيرة خرج: ١٦٠
قبائل بني كعب: ١٦٦
الفصل التاسع: نشوء الدويلات العربية ١٧٣
مسقط: ١٧٦
الفصل العاشر: الخليج في خضم السياسات الدولية ١٨٧
المواصلات في الخليج: ٢٠١
تجارة الأسلحة: ٢٠٧